

د. طالب الحجابي

نظريّة التطوّر الداروينيّة

خبرافه باسم علم



نظريّة التطوّر الداروينيّ

كافة الحقوق محفوظة وتسجيله

الطبعة الأولى

١٩٨٩م - ١٤١٠هـ

دار الأضواء
للطباعة والنشر والتوزيع

شارع حرّيك - شارع دكاش - ص.ب. ٤٠/٢٥ - برفيتا، غبيري - حسنكو - بيروت - لبنان .

نَظَرِيَّةُ التَّطَوُّرِ الدَّارِوِينِيَّةُ

خُرَافَةٌ بِإِسْمِ الْعِلْمِ

تَأَلِيفُ

الدُّكْتُورِ طَالِبِ الْبَحْمَانِيِّ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاهداء :

الى شباب الأمة

بسم الله الرحمن الرحيم مقدمة المؤلف

منذ اكثر من قرن من الزمان ومفهوم التطور يسيطر على عقول العلماء والناس العاديين ، خاصة في مجتمعاتنا الحاضرة، وبالنسبة للبعض فان التطور حقيقة لا جدال فيها وقد وجدت المادية المعاصرة سندها القوي في المفاهيم التي تطرحها فكرة التطور . ونتيجة لذلك فان المادية انتشرت وسيطرت على سلوك المجتمعات الحديثة ، جالبة معها الوثنية القديمة باطار جديد مغلف بقناع العلم . وقد ساعد في ذلك عجز الكنيسة الغربية في الدفاع عن نفسها وعن مفاهيمها بسبب تعارض هذه المعتقدات مع الاكتشافات العلمية ، خاصة في حقول الفيزياء والفلك والاحياء ، وسهولة برهان خطأ هذه المعتقدات فلسفياً .

لقد أنجز علماء الأحياء عملاً ضخماً لفائدة البشرية . ومن المعلوم فان التعامل مع الكائنات الحية أصعب بكثير من التعامل مع الموجودات المادية ، ولذا فان عمل هؤلاء العلماء لم يكن سهلاً أبداً ، ولا يمكن لأحد أن يستصغر أو يستهين بالاكتشافات العظيمة لهؤلاء العلماء ، ولكن عندما تصل المسألة الى طرح فكرة التطور فان الموضوع يصبح قضية أخرى تخرج عن اطار العلمية ، وتدخل في اطار آخر لا علاقة له بعلم الاحياء ، وذلك لأنه استقراء فلسفي ، وبذلك

فانه يدخل في مجال الفلسفة . ولذا يمكن التعامل معه على هذا الأساس .

وعند تمحيص الآراء والأدلة المطروحة من قبل التطوريين تبين لنا أن الوضع يختلف اختلافاً جوهرياً عما هو شائع ، وعما يريد هؤلاء العلماء لنا أن نعتقد . فالأدلة العلمية قليلة ومبعثرة ولا يمكن بأي حال من الأحوال بناء نظرية معقدة كأصل الحياة عليها . ونتيجة لذلك فإن الذين يؤمنون بالتطور تعثروا كثيراً بطرح نظريات خاطئة ثم تخلوا عنها بمرور الزمن . وليس هناك اتفاق بين العلماء على نظرية واحدة الى يومنا هذا ، كما أنه لا توجد نظرية تمتلك سنداً فلسفياً كافياً . وفي الواقع فإن التطور أصبح مجرد اعتقاد ، فأما أن تؤمن به أو لا تؤمن وبالنسبة لأولئك الذين يعتقدون به فانهم (وكما سنرى) يؤمنون بهذه الفكرة ويبحثون عن أدلة لتبريرها وليس العكس (أي ايجاد الأدلة التي تكشف أن فكرة التطور هي الواقع) كما هي الحالة مع الاكتشافات العلمية في حقول العلم الأخرى .

كذلك فإن نظريات التطور في تفسير أصل الحياة لا تمتلك أي دليل علمي لاسنادها على الاطلاق ، ولا تتعدى أن تكون مجرد استقراء مبني على أساس أن فكرة التطور صحيحة ، ومنها يرجع العلماء الى الوراء لطرح بعض الآراء على هذا الأساس .

لقد سُيِّد مفهوم التطور على فكرتين ، الأولى هي وجود التشابه بين الكائنات الحية ، والثانية أن بعض الأحياء انقرضت ولذا فإن احياءاً أخرى بالضرورة قد ولدت . إلا أنه لا تتوفر أدلة تسند فكرة ولادة هذه الأحياء الأخرى . وعندما حاول التطوريون تطبيق نظرياتهم على الانسان جابهوا صعوبات خاصة ، فالأدلة بينت ان الانسان ظهر فجأة على الأرض ، وان انسان النياندرتال الذي كان يُعتقد أنه من فصيلة القردة اتضح انه انسان من نوع آخر ظهر على الأرض وانقرض بنفس هيئته ودون أي تغيير أو تطور مزعوم ، وليس هناك أي علاقة بينه وبين الانسان الحديث . ومشكلة الانسان كانت أكثر

استعصاءً على التطورين عندما حاولوا تفسير قابلياته العقلية التي فاقت كل متطلباته للبقاء ، ويتضح أن فكرة التطور قد طُرحت على عجل ، وبدون تمحيص للتعقيدات والتبعات الفلسفية التي تصحبها ، ذلك لو أن أي من الكائنات الحية يتم تمحيصها بعناية ، فإن الصعوبات التي سوف تُواجه هي نفسها كتلك التي واجهها التطوريون مع الانسان .

وهناك مسألة أخرى لم تأخذها نظريات التطور بنظر الاعتبار ، وهي المسألة التي تخص المعلومات التي يحتاجها الكائن الحي لكي يتمكن من أداء وظائفه ، والتي تمثل الفرق ، كل الفرق ، بين الحياة والمادة ، وبدلاً من ذلك فإن التطوريين نظروا الى الكائن الحي وكأنه نظام مادي فقط . وكان هذا أضعف ركيزة استندت عليها النظرية . فعند النظر بعناية الى الموضوع وجدنا انه حتى الخلية الحية الأولى المزعومة ، والتي يقولون أنها انبثقت بطريقة الصدفة ، احتاجت الى كمية كبيرة من المعلومات المعقدة لكي تصبح حية ، وانه لمن الصعوبة بمكان تصور امكانية اجتماع هذه المعرفة المعقدة بنفس الوقت بطريقة الصدفة . وقد بين التحليل (المطروح في الكتاب) أن التطور مفهوم يناقض نفسه بنفسه ، وان هناك تفاسير أخرى لأصل الحياة أكثر منطقية من التطور . والأدلة العلمية الحديثة بينت أن الإنسان ليس مجرد مادة ، وأن الروح موجودة ، وأن الخلق بواسطة الله تعالى هو التفسير الوحيد المعقول والذي لا يتناقض مع الأدلة العلمية . واذا حررنا بعض المفاهيم من المعتقدات المسيحية الخاطئة فانه بالامكان اعطاء تفاسير صحيحة ومنطقية لكثير منها ، مثل مفهوم العدل الالهي ومعنى العبودية لله واحقية الجنة والنار ، وتلاشي عند ذلك التناقضات التي يجدها المفكرون الغربيون في المعتقدات المسيحية التي كانت السبب الرئيسي وراء تخليهم عن فكرة الله واللهث وراء فكرة التطور لتفسير اصل الحياة .

وقد أشار الفلاسفة الالهيون الأوربيون الى أن الله لا يخضع للزمن . ولكن بالرغم من ذلك فانهم لم يستطيعوا أن يحرروا أنفسهم من اطار الزمن عند

التكلم عن الله . هذا ، وبالإضافة الى عجزهم عن توضيح فكرة أن الله لا يخضع الى ما يَخْلُق وأحد المخلوقات هو القانون ، فان ذلك مَكَّن الفلاسفة الماديون من أن يجدوا نقاط ضعف في الفلسفة الالهية (التي تؤمن بالله) والتي استطاعوا أن ينتقدوها بكل قوة . كذلك فان الفلاسفة الالهيون ، بالرغم من محاولتهم تفسير أصل الروح فانهم لم ينجحوا في ذلك ، خاصة عندما تأتي القضية الى تفسير كيفية امتزاج روحي كل من الحيمن والبويضة لتكوين روح واحدة وليس روحين . لذا فانهم قالوا بأن الروح تدخل الجسم بعد تكوين الجنين مما دعا (برتراند رسل) الى القول أن ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا ، ذلك أن الزاني يضع الحيمن عند البويضة ، ثم يأتي الله ليضع الروح في الجنين الحرام ، حسب زعمه . وهذا يبين الى أي حد وصل الفلاسفة الأوربيون في تحبّطهم وخلطهم بين المفاهيم الالهية الحقيقية وبين المفاهيم الدخيلة . و (رسل) هذا الذي ينتقد كون الروح تأتي بعد تكوين الجنين يحاول أن يضع نظريته في تفسير العلاقة بين الروح والمادة فيقول أن المادة والعقل عبارة عن نوعين من الظواهر تُبنى من شيء ثالث أكثر أساسية من كليهما . وهو في الواقع لم يضع نظرية جديدة وإنما قال ما قاله اولئك الذين انتقدهم ولكن بصورة مختلفة . وعلى كل حال فان كلتا النظريتين ، نظرية الفلاسفة الالهيين ونظرية (رسل) لا تفسران كيفية نضوج العقل عند الانسان مع تقدم العمر من الطفولة حتى البلوغ بالرغم من أن الانسان يُدخل الى جسمه المادة فقط على شكل غذاء . ونظرية (رسل) لا تستطيع تفسير كيفية امتزاج الظواهر المكوّنة للعقل (أو الروح) عند كل من الحيمن والبويضة لتكوين عقل واحد عند الجنين وليس عقليين .

والواقع ان النظرية الوحيدة التي بإمكانها تفسير العلاقة الوثيقة بين الروح والجسم (اي العقل والمادة) هي نظرية الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي . ومن خلال هذه النظرية فان تفسيراً مبسطاً يمكن الحصول

عليه لكيفية امتزاج روحي كل من الحيمن والبويضة ، وكيفية نضوج العقل عند الانسان مع مرور الزمن ، والى الوجود المتصل بين المادة والعقل والأنواع الأخرى من مستويات الوجود المحتمل وجودها .

لقد حاولت في هذا الكتاب الاجابة على بعض الاسئلة التي دأب على طرحها الماديون ، والتي عندما لم يستطيعوا الإجابة عليها قالوا بأن الله ليس موجوداً . وصعوبة الإجابة على هذه الاسئلة كانت في نظري ، مسؤولة جزئياً عن تحلي الملحددين عن فكرة الله واللهث وراء نظريات التطور . ولذا كان لا بد من التطرق اليها لاتمام البحث ، فبعد توضيح خرافة فكرة التطور لا بد من توضيح المفاهيم الالهية التي كان سوء فهمها حجر عثرة أمام كثير من المفكرين ، وخاصة الاوروبيين منهم ، لان الرجوع الى تفسير الكنيسة لهذه المفاهيم يصطدم بالرفض المنطقي لها والذي يصاحبه رفض فكرة الله باعتباره الصانع لهذا الكون .

كتب هذا الكتاب في الاصل الى قراء اللغة الانكليزية بسبب طغيان فكرة التطور على تفكير الانسان الاوربي لتبيان الأسباب التي دفعت الاوروبيين الى اتباع هذه الفكرة ونكران وجود الله ، ولتوضيح عدم علمية الفكرة بالرغم من تغليفها بالعلم . وبسبب اهمية الموضوع فقد قررت اعادة كتابة الكتاب باللغة العربية الى قرائنا الاعزاء . والكتاب ليس ترجمة حرفية للكتاب الأول لان كلاً منهما موجه الى ما يستسيغه قراؤه مع الاحتفاظ بجوهر المعلومات في كليهما . ويلاحظ اننا حاولنا استعمال آراء اولئك الذين يؤمنون بالتطور انفسهم لتفنيد الفكرة التي يؤمنون بها زيادة في الحجة عليهم وانطلاقاً من مبدأ العلمية والنقد الموضوعي .

الدكتور طالب الجنابي

١٩٨٩/١/٥

الباب الأول

تخطيط الفكر الاوربي

الفصل الأول

الحالة الفكرية للكنيسة الاوربية الحديثة والفكر المادي

قيل ان الانسان الشرقي نظر الى السماء دائماً على أنها سبب الخليفة بينما نظر الانسان الأوربي دائماً الى الأرض ، وقد لا يكون هذا صحيحاً دائماً ، الا أنه ليس خطأ أيضاً فهو يشير بوضوح الى الفلسفات المادية التي نشأت في اوربا وبقيت تظهر بين الحين والآخر على مر التاريخ كلما كانت الظروف الاجتماعية تسمح بذلك .

وقد حكمت الكنيسة خلال العصور الوسطى في اوربا بقبضتها القوية ومعتقداتها الصارمة . فالحقيقة كل الحقيقة عن الخلق بالنسبة لها كانت موجودة في الانجيل . ولكن بتقدم العلوم واكتشافاتها في العصور اللاحقة ظهر نزاع بين الدين والعلم . وبذلك فان موقع الكنيسة ومعتقداتها بدأت تتقهقر في أوربا ، وظهر خط فكري انشأه بعض العلماء والفلاسفة انحرف تدريجياً عن معتقدات الكنيسة . (وبرتراند رسل) يوضح هذه المشكلة بالقول^(١) (بالنسبة للمسيحية كانت هذه النزاعات على نوعين، فأحياناً قد يكون هناك نص عن الانجيل

(١) انظر المصدر رقم (٢٥) ص ٩ - ١٠ .

يؤكد حقيقة معينة ، مثلاً أن الأرنب البري يعض الجرو . . . وبصورة عامة فان عدم الاتفاق بين الدين والعلم كان في البداية من النوع الأول ، ولكنه أصبح بمرور الزمن يخص قضايا تعتبر من التعاليم الأساسية للمسيحية) وقد أصبحت بعض المعتقدات ، مثل أن المسيح ابن الله ، صعبة القبول في الأوساط العلمية والفلسفية ، كذلك فان تاريخ الطوفان الذي ينص عليه الإنجيل في عهد النبي نوح (ع) وُجِدَ انه مخالف للحقائق التاريخية حيث كانت هناك حضارات ، مثل الحضارة البابلية والحضارة المصرية في ذلك الوقت (*). وقد اعتبرت الكنيسة أن نظرية غاليليو التي تقول أن الكرة الأرضية تدور حول الشمس بدعة ، وذلك لان المعتقدات المسيحية كانت تعتبر الكرة الأرضية مركز الكون ، فالكنيسة التي اعتقدت أن المسيح هو ابن الله تصورت أنه من غير المعقول أن يرسل الله ولده الى جرم تافه كذلك الذي تصوره نظرية غاليليو . فمركز الكون هو المكان الوحيد الذي يليق بابن الخالق . وهذا بطبيعة الحال يتبعه تصور أن الكون مخلوق على شكل كرة وأن المركز هو المهم ، وهذه تصورات لا أساس لها على الاطلاق . فليس هناك ما يدل على أن الكون كروي ، وليس هناك ما يدل على أن المركز أهم من غيره . ومع ذلك فان غاليليو في نظر الكنيسة قد كفر . ولم يعلم غاليليو ولا الكنيسة أن القرآن كان قد أخبر المسلمين قبل ذلك بقرون بأن الكرة الأرضية ليست سوى جرمأ سابقاً في الفضاء مثلها مثل الاجرام الأخرى . الا أن الكنيسة التي كانت تحرق الملايين من النساء بدعوى السحرم يكن لديها متسع من الفراغ للعلم ، أو العلماء .

وبعد تقدم العلم وتغير الأوضاع الاجتماعية في أوروبا بدأت الكنيسة تفقد

(*) لاحظ ان القرآن لا ينص ان العالم كله غرق وانما قوم نوح فقط كما في سورة الفرقان الآية ٣٧ ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل اغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ . كما ان القرآن لا يصرح بتاريخ الطوفان .

سيطرتها على المجتمعات الأوروبية مما أدى الى رفع الاضطهاد عن العلماء الذين بدأوا يتحدثون الكنيسة علناً . فقد ظهرت اكتشافات علمية لا تقبل الشك أدت الى زعزعة ايمان كثير من العلماء والمفكرين بالمسيحية . فالانجيل ، وباعتباره كتاباً الهياً ، يجب أن يكون صحيحاً بأكمله . فالله لا يمكن أن يخطأ ، وأي خطأ فيه يعرضه الى خطر كونه ليس صادراً عن الله . و (برتراند رسل) يوضح ذلك بقوله^(١) ان هذه الحجة تستند على سلطة الانجيل التي يمكن المحافظة عليها فقط اذا قُبل الانجيل ككل . وقد حاولت الكنيسة الدفاع عن نفسها ولكنها فشلت . فالحقائق العلمية كانت ساحقة ولا يمكن مقاومتها بواسطة حجج الكتاب المقدس) . ويستمر (رسل) بوصف وحدة الإنجيل الهشة بقوله^(٢) ان الوحدة المنطقية قوة وضعف بنفس الوقت . فهي قوة لأنها تنص على أن من قبل مرحلة معينة من الجدال يجب أن يقبل المراحل التي تليها ، وهي ضعف لأن من يرفض أي من المراحل التالية يجب أن يرفض بعض المراحل السابقة على الأقل . والكنيسة تعرضت في نزاعها مع العلم لكلا القوة والضعف الناتجتين عن الترابط المنطقي لمعتقداتها) . وكانت هذه خطوة الى الوراء بالنسبة للكنيسة التي عانت من اندحارات كثيرة في معركتها ضد العلم . فالتناقضات لا يمكن التغاضي عنها ، ذلك انه اذا كان الانجيل كتاباً الهياً فانه لا يجب أن يتعارض مع العلم ، والنتيجة أن الكنيسة خسرت المعركة ضد العلم كما يوضح (رسل) ذلك بقوله^(٣) بين الدين والعلم كان هناك نزاع مرير وطويل حتى السنين القليلة الأخيرة ، وقد برهن العلم بصورة ثابتة على أنه المنتصر فيه) . فانسحب العلماء والمفكرون من الكنيسة اولاً ، ثم تبعهم الناس ، ثم انعكست العجلة وتراجعت الكنيسة الى الداخل ، الى صلاة يوم الأحد . والآن فان الكنيسة تحاول جاهدة

(١) انظر المصدر رقم (٢٥) ص ١١ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣١ .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٧ .

ارجاع الناس الى المعتقد بعد أن تخلوا عنه . وتعتقد الكنيسة الآن أن تعاليمها يجب أن تتغير بموجب متطلبات المجتمع وتتطور مع احتياجاته . أي أن التعاليم يجب أن تتطور لكي تتماشى مع رغبات الناس وليس على الناس أن يتبعوا التعاليم ، والذي معناه ان الله يجب يخضع لرغبات الناس وليس الناس هم الذين يتبعون أوامر الله . وهذا يدعونا لأن نتساءل: اذا ، كانت هذه هي الحالة فلماذا أرسل الله عيسى (ع) لكي يصحح اليهود ويقف ضدهم ويدعوهم الى الرجوع الى أوامر الله ؟ الم يكن المفروض فيه (بموجب هذه النظرية) أن يقبل بتغييرهم لتعاليم التوراة لكي تتماشى مع متطلباتهم في ذلك الوقت . ولكن إذا كانت التعاليم يجب أن تتغير كما يزعمون أليس المفروض أن يغيرها الذي وضعها أولاً وهو الله تعالى ؟ أليس من المنطق أن يرسل الله رسولاً آخر ليخبر الناس بالتعاليم الجديدة ؟ وهذا بطبيعة الحال يتفق مع سيرة البشرية وإرسال الأنبياء من قبل الله على مر التاريخ . وإذا كنا نعطي أنفسنا الحق في تغيير التعاليم فلماذا ننكر هذا الحق على اولئك الذين عاشوا قبلنا وندعي أن اليهود على خطأ لأنهم غيروا تعاليم موسى كما يشتبهون؟ وإذا كان باستطاعة البشر اختراع التعاليم وتغييرها فلماذا الحاجة الى الأنبياء ؟ ان هذه الفكرة تنسف ضرورة ارسال الرسل من الأساس ، ويصبح الناس الذين لا يتبعون الأنبياء ليسوا كفاراً ولا يحق لنا أن ندعوهم هكذا ما دام لهم الحق في تغيير التعاليم واتباع ما يرغبون . وهكذا فان الكنيسة تخلت تدريجياً عن معظم معتقداتها ، و (رسل) يوضح ذلك بالقول^(١) ان الحجة التي في صالح الدين تستند الآن على تأثير الدين في الدعوة الى حياة أفضل على الأرض أكثر من ارتباطه بالحياة الآخرة . . . ان الاعتقاد بأن الحياة الدنيا هي تحضير لحياة أخرى ، والذي كان له تأثيره على الاخلاق والمثل والسلوك ، قد توقف الآن

(١) انظر المصدر السابق ص ١٣٦ .

من التأثير حتى على أولئك الذين لم يتخلوا عن هذه الفكرة بصورة واعية) .
وهذه اشارة واضحة على تأثير المادية الحديثة على الكنيسة الأوربية . ويؤكد
(روبرت باين) هذه النقطة بالقول^(١) ان الكنيسة أصبحت عدواً للعقيدة
بالنسبة لكثير من المسيحيين وأصبح البابا عدواً للمسيح . وتبدو قساوة الكنيسة
واستبدادها وتنظيمها مخالفة للحرية التي تنسب الى المسيح . ولذا فان الثورة
كانت واسعة الانتشار ، وأحياناً يمكن رؤيتها ضمن الكنيسة نفسها) .

ان مشكلة الكنيسة هي ان معتقداتها لم تكن صحيحة كلياً ابداً للسبب
البسيط هو أن المسيحية دين صنعة الانسان . فقد وضعت المعتقدات بواسطة
رجال انحرفوا عن تعاليم المسيح الحقيقية منذ البداية وهؤلاء الرجال جمعوا هذه
المعتقدات وفلسفوها للخروج بدين عالمي جديد . و (برتراند رسل) يذكر ذلك
بعد الغوص في تاريخ نشوء المسيحية وتطورها فيقول^(٢) ان المسيحية ، وفي
البداية ، بُشّرت بواسطة اليهود لليهود على أساس أنها تصحيح لليهودية . وقد
أراد لها القديس جيمس ، وكذلك القديس بطرس بدرجة أقل ، أن تبقى
كذلك ، وكان من الممكن أن تكون هكذا ، لكن القديس بولص هو الذي كان
مصمماً على ادخال الاميين^(*) اليها بدون المطالبة بالختان او الازعان الى قوانين
موسى . . وبسبب القديس بولص فان المسيحية احتفظت بما هو جذاب في
عقيدة اليهود بدون السمات التي كان الاميون يجدون صعوبة في تقبلها) .
ويتكلم (رسل) عن القديس امبروس Ambrose والقديس جَرَمِي Jerome
والقديس أوغسطين Augustine فيقول^(٣) انهم ثبتوا القالب الذي بنيت ضمنه

(١) انظر المصدر ٣١ ، ص ٢٩٧ .

(٢) انظر المصدر ٢٨ ص ٣٢٥

(*) الاميون هم غير اليهود .

(٣) انظر المصدر السابق ص ٣٣٥ .

الكنيسة أكثر من أي رجال آخرين) . أما (حاييم ماكوي) فإنه يقول^(١) ان الحقيقة هي أن المسيح لم يؤسس ديناً جديداً ، ولكنه بحث عن أداء دور في قصة دين موجود ، وهو اليهودية ، ولقد كان مؤسس المسيحية هو القديس بولص الذي قام بذلك بواسطة اختلاق قصة جديدة ، قصة قديرة وعاصفة ما فيه الكفاية للتبشير بدين عالمي جديد ، وفي هذه القصة الجديرة أعطي المسيح دوراً قيادياً ، ولكن هذا لا يجعله صانعاً للمسيحية أكثر مما يجعل هامليت^(**) كاتباً لروايات شكسبير . . . لقد كان القديس بولص ميالاً عظيماً للخيال ، فاخترق خرافة المسيحية بتأليه عيسى الذي كان يمثل المسيح المنقذ لليهود ، والذي كانت تطلعاته الحقيقية تقع على مستوى السياسة اليهودية المثالية وغير الواقعية) . ومهما يكن رأي (حاييم ماكوي) ، وهو رأي يهودي لا نتفق معه كلياً ، الا أنه يبين حقيقة مهمة وهي أن المسيحية التي نعرفها لم يؤسسها عيسى (ع) ولكن الذي شيدها هو القديس بولص . ويؤكد (روبرت باين) هذه الحقيقة عندما قدم وصفاً تاريخياً لشخصية القديس بولص وكيف ذهب القديس ليضفي معتقداته وآراءه الشخصية على دين عيسى الذي أخذه عن القديس بطرس والقديس يوحنا ، فيقول^(٢) « فظ ونبل ومسافر وجاف ومتعصب وكان أحد أولئك الذين تجرأوا لإنجاز الأشياء المستحيلة .

لقد أعطي بولص المجد لكونه الشخص الأول الذي صاغ العقيدة المسيحية كما نعرفها اليوم . فقد صب نفسه في المسيح وصب المسيح في نفسه ، وستحمل الكنيسة دائماً آثار تلك العملية المستمرة للتقطير التي شغلت نصف حياته . . . ومع ذلك كان هناك شيء ناقص . فبولص كان يتكلم عن المسيح ،

(١) انظر المصدر (٢١) ص ١٨٤ و٢٠٤ .

(**) هامليت شخصية اخترعها شكسبير في كتبه ولها الدور القيادي في الأحداث التي تذكرها تلك الكتب .

(٢) انظر المصدر ٣١ ص ٦٢ - ٦٩ .

ونادراً عن عيسى ، فالرجل الذي كسر الخبز وبارك الخمر كان دائماً ابن الله على
يمين الأب .

وربما كان ذلك لا بد منه ، لأن بولص لم يغفر لنفسه أبداً عدم استطاعته
رؤية عيسى في الجسد(****) . وقد اعتقد انه نُصِب الهياً بواسطة المسيح لجلب
الخلاص الى اليمين ، وقد جاءه الأمر على شكل رؤيا ، والمسيح الذي عرفه
كان مسيحاً خيالياً ، عبارة عن صوت يتكلم بنور عظيم ، وليس لأحد أن
يمسه . وبالنسبة لبولص فان المسيح كان فكرة تجريدية .

ونزعته (أي بولص) كانت استبدادية ، وكانت فيه إنسانية قليلة .
وبالنسبة له ، وله فقط ، تكشفت الحقيقة . . . وهو دائماً المرتجل ، والمخترع ،
مشاهداً أثناء سيرته صوراً ذهنية مثيرة وتعقيدات متداخلة أكثر فأكثر .

« انه ليس مسموحاً الذهاب ما وراء الأشياء المكتوبة » هكذا كتب هو
نفسه في احدى الرسائل الانجيلية ، ولكنه كان يذهب وراءها بصورة مستمرة ،
مفسراً كلمات عيسى' بموجب نزوات عقله الذي كان يلتهب ناراً . وأنه لواضح
أنه لم يكن يعرف أي من الأناجيل ، لأن الأول بينهم لم يكتب حتى الوقت الذي
قرب موته . ويبدو انه كان ، وبكل دهشة ، يعرف القليل عن حياة عيسى' على
الأرض . والذي كان يهيمه فوق كل شيء هو الصُلب ، وهو رآه ليس شيئاً
يُقاسى ، ولكن لهيباً من الطاقة الالهية النابعة من عار الظروف الانسانية ، ونصراً
سماوياً . وما كانت تقوله الأناجيل بعدئذ فانه نكراً أحياناً . واعتقاداته الجوهرية
كانت اعتقاد الرجل الذي تأمل حادثة واحدة على حساب اقضاء الحوادث
الأخرى .

(****) بولص لم يعاصر عيسى لانه ليس من الحواريين .

لقد كانت في عقله قوة ، وتصميم قوي لاستخدام تلك القوة إلى أقصى جهده .

وهو يرجع مرة أخرى إلى الحجة القائلة أنه ليس هناك ما يكسبه الأميون بطاعة قوانين موسى .

ومهمة بولص في رحلاته التبشيرية كانت لايجاد كنائس جديدة ولإجبار اخراج تفسير لرسالة المسيح خارج القانون . . ولم يمه في شيء أن بطرس كان من بين المرافقين الحميمين للمسيح ، وأنه في مناسبات مختلفة وعديدة كان بطرس شاهداً لحوادث استثنائية والتي كان قد شاهدها القليل من الآخرين . ولقد كان بطرس ويوحنا اليمينين الرئيسيين للسر المقدس ، وكلاهما كانا غير مهمين بالنسبة لبولص الذي كان يجبر تفسيره للأنجيل بالقوة بالرغم منها ، وإذا كان ضرورياً ، فضدهما . .

وكان بولص قد انتصر بهذا الشكل المثير في زرق هويته المتحمسة إلى المسيحية المبكرة بسبب لوقا بقدر ما كان بسبب فعالياته التبشيرية ورسائله الملتهبة . انتهى كلام (بان).

وعلى كل حال ، فان (باين) يذكر أيضاً أن هناك الكثيرين بعد بولص الذي شاركوا في صياغة المسيحية التي نعرفها اليوم . فهو يقول^(١) (لم تكن المسيحية بدائية حتى في بدايتها وذلك بسبب دخول أفكار مختلفة فيها . والعقيدة كبرت من خلال حياة عيسى كما مسجلة في الأنجيل ، ومن خلال رسائل القديس بولص والرؤيا الملتهبة ليوحنا البطموسي غير المعروف ، وأصبحت العقيدة تشبه شجرة البلوط الموجهة أوراقها التي لا تحصى نحو الشمس . وقد غدت هذه الشجرة جذور لا تحصى ، فاختلفت الأغصان بين الأوراق المزخرقة

(١) انظر المصدر السابق - ص ٢٩٦ .

الكثيفة . وكذلك يذكر (ماين ميكس) في هذا الصدد^(١) انه واضح من كلا الرسائل والأسفار أن المسيحية البولصية لم تكن عمل شخص واحد ، ولكنها عمل جماعة موسعة من الرفاق) . ومن هنا جاءت ، آيات القرآن الكريم الكثيرة التي تبريء عيسى (ع) من المعتقدات المسيحية ، منها^(٢) ﴿ واذ قال الله يا عيسى ابن المريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي ان أقول ما ليس لي بحق ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك انك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم الا ما امرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم ﴾ . وقال تعالى^(٣) : ﴿ لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة وما من اله الا اله واحد) .

وبعد هذا السرد الذي يقدمه المفكرون المسيحيون يتضح أن المسيحية التي سادت منذ البداية لم تكن تعاليم عيسى (ع) ولكنها تعاليم القديس بولص . وبطبيعة الحال فانه من غير الممكن أن تستطيع المعتقدات التي من صنع الانسان أن تنجح في تفسير الوجود بصورة صحيحة ، لان الانسان ناقص ، وبصورة عامة جاهل بأمور الوجود . وفي أفضل أحوالها فان هذه المعتقدات لا تستطيع أن تشمل على الحقيقة المطلقة للوجود ، لأن الناقص لا يمكنه أن يتضمن الكمال .

ان السؤال الذي يطرح نفسه هو : بماذا يعتقد الناس بعد التخلي عن معتقدات الكنيسة ؟ وقد يرد بعض الأوربيين بالقول (بلا شيء) وهم يعتقدون ذلك ، إلا أنه ليس صحيحاً لأننا نرى حتى أولئك الذين يدعون الايمان بلا شيء يؤمنون ببعض القيم التي وضعها لهم المجتمع أو يضعونها هم أنفسهم . وهناك الفلاسفة والمفكرون الذين يهتم معرفة سر الوجود وتهمهم سعادة

(١) انظر المصدر ٣٢ ، ص ٧ .

(٢) سورة المائدة - الآية ١١٦ و ١١٧ .

(٣) سورة المائدة - الآية ٧٣ .

مجتمعاتهم ، لذا فانهم ينشؤون القوانين والأعراف التي يسير عليها المجتمع . اذن فالجواب على سؤالنا هو ليس الايمان بلا شيء ، ولكن بوضع بعض القيم والايمان بها ، والذي معناه الايمان بمعتقدات معينة أيضاً (فحتى اولئك الذين لا يؤمنون بخلق آدم(ع) فانهم يؤمنون بالتطور) . وبطبيعة الحال فان هذه المعتقدات يجب أن يكون لها ما يبررها بالرغم من أن ذلك ليس ممكناً دائماً . فبعض الناس يبررون معتقداتهم بطرق غريبة . وعلى سبيل المثال ، ظهرت في السبعينات ظاهرة تعري بعض الشباب والشابات في الأماكن العامة على حين غفلة في بريطانيا (وتسمى ستريكنك Streaking ، والشخص المتعري يسمى ستريكر، Streaker) ، وقد سألت احدهم لماذا تتعري؟ فأجاب : ولم لا ؟ وبطبيعة الحال فان جوابه هذا كان تبريراً معقولاً بالنسبة له ، أما بالنسبة لي فقد كان تبريراً سقيماً وإهانة للفكر الإنساني الذي وصل الى الحضيض . ومثال آخر ، أن أحدهم قال لي وهو يوميء الى كأس نصف مملوءة بالماء والتي قلت له أنها نصف مملوءة : «كلا اني لا اتفق معك ، انها نصف فارغة» . والقضية بطبيعة الحال ليس فيها عدم اتفاق كما ظن الرجل ، فالاختلاف لا يكون على وصف الشيء نفسه بتعابير مختلفة أو بطرق مختلفة ، ولكن الاختلاف الحقيقي انما هو ذلك الاختلاف الذي يحدث على أسس منطقية . فاذا كان منطقي لا يتفق مع منطقك فان هناك مشكلة حقيقية ، ذلك لان المنطق يجب أن يكون صحيحاً دائماً . المشكلة اذن ليست في المنطق ولكن في كيفية استعمال المنطق أو في الأساس الذي يبنى عليه المنطق ، فاذا بدأنا منطلقنا من قاعدة أو افتراض خاطئين ، فان المنطق يوصلنا الى نتيجة خاطئة لا محال ، ولقد كان نيتشة ، الفيلسوف الألماني ، ذكياً جداً الا أن منطقته قاده الى نتائج وخيمة وكان السبب في ذلك هو انطلاقة الخاطئة وإيمانه الخاطيء بأن الانسان القوي يجب أن يتخلص من الانسان الضعيف بواسطة الابداء بالقوة تمشياً مع مفهوم التطور القائل أن البقاء للأقوى .

ولكن كيف نعرف ما هو الأساس الصحيح وأين هو؟ ان الجواب على هذا السؤال ليس سهلاً ، ولكنه ليس مستحيلاً أيضاً . والصعوبة تكمن في الرواسب التي تعج بها عقول الناس والتي سببها المجتمعات التي نعيش فيها ومعتقدات الآباء التي تنتقل الى الابناء تلقائياً فيتلقفها الأبناء دون تمحيص وامعان ، وتصبح تشكل خلفية قوية للاختلاف بين الناس . ولنا في قصة ابراهيم (ع) مثلاً رائعاً في ذلك . والقرآن الكريم يلخص لنا القصة بقول الله تعالى: (١) ﴿ واتل عليهم نبأ ابراهيم ، اذ قال لايه وقومه ما تعبدون ، قالوا نعبد اصناماً فنظّل عليها عاكفين ، قال هل يسمعونكم اذ تدعون ، أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ .

(٢) ﴿ ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ .

(٣) ﴿ بل قالوا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ .

(٤) ﴿ قال أولو جنتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم

به كافرون ﴾ .

(٥) ﴿ فما كان جواب قومه الا أن قالوا اقتلوه او حرّقه فأنجاه الله من النار

ان في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾ .

ونرى هنا أن قوم ابراهيم لم يكتفوا بتكذيبه ولكنهم قذفوه الى النار . وهذا

يبين الى أي درجة يمكن لرواسب الماضي أن تصل وكم يمكنها أن تفعل .

والسؤال هنا ، كيف نستطيع أن نتخلص من رواسب الماضي ؟ لا شك

(١) سورة الشعراء - الآيات ٦٩ - ٧٤ .

(٢) سورة الزخرف - الآية ٣٠ .

(٣) سورة الزخرف - الآية ٢٢ .

(٤) سورة الزخرف - الآية ٢٤ .

(٥) سورة العنكبوت - الآية ٢٤ .

أنها مشكلة الفرق بين النور والظلام ، ومشكلة الفرق بين الصحيح والخطأ .
ويستطيع الانسان الواعي أن يلاحظ الى أي مدى تؤثر رواسب المجتمعات
الغريبة على أناسها ، فالفلاسفة الأوربيون عندما يريدون الاشارة الى الفلسفة
القديمة يذكرون الفلسفة اليونانية فقط وكأنها الفلسفة الوحيدة القديمة . وهذا
يبين مثلاً صارخاً على تأثير التحيز غير الواعي .

ومهما تكن خلفياتنا فان هناك شيئاً سنواجهه كلنا وبدون استثناء ، ذلك
هو الموت . ويستهيئ الماديون بهذا الموضوع بالقول انه ليس هناك شيء بعد
الموت ، وهم بطبيعة الحال لا يستطيعون اثبات ادعائهم هذا . والمشكلة تكمن
في أن طريق الموت ذات اتجاه واحد ، وليس هناك رجعة بعد الموت . ولذا فان
قضية الموت كانت مركزية في تفكير الانسان منذ القدم . واذا كان هناك شيء ما
بعد الموت فانه بالتأكيد لا يمكننا معرفته الا بعد اخبارنا به بواسطة قوة خارقة
للطبيعة ، وبطريقة نستطيع فهمها بواسطة ما يتيسر لنا من وسائل السمع والبصر
وغيرها . ذلك لأننا محدودون بالنسبة الى عالمنا ولا يمكننا أن ننفذ الى عالم ما بعد
الموت بأي طريقة من الطرق لنرى ما فيه . اننا ، وبكل بساطة محصورون في
عالم حواسنا . ولكننا مع ذلك نمتلك آلة مقتدرة من نوع آخر ، وهذه الآلة لا
تستطيع النفاذ الى العالم الأخرى ولكنها يمكنها ان تعرف وجوده أو عدم وجوده
اذا ما استعملت بصورة صحيحة . وهذه الآلة هي العقل . وتبقى التفاصيل
التي لا بد من نقلها لنا بواسطة اخرى .

وانه لمن العجيب أن ذلك الانسان الذي يأخذ حذره الأقصى وهو يقود
سيارته على طريق سريعة عندما يقترب من منعطف لأنه لا يعلم ماذا وراء
المنعطف بامتار قليلة ، يعطي نفسه الحق في القول أنه ليس هناك شيء بعد
الموت . أن الحقيقة لا تتغير سواء عرفناها أم لم نعرفها ، وتبقى حقيقة بالرغم
من الأهواء . والخطأ يبقى خطأ حتى لو اعتقد الجميع صوابه . وقد تكون هناك
فائدة بالنسبة لنا اذا عرفنا الحقيقة . ولكن لا يهم الحقيقة بشيء اذا عرفناها أم لم

نعرفها ، لأننا نحن الذين بحاجة إليها ، أما هي فليست بحاجة إلينا . وهذا يبين ضعفنا ونقصنا لأننا بحاجة الى شيء آخر ، مثل الحقيقة . فالحاجة ضعف لأنها نقص . وإذا كانت هذه هي الحالة ، وهي بالتأكيد كذلك ، فان الموضوع يجب ان يعطى الأهمية والعناية التي يستحقها ، الا أنه يبدو ان عجلة الحياة تجرف معها كثيراً من الناس الذين لا يجدون متسعاً من الوقت للتفكير في هذه المسائل التي هي من الأهمية بمكان . وانه لمن الجهل أن تهمل مسألة كهذه . ولكي يشعر الانسان كم هو وحيد في هذا العالم ، فلينظر الى السماء في ليلة صيف صاحبة عندما يكون الناس نيام ، وليغوص في بحر الفضاء بفكره ليشعر كم هو وحيد في هذا الوجود . اننا في الواقع محتاجين كل الاحتياج لمعرفة الحقيقة ما بعد الموت . فأجسادنا لا تتحمل الألم . وان الانسان ضعيف ، وكما قيل^(١) (مسكين ابن آدم ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، مكتوم الأجل ، تؤذيه البقة ، وتنته العرقة وتقتله الشرقة) .

وعندما نبدأ بالتفكير بقضية ما كالحياة والموت فاننا نواجه مرة أخرى تأثير الرواسب علينا، وعلى سبيل المثال فان من يعتقد بالتطور على أنه حقيقة سيجادل بأن الله لم يخلق آدم ، وبذلك فانه سيرفض ما جاء به الأنبياء ، وهذا بطبيعة الحال يقوده الى الاعتقاد بأن الأنبياء كذبوا بادعائهم أن الله خلق آدم على هيئته كإنسان ، واذن فهم ليسوا انبياء وأن الله لم يرسل أحداً ، عندها فان الله لم يخبرنا عن وجوده وإنما الإنسان هو الذي اختلق فكرة الله ، وبذلك فليس هناك من دليل على وجود الله . هذا هو منطق الماديين ، ونلاحظ فيه كيف انه يصل الى نتيجة خاطئة بسبب استناده على القاعدة الخاطئة التي تقول أن التطور حقيقة واقعية بالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على صحتها . وهناك من يحاول أن يوفق بين اعتقاده بوجود الله وبين التطور لأنه يؤمن بالاثنين معاً فيقول ان التطور

(١) نهج البلاغة - الامام علي (رض).

لا يدل على أن الله ليس موجوداً لأن الله هو الذي خلق قابلية التطور في الكائنات . وهذا الرأي يصطدم بفكرة خلق الله لأدم كما انه لا يستطيع أن يوفق بين الفكرة الالهية القائلة أن الله خلق الكائنات الحية وبين فكرة التطور القائلة أن الكائنات الحية تطورت من خلية واحدة انبثقت بطريقة الصدفة . وأصحاب هذا الرأي أغلبهم ممن يعتقد بوجود الله ولكنهم مع ذلك يدعون لادعاء التطورين بسبب اعتقادهم بصحة آرائهم التي تُصوّر لنا على انها علمية وأن الدليل العلمي قد قام على صحتها ، وهم يجهلون أن هذا الادعاء باطل من الأساس . فكما سنرى ان آراء التطورين ليست سوى آراء شخصية لا تستند على أدلة علمية قطعية . وقد يكون هذا الكلام غريباً ، ولكنه أغرب من الخيال . فهذا الغبار الذي يُثار حول عقول الناس بكثافة شديدة لحملهم على الاعتقاد بالتطور أساسه آراء بعض الناس الذين لا يؤمنون بالله لأنهم نكروا تعاليم الكنيسة للأسباب التي سردناها . وبالنسبة لهم فان الديانة المسيحية تمثل الديانة الالهية ، وعند اقامة الدليل على خطأ بعض معتقداتها فان ذلك قادم الى الاعتقاد بخطأ جميع الأديان الأخرى دون النظر في تعاليم تلك الأديان ، وبذلك فانهم كفروا بوجود الله ولم يكن امامهم سوى الرجوع الى المادية ، وهذا قادم الى الاعتقاد بحقيقة التطور ، اذ لو أن الله لم يخلق الكائنات الحية فمن أين أتت هذه الأحياء ؟ لا بد وأنها جاءت من الأرض . ولما كانت بعض الكائنات أكثر تعقيداً من بعضها ، وبسبب وجود التشابه بينها ، فلا بد وأنها تطورت بعضها من بعض ، وهكذا الى آخر المطاف . وهذه ، هي الخلفية التي كانت وراء ظهور فكرة التطور ، وتبين لنا مرة أخرى كيف يوصل المنطق الانسان الى نتيجة خاطئة عند اعتماده على أساس خاطيء . ووراء هذه الرعونة جرى مثقفونا العرب الذين بهرتهم تكنولوجيا الانسان الأبيض ، هذه التكنولوجيا التي لم ترتفع بالانسان الأبيض الى مستوى معاملة المرأة في مجتمعه على حد السواء مع الرجل . فهذه كندا وامريكا، ولعجبي الشديد، اكتشفت فيها أن أجور المرأة أقل من اجور الرجل عندما يؤديان نفس الوظيفة . وكما قال احدهم

انهم لكي يبيعوا جوارب نسائية ثمن الواحدة دولاراً واحداً فانهم يعرضون دعاية لمرأة عارية في سبيل جذب النساء لشراء هذه الحاجة البخسة . والمطلع على الحياة الغربية يلاحظ أن أكبر تجارة رابحة هي الدعارة وما يتصل بها . وهكذا بالنسبة لهم ، فان الانسان أصبح آلة ليس الا . فاذا كانت التكنولوجيا دليل التقدم فلماذا لم تتقدم نفوسهم باتجاه احترام الانسان اذن ؟ واذا كانت التكنولوجيا قد تمخضت عن هذا الواقع ، فماذا يتوقع منها مفكرونا عندما لهثوا وراءها ؟

لقد ركض بعض مثقفينا وراء الحضارة الغربية بدون وعي ، والبعض الآخر بقي في منتصف الطريق ، فلا هو يركض ولا هو واقف ، وإنما حاول الموازنة ، فهو يأخذ من الغرب نصف ما عندهم ويحاول توفيقه على مجتمعه ، وهؤلاء خسروا المشيتين . أما البعض الآخر فقد بقي واقفاً ولم يعبر عن رأيه بصراحة بسبب خوفه من التيار الذي أوجده الآخرون ، الا القليل القليل منهم ، وهؤلاء ، ولشديد الأسف ، وصمم الآخرون بالتأخر فترجعوا الى مواقعهم بدل الدفاع عن أنفسهم ، أولئك الذين كان التعري بالنسبة لهم هو التقدم والإباحية هي التقدم . تالله متى كان التمهّر تقدماً ؟ أو ليس ذلك معناه أن المومسة أكثر تقدماً من العفيفة . . أو يكون هذا معقولاً . . ولكن لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم .

وأنا لا أعير أهمية كبيرة الى المجادلات بين المدارس الفكرية المختلفة ، سواء أثرت هذه المجادلات بسبب النزعات الشخصية ، أو بسبب الجدال من أجل الجدال والذي يجعل الموضوع تضييعاً تاماً للوقت والجهود ، ولكن ما اعير له أهمية هو العدالة لأن العدالة هي الحقيقة ذاتها . والعدالة هي اعطاء كل ذي حق حقه ، لا أقل ولا اكثر . وبذلك فان طريق الحقيقة ينتهي عند معرفة الحق ومعرفة لمن يعود هذا الحق . ولكن متى نستطيع أن نعتبر الحق حقاً ؟ وللإجابة على هذا السؤال فانه من الضروري التخلي عن روااسب الماضي والابتداء من جديد ، من بديهيات العقل الأساسية ، ومن اللبنة الأولى للمنطق . والحق يجب

أن يتفق مع المنطق ، وما لا يتفق مع المنطق يجب لفظه . وعند البحث عن الاحقية يجب أن نعي بأن علينا اتباع الطريق خطوة خطوة . وإذا لم نستطع الحصول على تفسير منطقي مقبول لأي خطوة على الطريق يجب أن لا نقفز من فوقها الى الخطوة التي تليها كما يفعل البعض دون وعي منهم ، لأن هذه القفزة قد تكون هي الفرق بين البقاء على الطريق الصحيح أو الإنحراف عنه . والمشكلة في هذه القفزة أن الناس الذين يفعلونها إنما يقومون بها اعتماداً على خلفياتهم العقلية المملوءة بالرواسب والمستمدة من طريقة تفكيرهم المحشوة بأخطاء المجتمع التي سببها الجهل المتراكم خلال التاريخ .

ولعله من المفيد هنا ان نذكر ان بعض الناس يعتقدون أن المنطق يختلف من انسان الى آخر اعتماداً على خلفيات الناس وعلى المعلومات التي يمتلكونها . وهذا خطأ شائع ، فالمنطق ، كما ذكرنا ، لا يختلف من انسان الى آخر اذا لم يُسخر للأغراض والنزعات الفردية ، لأن المنطق هو المنطق وهو نفسه بالنسبة لكل الناس اذا كان الغرض من ورائه التماس الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة . . فعقل الانسان جزء من هذا الكون الذي تسري العدالة في جميع ارجائه ، والتي يمكن تحسسها من خلال قوانينه الصارمة المسيطرة عليه ، والتي نظمت كل جزء فيه ، وأحد هذه الأجزاء هو العقل البشري الذي يمثل نظاماً متطوراً من أنظمة الكون . وأنا لا أنكر ان عقل الانسان الاعتيادي معرض الى تقبل المعلومات الخاطئة بسبب قلة الوعي ، ولكن المفكر او الفيلسوف ، وكما وصفه افلاطون ، يبحث عن الحقيقة ولا شيء سواها ، ولذا فان المفكرين والفلاسفة يتحملون مسؤوليات ضخمة تجاه الناس ، وانه ليس من باب اللهوان يتفلسف المرء ، ولا من باب اللهوان يلعب بعقول الناس . ومن هنا فان من يضع افكاره على الورقة لكي يقرأها الناس عليه أن يحص هذه الأفكار جيداً قبل أن يطلقها الى الناس . لان المسؤولية جسيمة . ولكن ، ولشديد الأسف ، فان هذا آخر ما يفكر فيه المفكرون الذين عادة ما يملكون فكرة يؤمنون بها

ويتحمسون لها فيطرحونها الى الناس دون العبه بنتائجها . وهذا ما يفعله
المفكرون ، الأورييون ، ويركض وراءهم انصاف المفكرين منا . .

الفصل الثاني

الانسان ومشكلة الخليقة

لسنا مخطئين اذا قلنا أن عدد الآراء الموجودة يساوي عدد الناس الموجودين ، على فرض أن كل انسان يمتلك على الأقل رأياً واحداً (في قضية ما) يختلف عن آراء الآخرين . وسبب ذلك أن كل انسان له خصوصيته وفرديته التي تميزه عن الآخرين . وفي الواقع أن الناس ، وبالرغم من التشابه الذي يلاحظ بينهم في الآراء ، فان كل واحد منهم له عالمه الخاص . فكل انسان عالمٌ بحد ذاته ، ومن هنا نستطيع القول ان عدد العوالم الموجودة بقدر عدد الناس الموجودين . وهذه العوالم هي الصور التي يرسمها كل فرد في مخيلته عن الأشياء ، كل الأشياء . فعالمي هو صورة العالم التي ادركها أنا عن العالم ، وعالمك هو صورة العالم التي تدركها انت عن العالم . وبالرغم من أن هذه الصور قد تختلف في بعض النقاط الا أنها تلتقي في نقاط اخرى . وفي الحقيقة فان نقاط الالتقاء اكثر عدداً من نقاط الاختلاف . فعندما يتفوه أحد بجملته فان الآخرين يفهمونها ، كذلك فان الألم غير مرغوب ، ولكن اللذة مرغوبة ، وأيضاً بإمكاننا أن نميز بين الأبيض والأسود . وبالرغم من أننا قد نختلف في ادراكاتنا للأبيض بدرجات متفاوتة وادراكاتنا للأسود بدرجات متفاوتة أيضاً إلا أننا نتفق

على أيهما الأبيض وأيها الأسود .

ولكن هناك بعض المواضيع التي نتفق عليها ، الا أننا نختلف عليها في النهاية . وهذه هي المنطقة التي حصل فيها الجدل والنقاش بين الناس على مر التاريخ . وهذه المواضيع تصبح القوانين والمفاهيم التي تحركنا وتوسع ، ولشديد الأسف ، الفروق بيننا في النهاية . واثنان من هذه المفاهيم هما الصح والخطأ (أو الحق والباطل) ، فكلنا نتفق أننا يجب علينا أن نقول ونتبع ونفعل الصح ، ونرتدع عن قول واتباع وفعل الخطأ . ولكن في كثير من الحالات نختلف عن الشيء الذي يجب اعتباره صحيحاً والشيء الذي يجب اعتباره خطأ . فان ما تعتبره جماعة صحيحاً قد تعتبره جماعة اخرى خطأ ، والعكس بالعكس . وعندما تحدث هذه الحالة فان الاختلاف يصل الى ذروته ، وقد يقود الى انهيار الصلة بين الجماعتين انهياراً تاماً ، والذي بدوره قد يؤدي الى اشعال نار الحرب التي تدمر كل شيء . ومثال على ذلك اننا نتفق على حرية الانسان ، ولكننا نختلف على النظام السياسي الذي يعطي الانسان حرته . مثال آخر اننا كلنا نتفق على ان الوالدين مسؤولان عن تربية الأطفال ، ولكننا نختلف عن مقدار التدخل المسموح للأبوين في شؤون ابنائهم .

لماذا نختلف على الأشياء التي يجب أن نعتبرها صحيحة والأشياء التي يجب أن نعتبرها خطأ ؟ بطبيعة الحال فان المشكلة تكمن في قصة ابراهيم (ع) التي ذكرناها سابقاً ، وهي معتقدات المجتمع الذي نعيش فيه وطريقة الحياة التي يجيهاها الناس ، والتي يقاومون أي تغيير لها . ويبدو أن معظم الناس يتقبلون المفاهيم والأفكار السائدة في مجتمعاتهم والتي يتربون عليها بدون مناقشة ، وبدون أي تساؤل فيما اذا كانت هذه المعتقدات صحيحة أم لا . وقد يكون السبب هو أن الناس يجدون هذه المعتقدات تتماشى مع طريقة حياتهم ، وهي كذلك دائماً لأن المعتقدات هي التي تقرر طريقة الحياة والتي يرثونها من المجتمع هي الأخرى ، ويعتبرونها صحيحة ، أو على الأقل ، لا خطأ فيها وليس هناك ما

يوجب تغييرها . وعندما لا يمحص الناس الأخلاق السائدة في المجتمع ، فان هذه الأخلاق تدخل الى حياتهم بسهولة ويتعودون عليها ، وتصبح جزءاً من المعتقدات . وهنا تكمن الخطورة .

وينشأ الناس وهم يعتبرون المساويء الموجودة في مجتمعاتهم على أنها امور عادية ومقبولة ويجب التعايش معها ، حتى وإن كانت لا يقبلها العقل والمنطق . وبنفس الوقت يعتبرون مساويء المجتمعات الأخرى على أنها مخالفة للعقل وغير مقبولة ، وأحياناً ظواهر غير حضارية يجب رفضها . وهذه طريقة حياة تُحرِّك الناس في معظم المجتمعات ، خاصة الأوربية . وأحياناً فان الأوربيين يرفضون كل شيء يجدونه عند مجتمعات العالم الثالث التي يعتبرونها متخلفة دون نقاش ، ويعتقدون أنها يجب أن تتعلم كل شيء منهم وأنها لا تمتلك ما هو مفيد ، عدا خيرات أراضيها ، وفي نظرهم ان هذه المجتمعات غير قادرة على الاستفادة منها . ويعتقد الأوربيون أن اناس العالم الثالث أقل تحضراً منهم وأقل تقدماً (أو بالأحرى ان احبارهم جعلوهم يتصورون هكذا والنتيجة واحدة بطبيعة الحال سواء كانوا هم يعتقدون ذلك أم أنهم جُعلوا يعتقدون ذلك) . ومحس الأوربيون بعقدة الاستعلاء تجاه العالم الثالث ، وهذه العقدة مغلقة بالجهل العميق لطبيعة الانسان والتاريخ . والقصة التالية توضح هذه المسألة . في احدى المهمات لدراسة الصحراء العربية التي قام بها مجموعة من العلماء البريطانيين ، يقول هؤلاء العلماء انهم عندما وصلوا الى الصحراء كانوا يلبسون ملابسهم ذات الطراز الغربي في البداية ، ولكنهم اكتشفوا بعد فترة قصيرة ان ملابسهم لا تلائم جو الصحراء والعواصف الرملية الموجودة في مثل هذه المناطق ، لذا فانهم بدلوا ملابسهم الى ملابس خفيفة وفضفاضة ، ولكنها لم تكن ملائمة هي الأخرى أيضاً . واستمروا في تبديل ملابسهم حتى بدأوا ، وبعد بضعة أشهر ، يلبسون نفس ملابس البدو . وعندئذ فقط ، وهو ما يثير التساؤل ، ادركوا أن البدو لم يلبسوا تلك الملابس الا لأنها الوحيدة التي تلائم تلك البيئة ، والتي تحميهم من

قساوة الظروف الجوية في الصحراء . وبطبيعة الحال فان البدو كانوا قد توصلوا الى هذه الملابس قبل آلاف السنين ، ولم يكن تخلفهم السبب في لبس الملابس العريضة والبسيطة ، كما ظن أولئك العلماء ، ولكن الطبيعة هي التي أملت عليهم ذلك . ولنفس السبب (وهو الطبيعة) تختلف ملابس الأمم تبعاً لطبيعة الظروف . فنشاهد مثلاً ان سكان المناطق الجبلية يلبسون السروال الثقيل لكي يقيهم البرد . فالإنسان ذكي ما فيه الكفاية لكي يعرف كيف يحمي نفسه ، ولكن العلماء البريطانيين « المتحضرين » لم يدركوا ذلك في البداية . فهل كانوا يجهلون هذه الحقائق البسيطة وهم الذين بدأوا رحلتهم لدراسة الأمم الأخرى ؟ أم هو اعتقادهم الذي رزقه مجتمعهم في عقولهم منذ الصغر بأن المجتمع البدوي المتخلف لا يملك شيئاً من العلم يقدمه لعلماء بريطانيا المتحضرة ؟ ولكن كيف يسمح المجتمع الذي يدعي التحضر لشيء كهذا أن يحدث بالرغم من كونه مخزياً ومشيناً للفكر البشري وللإنسانية المتحضرة ؟ والأنكى من ذلك انه يحدث دون وعي العلماء . فهل ان هناك غشاً وخداعاً في المعلومات المقدمة لهؤلاء الناس عن الشعوب الأخرى ؟ وكم هم مخدوعون ؟ ومن هو الذي يخدعهم ؟ واذا ادركوا أنهم مخدوعون ، فهل يستطيعون حقاً أن يصححوا أنفسهم ومعتقداتهم وطريقة حياتهم ؟ انني أشك في ذلك . فالناس في العادة لا يكثرثون كثيراً ، وتسوقهم الحياة وهم لا يشعرون وخاصة اذا كانوا مرتاحين في حياتهم . والأوروبيون يحسون بالتحضر زيفاً ، خاصة عندما يرون الصح ولكنهم يستمرون على الخطأ .

وأحد أعمق أنواع الخداع الذي يعاني منه الأوروبيون منذ نشوء الفكر الأوروبي الحديث، ويلهث وراءهم في ذلك من بهرتهم الصورة الأوربية المثالية الخادعة التي يرسمونها لهم-، هي قصة الخليقة التي يزعمونها في عصرنا الحاضر . وبعد التحلي عن الكنيسة فان الأسئلة التي يطرحها المفكرون منذ فترة هي نفس الأسئلة التي طرحها الناس على مر التاريخ عندما لم يؤمنوا بالله . فيقولون كيف

أتى كل شيء الى الوجود؟ ولماذا؟ وبالنسبة للبعض الذين تجرفهم مشاكل الحياة ومتطلباتها فانهم يشعرون بأن الموضوع كله لا يستحق الاكتراث . وهؤلاء تائهون ، لا يعلمون ، ولا يريدون أن يعلموا ، وهم^(١) كالأنعام بل أضل سبيلاً . فهم يرون أن الانسان يجيا ثم يموت ولا تبدوا هناك أي غاية في الموضوع . فنحن نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم مرة اخرى . وفي الواقع أن القول بأننا نأتي من العدم ثم نذهب الى العدم بحد ذاته يثير السؤال : من هو هذا الذي يأتي من العدم ثم يذهب الى العدم ؟ لاننا نعلم أن أجسادنا تتكون من التراب وعندما نموت فان التراب يرجع الى التراب . الجواب الوحيد هو أن المقصود بذلك هو (الأنا) ، أو الروح . وبطبيعة الحال فان العدم بموجب التعريف لا يتحول الى وجود وإلا فإنه ليس عدماً ، ولا الوجود يتحول الى عدم وإلا فإنه ليس وجوداً ، ولذا فان القول بأننا نأتي من العدم ثم نرجع إليه قول غير منطقي ويتضمن في طياته التناقض المرفوض الذي يجعله خطأ محضاً .

وبنفس الوقت الذي يرفض فيه بعض الناس الأوربيين فكرة الخالق ، فان بعضهم يتمسك بها . والذين يرفضون فكرة الخلق (والكلام عن أوربا) يعتبرون الذين يتمسكون بها متخلفين . ولكنه ليس تخلفاً أن يستعمل هؤلاء الرافضون لفكرة الله اللغة التي طورها المجتمع على مر العصور ، وليس تخلفاً اعتبار تلك الشاعات الوحشية التي اقترفتها مجتمعاتهم بحق الانسانية على أنها مجد وحضارة يتشددون بها ، وليس تخلفاً أن يرثوا عنصريتهم ضد الآخرين من الناس لا لسبب معقول إلا لأن ألوانهم تختلف ، ولكن عندما تصل المسألة الى الخالق ، فان التمسك بهذا الميراث تخلف وخرافة الماضي . وبالنسبة لهم فان افتراض الصدفة كأساس لخلق الكائنات الحية منطقي وعلمي . وهذا الوجود

(١) سورة الفرقان آية ٤٤ .

العظيم للمخلوقات ليس سوى عدداً هائلاً من الصدفة الغربية ، التي هي اغرب من الخيال . ولكن ذلك الاحتمال الواحد الذي يقول ان الله هو الخالق ليس علمياً ، وصدفة غير محتملة الحدوث اطلاقاً . وأنه منطوق مقبول لكثير من العقول العلمية والمفكرين المشهورين ، أن عدداً لا نهائياً من الصدفة حدث لاننتاج الكائنات الحية المتنوعة ، ولكن هذه الصدفة الواحدة التي تقول ان الله خلق الانسان مرفوضة رفضاً كلياً وتعتبر تفاهة مستحيلة . ولتأخذ الفيلسوف (برتراند رسل) على سبيل المثال ، فهو يذهب الى تفاصيل دقيقة وكثيرة لكي يبرهن أن الله ليس موجوداً ، ولكنه يؤمن بأن الكائنات الحية جاءت بطريقة الصدفة دون أن يجهد نفسه العناء في كتابة جملة واحدة لتبرير معتقده هذا ، فهو ، وبكل بساطة ، يقول^(١) (قد يبدو غريباً أن تحدث الحياة بواسطة الصدفة ، ولكن في عالم واسع كهذا فان الصدفة تحدث) . وهو يضع كلامه هذا وكأن الصدفة تعتمد على الحجم ، لا على الأسباب أو الظروف . ورأيه هذا شبيه بالقول (قد يبدو غريباً أن يولد طفل اسود في عائلة للبيض بواسطة الصدفة ، ولكن في عدد كبير للبيض كالموجود على الأرض فان الصدفة تحدث) . فهل نستطيع أن نعتبر هذا القول مقبولاً علمياً ؟ أليس الواقع هو أن هناك أسباباً وقوانين صارمة تحكم كون الانسان أبيض أو اسود ، وليس الصدفة التي تجعلها هكذا . و (رسل) هنا ، وبخلاف الطريقة التي يطرح فيها آراءه عادة ، يؤكد رأيه باستعمال فعل التأكيد (تحدث) بدلاً من القول (قد تحدث) ونحن نعتقد انها حيلة سيكولوجية لكي تبدو القضية وكأنها حقيقة واقعية لا جدال فيها ! . و (رسل) يذهب الى التأكيد على قضية الصدفة أكثر من ذلك بالقول^(٢) (ان العالم الذي نعيش فيه يمكن فهمه على أساس أنه نتيجة لصدفة ملخطة ، ولكنه اذا كان حصيلة غاية متعمدة ، فان هذه الغاية لا بد وأنها غاية

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٣ .

شيطان مريد . وبالنسبة لي فاني أجد الصدفة أقل ألباً ، وفرضية أكثر معقولة) . يا له من انحطاط وإهانة للفلسفة وللعقل البشري !! فيلسوف يتمسك برأي بهذه الصلابة دون أن يعطي أي تبرير منطقي له ، ولكن مجرد شعور وأحاسيس . وهذا الرأي يجعل اندفاعه وراء تأكيد فلسفته الاحادية التي قضى حياته يلح في وعضها واضحاً ، ومع ذلك فانه يقول في اماكن أخرى اننا يجب أن نبحث عن الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة .

ولكن ما الذي يزيح التوازن الفكري للناس بهذه الطريقة الغربية نحو رفض فكرة وجود الصانع لهذا العالم المتناهي في التعقيد والتنظيم ؟ انني اعتقد أن الكنيسة مسؤولة ، ولو جزئياً ، عن ذلك . فما الذي يمكن توقعه من عقيدة محرفة شوهاها الانسان على مر العصور . وانه لو اوضح مما كتب (رسل) عن المسيح والمسيحية انه وجد صورة المسيح التي تُصوّرُها العقيدة المسيحية غير مقبولة على الاطلاق . ولأن المسيحية هي الدين الوحيد المتيسر له ، فانه رفض فكرة الله لأنه رفض المسيحية التي وضعها الانسان لا الله . وهذا هونفس السبب الذي أدى الى انتشار موجة الاحاد التي اكتسحت أوروبا بعد تقدم الاكتشافات العلمية الحديثة وتحرير الانسان الأوربي من القيود التي وضعتها حوله الكنيسة لقرون طويلة . وهذه الموجة امتدت الى انحاء كثيرة من العالم معيدة معها الوثنية الى مسرح الحياة من جديد ، ولكنها في هذه المرة أكثر خطورة من العصور البالية ، لأنها جاءت مبطنة باسلوب فلسفي انتهى بالبشرية الى الدمار تحت المعتقدات المادية الظالمة .

ولما لم تستطيع الكنيسة تبرير معتقداتها التي تعارضت مع العلم ظهرت مقولة جديدة تزعم أن العقل لا يستطيع أن يصل الى معرفة الله ، ولكن الوصول الى الله يكون بواسطة القلب والحب ، وبواسطة نور يرميه الله في قلب الانسان فيحس به ويؤمن . و (رسل) يذكر ذلك بقوله^(١) (ان البروفسور

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٥ .

ج . س . هالدين يزعم « انه ضمن أنفسنا فقط ، وبواسطة مثلنا الفاعلة للحقيقة والصح والالهام والجمال والألفة مع الآخرين ، التي تلي ذلك ، فاننا نجد الهام الله » . والدكتور مالىنوسكي يقول ان « الالهام الديني ، وكمسألة مبدأ ، عبارة عن احساس يقع ما وراء حقل العلم » . ونحن نتساءل لماذا دُفِع هؤلاء الذين يؤمنون بالله الى الخلف ، وحوصروا في زاوية لا يُحسدون عليها وهم يحملون فقط هذه الادعاءات المخترعة المهزومة والمهينة في معركتهم ضد الاحاد ؟ السبب في ذلك هو أنهم لم يجدوا في معتقداتهم ما يكفي لاسنادهم . وهنا ، وكما هو واضح ، فان الكنيسة قد ألغت عقول اتباعها في معركتهم وتركت الملحدون بكامل عقولهم النشطة ، وبذلك وضعت فكرة الله في موضع متراجع . كيف يستطيع القلب أن يفوق العقل في معرفة قضية بهذه الخطورة والأهمية كمسألة الخلق التي تطلبت المعجزات من الأنبياء لاقناع الوثنيين في الأزمان الغابرة ؟ وهل يمتلك الانسان أداة أفضل من العقل للوصول الى حقيقة الأشياء ؟ فالعقل هو الأداة الوحيدة التي خداعها للانسان أقل ما يمكن . وليس من الواقع في شيء أن نقول أن الإيمان بالله هو شيء في القلب فقط . وإذا لم نستطع التوصل الى معرفة الله بواسطة العقل والمنطق فان قلوبنا بالتأكيد سوف لن يكون المعول عليها لهذه المهمة . لأنه اذا كان الله ذلك العقل الجبار ، وهو الذي خلقنا ، واذا كانت عقولنا أفضل الأدوات التي وهبنا اياها ، وإذا كان من المفروض فينا أن ندرك وجود الله ، فان العقل هو بالتأكيد الأداة المعول عليها لهذه المهمة . واذا لم نستطع أن نتوصل الى الهدف باستعمال هذه الأداة الفعالة ، فانه من غير المعقول ، بل ومن المستحيل ، التوصل اليه بأداة أقل قدرة من العقل ، وهو القلب ، فالعقل يجب أن يكون متفوقاً على القلب في اعطاء أي حكم عادل ، خاصة اذا كانت القضية تخص الخلق ، وإذا كانت عقولنا عاجزة عن التوصل الى معرفة الله فان ذلك معناه ان الله خلقنا محدودين بحيث اننا لا يمكننا معرفته وبنفس الوقت طلب منا معرفته ، وفي ذلك تناقض وظلم ، وحاشى لله ذلك . فالانسان يمتلك عقلاً مقتدرأ نزل بعيداً في الأعماق

الداخلية للانسان ، وذهب بعيداً الى عمق الفضاء الخارجي ، وانه من غير المفيد أن يُخلَق مخلوق بهذا الذكاء ويُترك في جهل تام عن الخالق ، خاصة وان هذا المخلوق يمتلك اهتماماً كبيراً جداً لمعرفة أصل وجوده . وفي الواقع أن الأكثر احتمالاً هو أن هذا الاهتمام لمعرفة الأصل ، ولكونه بهذه الشدة ، هو جزء لا يتجزأ من كينونة هذا المخلوق ، ويبدو أنه متأصل فيه وكأنه جزء من وجوده وفطرته . ان حواسنا لا يمكنها أن تتعدى تحسس الأشياء المادية ، وقلوبنا ليست منطقية ، وهي متحيزة في معظم الأحيان ، والعقل هو الأداة التي أوصلت الانسان الى نظرية المعرفة بأكملها .

وقد قيل أن أحد الملوك البرابرة الوثنيين غزا بلاد المسلمين في الشرق الأقصى في غابر الأزمان ، فطلب أن يحضر كبير علمائهم . ولما حضر طلب منه الملك أن يرى الله الذي يعبده قائلاً : - غدا ، وأمام الجند والناس ، ستريني الهك الذي تعبده ، وان لم تفعل ضربت عنقك .

وفي اليوم التالي ، وأمام جمع كبير من الملأ ، جيء بالرجل التقي ، وامتل بين يدي الملك ، فقال له الملك : - أرني الهك الذي تعبده .

فأخرج الرجل التقي كرتان مسقولتان ويمتلكان نفس اللون والحجم ووضعهما على منضدة أمام الملك ، وقال للملك : - اخبرني يا صاحب الجلالة ، هل ترى من اختلاف بين الكرتين .

فنظر اليهما الملك وتفحصهما بيده ولسانه وأنفه ، فلم ير فرقا ، وقال : - كلا لا أجد أي فرق بينهما فهما متشابهتان تماماً .

وعند ذلك قال الرجل التقي : - ارفعهما يا صاحب الجلالة .

فرفعها الملك ، وكانت احدهما أثقل من الأخرى . واحدة من حديد

والأخرى من الخشب . عندها قال الرجل التقي للملك : - والآن ، هل ترى من اختلاف .

فأجاب الملك بالإيجاب ، فسأله الرجل التقي : - ومن أخبرك بذلك .

قال الملك : - عقلي .

فرد عليه الرجل التقي : - انه نفس العقل الذي أخبرك بوجود الاختلاف بين الكرتين عندما فشلت حواسك اخبرني بوجود الخالق .

فأيقن الملك وأسلم ، وأسلم معه من أسلم من الجند والأعيان .

وقيل في الأخبار أيضاً أن رجلاً مر بعجوز طاعنة في السن وهي تصلي ، فسألها : - كيف عرفت وجود الله .

فأجابت : - ان البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير أفساء ذات أبراج وبحار فجاج لا يدلان على اللطيف الخبير .

وهذه الروايات ، سواءً كانت حقيقية أم قصصاً لأولي الألباب ، توحى لنا بمسألتين .

الأولى أن العقل قادر على التوصل الى معرفة الله تعالى اذا استعمل بصورة صحيحة وهذه حقيقة لا جدال فيها ، فقد قال رسول الله (ص) : العقل دليل المؤمن . والثانية هي ان الله لا يمكن تحسسه بحواسنا ولكن يُستقرأ وجوده من اثره ، وهو الخلق . وهذان الدعامتان ، العقل والاستقراء ، هما اللتان أوصلتا الانسان الى الاكتشافات والعلوم الحاضرة حيث انه من الحقائق الثابتة ، على سبيل المثال ، ان العلماء لم يسخنوا الحديد الموجود في الكون بأكمله لكي يضعوا قانونهم القائل أن الحديد يتمدد بالحرارة ، ولكنهم أجروا تجاربهم على بعض الحديد فاستقرأوا هذا القانون من ذلك بواسطة استعمال قوانين العقل وبديياته . ولعل من المهم جلب انتباه القاريء الى أن أولئك العلماء الذين يقولون أن الانسان تطور من خلية يستعملون نفس الدعامتين ، العقل

والاستقراء . فهم وجدوا بعض المتحجرات والهياكل العظمية ، ومعظمها ناقصة ، فاستقروا نظرياتهم . وهذا الاستقراء هو ما يجب علينا تمحيصه . فالنظريات لا زالت غير مكتملة كما سنرى ، وهناك الكثير من النقائص فيها .

ولنأخذ مثال رجل غرق في البحر وأغمي عليه ولكنه لم يمت ، فنقل الى مستشفى معينة . فاذا استيقظ الرجل من غيبوته ، فهل له من سبيل لمعرفة اي مستشفى تلك التي يرقد فيها . أو كيف جاء اليها ؟ بطبيعة الحال ليس هنالك سبيل لذلك الا اذا أخبره أحد يعرف ، أو انتظر حتى يخرج من المستشفى ليستكشف الموضوع بنفسه . ولكن هل أن تصوراته داخل المستشفى عن مكانها وكيفية مجيئه اليها تضير الحقيقة شيئاً أو تغير منها ؟ ان هذا المثال يوضح لنا السبيل الى معرفة كيفية مجيئنا الى هذا الوجود . فأما أن نجربنا من يعرف بواسطة رسالة مفهومة من الخارج ، أو اننا ننتظر حتى نخرج من هذا العالم لكي نعرف . ان معرفتنا محدودة كمعرفة ذلك الرجل في المستشفى . ولكن الخطورة تكمن في كون الطريق غير ذات رجعة .

ولعله من باب الاطلاع على امور البشر وتفكيرهم أن نذكر قصة نمروود ، أحد أباطرة بابل ، الذي طلب أن يُبنى له صرحاً عالياً لكي يصل الى اله ابراهيم ويقاتله ، فكان يرمي السهام الى السماء . وعندما سُأل كاكارين ، رائد الفضاء السوفياتي الأول الذي خرج الى الفضاء ، عن رأيه بوجود الله بعد أن رأى ما لم يره انسان قبله ، فأجاب بأنه لم ير الله . وأنه لو واضح أن عقل رائد الفضاء « المتحضر » لم يذهب أبعد من عقل الامبراطور البربري كثيراً بالمقارنة مع فضاء الكون الشاسع ، فكلاهما تصوراً أن الله جسم مادي . الأول يريد أن يقتله والثاني يريد أن يراه . وحتى لو كان الله جسماً مادياً لاستطاع أن يهرب من سهام نمروود ويتحاشى عيني رائد الفضاء ، ان شاء هو ذلك . فيا عجب كيف تفكر هذه الانسانية الضالة .

وبعيداً عن نمرد وكاكارين ، هناك مفكرون جهدوا أنفسهم في التفكير في مسألة الخلق ، وبطريقة أكثر لياقة من طريقة نمرد وكاكارين . فقد تساءل الانسان ، ومنذ القديم ، عن جوهر الوجود وأصله . ومن أين أتى كل هذا الذي نراه ؟ ومن الذي خلقه ؟ وما هو هذا الخالق وأين يوجد ؟ ثم نظر الانسان الى نفسه وشخصيته وقدراته وتساءل عنها كثيراً ، ما هو الألم وما هو الحزن وما هو الحب وما هي الكراهية ، وما هو العقل ؟ ولما لم يستطع الاجابة على كثير من الأسئلة بسبب غياب المعلم الصحيح وصلت به المتاهة الى حد أنكر معه وجود نفسه . ووصل به الشك الى كل زاوية حتى بدأ يشك في معاني اللغة التي اخترعها هو كأداة للتعبير عن رغبته وإرادته . وتكونت مدارس فكرية عديدة ، منها المادية التي لا تؤمن بما وراء المادة ، ولذا فقد أنكرت وجود الخالق لهذا الكون بدون اعطاء تفسير لأصل الوجود . وأفكار هذه المدرسة سائدة في عصرنا هذا ، فكثير من الناس يؤمنون بالله ولكنهم بنفس الوقت يعيشون حياة مادية ، أي أنهم لا يلتزمون بالمعتقد ، وهذا يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : ما هي فائدة الايمان بأي قضية اذا لم يلتزم المؤمن بها وإذا لم تؤثر على حياته ؟ في الواقع أن المؤمن في هذه الحالة يحيل العقيدة الى شيء لا معنى له .

والمدرسة الفكرية الأخرى هي المدرسة المثالية التي وصل الأمر ببعض مفكريها الى انكار الوجود المادي ووضعوا كل شيء في شك . وبهذا شك الانسان حتى في وجوده وفي معنى الوجود نفسه ، وشك في أبسط البدييات العقلية وبذلك أغلق الطريق على نفسه لمعرفة الحقيقة . حيث اذا سلكنا طريق الشك لاثبات الوجود سوف تطرح أسئلة كثيرة نفسها بمجرد سلوك هذه الطريق الوعرة ، لأن الشاك بوجوده ان لم يكن هو موجوداً فمن هو ذا الذي يحاول أن يجد الجواب لهذه الاسئلة ؟ وان شك بوجود ومعاني الكلمات فمن هو لكي نصدق كلماته وادعائه الشك ؟ ومن نحن وما هي الأهمية عندئذ سواءً صدقنا أم لم نصدق ؟ وان لم نكن موجودين فلماذا هذا العناء طوال هذه السنين

لمعرفتنا؟ ومن هو ذا الذي يحاول أن يعرفنا؟ انه ليس موجوداً ولا نحن موجودين فأغلق الكتاب وليس من حقلك أن تطلب شيئاً أو تقول كلمة ، ودع ما يحدث أن يحدث لانه ليس هناك ما يحدث أو أي شيء موجود سواءاً حياً أم ميتاً . ودع الفوضى تسود لأنه ليس هناك فوضى . انه العدم التام .

وفي هذه المتاهة ضاعت جهودُ انسانية كثيرة . فقد حاول (ديكارت) الفيلسوف الفرنسي أن يبدأ بداية تصور أنها الأساس ، فقال انني أشك في وجود كل شيء عدا شيئاً واحداً وهو ذلك الشيء المفكر ، الانا ، فقال : أنا أفكر لذا أنا موجود . ولكنه ان كان يشك في وجود كل شيء كان الأجدر به أن يشك في وجود اللغة التي استعملها لأنها ليست موجودة قبله ، وقبل تفكيره ، لذا فليس من حقه أن يستعملها ويقول مقولته المشهورة « أنا أفكر لذا أنا موجود » لأنه ليس هناك لغة بعد ، فاللغة تأتي بعد وجوده ولم يكن شيئاً موجوداً بعد . وعلى أي حال ، عليه أن يثبت وجودها ثم يعرفها ويعطيها المعاني قبل استعمالها . والمسألة الأخرى التي تشكل خطأ في تفكير (ديكارت) هي استعماله المنطق للبرهان على وجوده بالقول « أنا أفكر لذا أنا موجود » ، وهي مختصر للجمله « أنا أفكر ، وكل مفكر موجود ، لذا أنا موجود » ، فقد اعتبر (ديكارت) ان المنطق موجود وان قوانينه صحيحة ، ولكنه لم يجربنا كيف أتى المنطق الى الوجود ومن برهن صحته حيث انه لم يثبت حتى وجوده بعد .

عندما استعمل (ديكارت) المنطق فانه افترض ما يلي ضمناً :

- ان اللغة موجودة ، ولذا استعملها للتعبير عن أفكاره .
- ان المنطق موجود وقوانينه صحيحة ومقبولة .

لذا فان (ديكارت) عندما تصور بأنه يشك في كل شيء لم يكن صادقاً في تصوره لأنه لم يشك في كل شيء . وفي الحقيقة انه لم يشك في وجود أي شيء على الاطلاق ، بل انه معترف بوجود كل شيء ضمناً وإن لم يشعر . وانه من

الواضح ان (ديكارت) عندما شك في وجود كل شيء قد وضع نفسه في سجن صنعه لنفسه ولا يمكنه الخروج منه ليخبرنا من هو . ان طريق الشك مغلوقه ولا تؤدي الى حل المشكلة . وبالرغم من أن (ديكارت) حاول جاهداً أن يبرهن صحة اعتقاداته إلا أنه لم يكن ناجحاً تماماً في ذلك . ومع ذلك فانه قدم كثيراً للفلسفة ، وعلى الأقل أننا نعرف الآن أن طريق الشك لا توصلنا الى شيء .

وقد انتقد (برتراند رسل) ديكارت بالقول أن الجملة « انا أفكر لذا أنا موجود» ليست سوى عبارات غير مترابطة ولا علاقة لبعضها ببعض لغوياً . فهو يقول^(١) ان الأنا التي تم اثبات وجودها قد استبدلت عليها من حقيقة أنا أفكر لذا أنا موجود اثناء التفكير ، و فقط عند ذلك . واذا توقفت عن التفكير فلن يكون هناك ما يدل على وجودي) . ثم يستطرد فيقول^(٢) (أنا أفكر هي فرضيته النهائية*) ، وهنا فان الكلمة « أنا » هي في الحقيقة غير شرعية ، وكان عليه أن يصوغ فرضيته النهائية على شكل « توجد افكار » . ان « الانا » ملائمة نحوياً ، ولكنها لا تصف حقيقة مُسَلَّم بها . وعندما يذهب الى القول « انا شيء يفكر » فانه مسبقاً وبتميز ضعيف يستعمل أدوات المقولات المعطاة مسبقاً من قبل السكولاستية**). وهو لا يبرهن في أي مكان أن الأفكار تحتاج الى مفكر ، وليس هناك سبب يدعوننا الى تصديق ذلك بادراك نحوي) .

ونحن في الواقع لا نرى مكاناً لاعتراض (رسل) على مقولة (ديكارت) . فهو يتكلم عن فترة زمنية تأتي بعد الفترة الزمنية التي يتكلم عنها (ديكارت) الذي لم يقل أبداً انه يكفي أن تفكر « الأنا » مرة واحدة لكي تكون

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٥٤٨ .

(٢) انظر نفس المصدر، ص ٥٥٠ .

(*) اي ديكارت .

(**) السكولاستية فلسفة نصرانية سادت في العصور الوسطى (فلسفة المدرسين) .

موجودة الى الأبد . وواضح من مقولة (ديكارت) ان ما عناه هو أن « الأنا » موجودة ما دامت تفكر . و (رسل) يؤكد رأيه السابق في انتقاد (ديكارت) بالقول^(١) «ولكن هناك حاجة الى بعض الانتباه في استعمال حجة ديكارت . « انا أفكر لذا أنا موجود » تقول أكثر مما هو مسموح به على النحو الصارم . وقد يبدو وكأننا متأكدين من كوننا نفس الشخص اليوم كما كنا أمس ، وهذا بدون شك صحيح على نحو معين من الادراك . ولكن النفس الحقيقية صعبة المنال كما هي الحال مع المنضدة ، ولا يبدو أنها تمتلك اليقين المطلق المقنع الذي يخص ادراكات معينة . فعندما انظر الى منضدتي وأرى لونا بُنيّاً معيناً ، فان ما هو أكيد في لحظتها هو ليس انني أرى لونا بُنيّاً ولكن بالآخرى « ان لونا بُنيّاً تتم رؤيته » . وهذا بطبيعة الحال يتضمن شيئاً (أو شخصاً) يرى اللون البني ، ولكنه بحد ذاته لا يتضمن ذلك الشخص الدائم نوعاً ما والذي نسميه « الأنا » ، وبالنسبة للحد الذي يصل اليه اليقين ، فقد يكون ذلك الشيء الذي يرى اللون البني وجيز الوجود الى حد بعيد ، وليس نفس الشيء الذي يمتلك ادراكاً مختلفاً في اللحظة التالية) . و (رسل) هنا يتكلم عما اذا كانت « الأنا » مستمرة الوجود أم لا ، وليس عما يتكلم عنه (ديكارت) الذي يصف وجود « الانا » عندما تكون في حالة التفكير لأي فترة زمنية مهما كانت متناهية في الصغر . ان مسألة ما اذا كانت هذه الأنا هي نفسها في الفترة الزمنية المتناهية في الصغر اللاحقة أم لا مسألة أخرى . ومن الواضح فان (رسل) يعتبر الظواهر التي تكون « الأنا » على أنها متغيرة مع الزمن ، ولذا فانه يشك في أن تكون الانا اللاحقة هي نفسها الأنا السابقة . ويبدو أنه متأثر كثيراً جداً باكتشافات الفيزياء النووية التي تقول ان كل شيء في تغير دائم ودوري . ولكن الفيزياء تتكلم عن الأشياء المادية وليس عن الأشياء اللامادية . ويتضح أن (رسل) يفترض انطباق قوانين الفيزياء على الوجود الذي ما وراء الطبيعة ، او على الأقل فانه يستنتج التشابه . وقد لا

(١) انظر المصدر ٢٩ ، ٨ .

تكون الحالة كذلك لأن الوجود الذي ما وراء الطبيعة أكثر أساسية من الوجود المادي . وإذا كانت الأنا ، وكما يقول (رسل) ، تتغير مع الزمن ، فإن ذلك معناه انه توجد فترة زمنية بين الأنا الأولى والأنا الثانية لا يوجد خلالها شيء ، أي يحدث خلالها العدم المطلق . والعدم لا يمكنه أن ينتج أي شيء . وإذا انعدمت الأنا فلن يكون بإمكانها الرجوع الى الوجود . وإذا تحطمت الظواهر المكونة للأنا ، واجتمعت مرة أخرى لكي تكوّن أنا أخرى فسوف ينفقد كل شيء ، والأنا الثانية سوف لن تتذكر الأنا الأولى . لان تحطيم جميع الظواهر المكونة للأنا والذاكرة ثم إعادة تجمعها مرة أخرى لتكوين أنا أخرى وذاكرة أخرى مشابھتين تماماً للأنا الأولى والذاكرة الأولى عملية معقدة جداً وغير ضرورية ، ويصعب تصورها . من ذلك يتضح انه ليس هناك تحطيم وتجميع للأنا . وعلى كل حال فإن (رسل) لا يعترض على وجود الأنا المفكرة أثناء عملية التفكير . لذا فإنه في الواقع لا يعترض على مقولة (ديكارت) ، ولكن ، ولأجل الجدال ، فإنه ينغمس في موضوع آخر يختلف كلياً عما يريد (ديكارت) ان يقول ثم يحاول ربط هذا الموضوع الى مقولة (ديكارت) . ويمكن القول انه طالما أن (رسل) قبل هذه المقولة في الأصل فإن المشكلة يمكن حلها بصياغة مقولة اضافية هي « انا استمر بالتفكير لذا أنا مستمر في الوجود » . والتوقف عن التفكير هو التوقف عن الوجود ، كما يريد (رسل) أن يفرضي الينا ، وهو الموت . وإذا فرض (رسل) رأيه علينا بالقول أن الظواهر المكونة للأنا تتغير خلال فترات معينة من الزمن سواء كنا مستمرين بالتفكير أم لا ، فإنه سوف يخالف موقفه الأول الذي قبل فيه صيغة (ديكارت) الأولى والتي أضاف إليها بالقول أنك اذا أحسست بأي احساس فانك موجود . وعند ذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو : كم صغيرة هذه الفترة الزمنية التي توجد ، أو لا توجد ، خلالها الأنا ؟ وبطبيعة الحال لا يمكن أن يوجد هناك اتفاق على شيء كهذا لأنه بإمكاننا تصغير الفترة الزمنية التي لا توجد خلالها الأنا الى الحد الذي

تصبح فيه صفراً ، وبذلك نحصل على الأنا المستمرة في الوجود(*) .

والاعتراض الثاني الذي اعترضه (رسل) على (ديكارت) هو ان (ديكارت) كان عليه أن يبرهن وجود الأفكار . وهذا صحيح ، إلا أن الأفكار هي الأخرى ليست حقائق مُسَلَّم بها لأنها ليست مجموعة من الظواهر موضوعة بنمط نظامي معين ، وبذلك فانها تحتاج الى من يقوم بعملية التنظيم . والأفكار لا تصنع الأنا ولكن الأنا هي التي تصنع الأفكار . ذلك لأن الأفكار ليست أفكاراً قبل تنظيمها ، بل عبارة عن ظواهر متشعبة . لذا فان طلب (رسل) من ديكارت أن يصوغ افتراضه على أساس الأفكار وليس المفكر تفاهة تامة ، لأن المفكر بالضرورة يأتي قبل الأفكار كما يأتي الباني قبل البناء .

ان (رسل) لم يبرهن خطأ (ديكارت) باعتراضاته ، ولكن الخطأ في تفكير (ديكارت) هو شكّه الذي تصوره اسلوباً صحيحاً لمعرفة الحقيقة والوصول الى هدفه .

والمشكلة التي يعاني منها الفلاسفة في تفسير الوجود تكمن في اعتمادهم على المعلومات والاكتشافات العلمية المتوفرة في زمانهم ، والتي قد لا تكون صحيحة . والمثال على ذلك الأثير الذي استعمله (ديكارت) لتفسير استمرارية واتصال الوجود . ولما اكتُشف ان الأثير غير موجود انهارت نظريته . ومثال آخر (ماركس) الذي اعتبر نظرية (دارون) في تفسير أصل الانسان صحيحة ، واعتقد ان الانسان تطور من الحيوانات الدنيا التي هي بدورها نشأت وتطورت من المادة . ولذا كان ذلك دلالة على عدم وجود الله بالنسبة له . و(ماركس) بطبيعة الحال ، وكثير من الذين لا زالوا يتمسكون بهذا الاعتقاد ، اعتبروا فكرة التطور حقيقة بالرغم من أنها لم تكن سوى استقراءً مبتوراً أستنتج من ملاحظة التشابه بين الكائنات الحية . وحتى (برتراند رسل) الذي لام الفلاسفة على

(*) انظر الفصل الثاني عشر لمزيد من التفصيل .

اعتمادهم على الاكتشافات العلمية في زمانهم ، والتي اتضح أن كثيراً منها كان خطأ ، وقع في نفس الخطأ عندما بنى افكاره على أساس العلم وقوانين الفيزياء ، وكان كثير التأثير بنظرية التطور الدارونية . فهو يقول^(١) (يقال ان هناك ثلاث مراحل من التطور حدثت : المادة ، والحياة ، والعقل ، وبذا فليس هناك سبب يدعوننا لافتراض أن العالم انتهى من التطور) .

ان استقراء فكرة التطور لم يأخذ بنظر الاعتبار الفروق الكثيرة الموجودة بين الكائنات الحية . وبدلاً من ذلك فانه ركز على الصفات والظواهر المشتركة بينها ، والذي يجعله استقراءً ناقصاً . وبسبب انه لم يأخذ الموضوع من كل جوانبه فلا يمكن اعتباره استقراءً مقبولاً . وان اعتماد (ماركس) على نظرية لم يقيم البرهان القطعي على صحتها يجعل نظريته المادية تقف على أساس ضعيف ، وقد لا يكون هناك أساس على الاطلاق . وقد برهن العلم حديثاً أن المادة ليس سوى خاصية واحدة ، أو وجهاً واحداً من وجوه الوجود ، وليست الوجود كله . ولكن الماركسيين لا زالوا يؤمنون بمعتقدهم .

وعن التطور ، فاننا نعرف الآن أن (دارون) كان على خطأ في كثير من الأشياء ، وكان من الضروري تصحيح نظريته للحفاظ على فكرة التطور . وظهرت حديثاً نظريات تفند نظرية التطور كلياً .

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢١٤ .

الفصل الثالث

تأثير نظرية التطور على الفكر المعاصر

لم تكن قضية صعبة بالنسبة للأوروبيين الوثنيين الذين كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة قبول الفكرة القائلة ان الله أرسل ولده الى الأرض على هيئة انسان يحمل رسالة للبشر . فبالنسبة لأولئك الوثنيين من عبدة الأصنام كانت الفكرة اعتيادية ومقبولة تماماً . ولذا فان القديس بولص نجح في جذب اتباع أكثر من القديس بطرس الذي اعلن أن بولص منافق . وكان الاختلاف الرئيسي بينهما هو قضية كون عيسى ابن الله أم لا . ويتضح أن القديس بولص هو الذي طرح هذه الفكرة الا أن القديس بطرس عارضها . ولكن لم يكن أحد ليرسم المسكين بطرس (وهو أحد الحوارين) الذي قضى معظم حياته في زنزانه تحت الأرض أعدها له الرومان .

وكان لبولص ما أراد . فالمسيحيون أعلنوا أن عيسى ابن الله ، وهكذا أصبح . ولكن ذلك لم يكن مقنعاً للبعض ، وكان لا بد من تبرير هذه الفكرة . لذا قيل أن الناس في فلسطين سمعوا صوتاً صادراً من السماء يقول « ان عيسى ولدي » ، أو هكذا يقولون . ولكن لماذا احتاج ابن الله الى صوت يصدر من السماء ليؤكد هويته ؟ ألم يكن باستطاعته أن يبرهن للناس على ذلك دون الحاجة

الى صوت يصدر من السماء ؟ واذا كان كذلك فأبي اله هذا الذي لا يستطيع فعل شيء بسيط كهذا ؟ ثم بعد ذلك قيلت قصص كثيرة . وحاولت الكنيسة التمسك بهذا الاعتقاد على مر التاريخ . وبهذا الصدد يقول (برتراند رسل)^(١) (لقد كان القديس سيريل متألماً عندما علم أن القسطنطينية قد زاغت عن الطريق بواسطة تعاليم بطريركها نستوريوس الذي آمن بوجود شخصين في عيسى ، احدهما انسان والآخر اله . وعلى هذا الأساس فان نستوريوس اعترض على ممارسة تسمية العذراء « ام الله » . فهي ، كما قال ، ام للشخص البشري ، بينما الشخص الالهي ، الذي هو الله ، ليس عنده ام . وعلى هذه النقطة انقسمت الكنيسة : بصورة عامة ، أساقفة شرق السويس فضلوا نستوريوس ، بينما اولئك الذين كانوا غرب السويس فضلوا سيريل . ولذا فقد دُعي الى اجتماع مجلس شورى كنسي في ايفساس عام ٤٣١ م لاتخاذ القرار بشأن الموضوع . وقد وصل الأساقفة الغربيون أولاً ، وأغلقوا الأبواب بوجه الذين جاءوا متأخرين ، وقرروا على عجل ساخن من أمرهم على رأي سيريل الذي توجه بالشرف قائلاً « ان هذه الفتنة الكنسية ، وعلى مسافة ثلاثة عشر قرناً ، تفرض الوجه الحساس لمجلس الشورى الكنسي المسكوني الثالث . . وفي عام ٤٤٩ م ، وبعد وفاة القديس سيريل ، حاول مجلس السنودس^(*) في ايفساس أن يحمل النصر الى أبعد من ذلك ، وبذلك وقع في بدعة معاكسة لتلك التي وقع فيها سيريل . وهذه البدعة تسمى بدعة وَحْدِ طَبِيعِي^(**) ، وتقول أن المسيح يمتلك طبيعة واحدة وعلى الأقل فان البابا ليوفي في عام معركة الشالون استطاع عقد اجتماع مجلس الشورى المسكوني في شاليسدون عام ٤٥١ م ، والذي أدان الوَحْدِ طَبِيعِيون ، وقرروا نهائياً عقيدة

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٣٦٥ - ٣٦٦ .

(*) مجمع كنسي

(**) المذهب القائل ان المسيح طبيعة واحدة .

التجسد(*) الارثوذكسية ، وقد قرر مجلس شورى ايفساس انه يوجد شخص واحد للمسيح ، ولكن مجلس شورى شالسيدون قرر أن المسيح يوجد في طبيعتين ، واحدة بشرية وواحدة الهية . وكان تأثير البابا عظيماً لضمان هذا القرار . ومن هذا يتضح ان ادعاء عيسى ابن الله هو من صنع الانسان .

ولكن يبدو أن مجيء وذهاب ابن الله لم يحقق معجزة اصلاح البشرية المتوخاة ، وبدلاً من ذلك فانه عُدب بكل وحشية ولم يحدث شيئاً لأولئك الذين عذبوه أو للأرض ككل . وانه من حقنا أن نتوقع أن يجب الله ابنه أكثر من حبه للبشر ، وبذلك نتوقع أن يتخذ الله عملاً ما ضد أولئك الذين عذبوا ولده على أقل تقدير . ومن حقنا أيضاً أن نتوقع أن المسيح ، اذا كان ابن الله كما يزعمون ، وعندئذ فانه اله أيضاً ، يجب أن يكون باستطاعته أن يتجنب اعداءه على الأقل ويهرب منهم . واذا قلنا انه لم يفعل ذلك متعمداً ، لأي سبب كان ، فان ذلك سيكون أسوأ مثال لاتباعه ، لانه يدعو الناس عملياً لتقبل العذاب والاضطهاد حتى لو كانوا قادرين على تخليص أنفسهم منه . فأبي اله هذا الذي يطلب من أتباعه أن يخضعوا الى أعدائهم حتى عندما يكون بإمكانهم تجنبهم . وهذا ما لم يفعله أي أحد من معتنقي العقيدة على مر التاريخ . وعلى كل حال ، بدلاً من انقاذ الأرض فان ابن الله يبدو وكأنه فشل في مهمته الأولى وتراجع في معركته ضد البشر ، ولذا فانه سيعود ثانية في زمن أكثر ملائمة ليحقق ما لم يستطع تحقيقه في المحاولة الأولى . وكان الله وابنه يخضعان للزمن .

لماذا ارسل الله ولده في ذلك الوقت بالذات ، وماذا كان يحدث عندئذ ؟ وهل ان ما حدث من ظلم قبل ذلك أو بعده لم يكن بالشدة التي تتطلب نزول ابن الله من السماء ؟ ان التاريخ يخبرنا بأن الانسان اقترف جرائم قبل وبعد ظهور عيسى أبشع مما كان يحدث آنذاك . فهذا هتلر وذاك موسليني ، وستالين

(*) اتحاد الالهية والناسوتية (اي الانسانية) في المسيح .

ونابليون وغيرهم من الطغاة . وما هم اليهود الصهاينة يقتربون أبشع الجرائم في فلسطين ، أكثر من ذي قبل بكثير . فلماذا لا يرسل الله ابنه مرة أخرى ، أو أحد ابنائه لتصحيح الوضع ؟ وهل ان لله ولداً واحداً أم عدة اولاد ؟ فطالما انه يمتلك ولداً فما الذي يمنع من امتلاكه عدة اولاد ؟ وما هو الشيء الذي أنجزه عيسى ولم يستطع عليه الأنبياء ؟ في الواقع أن الأنبياء الآخرين مثل موسى وداود وسليمان كانوا أكثر نجاحاً من عيسى في تشييد وأدامة دول حكمت بما أنزل الله . وقد نتوقع أن يتمكن ابن الله من تحقيق أكثر مما تمكن منه الأنبياء ، أكثر بكثير ، أو انه يسبب تغييراً جذرياً في حياة البشرية . ولكن الذي حدث هو أن عيسى وأتباعه عاشوا في الخفاء لعدة سنوات ، ثم القي القبض على عيسى وعذب وهاجر اتباعه هرباً من الموت .

ان ترقيع الكنيسة الدائم لمعتقداتها لم يكن ناجحاً في يوم ما . وقد حكمت الكنيسة في أوروبا خلال العصور الوسطى واقترفت جرائم بشعة ، أفضع بكثير من تلك الحال ثار ضدها عيسى . واسوأ ما كان فيها انها اقتربت باسم الله والمسيح . وبطبيعة الحال فان الخطأ لم يكن في الله ولا في عيسى ، ولكنه في تفسير الانسان للرسالة السماوية بموجب ما تشتهي نفسه . وعندما بدأت الكنيسة تضمحل كدولة لم يستطع الناس ان ينفصلوا عنها كلياً . لذا فانهم انفصلوا عن روما تدريجياً مؤسسين مذاهب وتجمعات أخرى . وهذا ، سوية مع الاكتشافات العلمية التي بدأت تبين زيف المعتقدات الكنسية ، شجع الناس على التمرد ضد الكنيسة ، ثم ضد الدين ككل .

عندما تخلى الأوروبيون عن الكنيسة ، ثم عن الدين ، ما هو البديل امامهم ؟ ولماذا رفضوا فكرة الله كلياً ؟ وهل كان الرفض لله أم للكنيسة ؟

في الواقع ان الناس في أوروبا تخلوا عن الكنيسة لأنها لم تعد قادرة على تبرير معتقداتها التي عارضت العلم ، ولأن الناس ، وبعد ارتفاع المستوى الفكري لديهم ، أصبحوا لا يقبلون ما يقال لهم . وأي فكرة لا تلاقي الاقبال

ما لم تبرر نفسها بطريقة أو بأخرى لجذب بعض العقول اليها . ولا يمكن في الوقت الحاضر اجبار فكرة ما على الناس . وطريقة القديس بولص لا يمكن أن يكتب لها النجاح الآن .

وفي غياب عقيدة سماوية أخرى ، فان البديل الوحيد أمام المفكرين الأوربيين كان رفض فكرة الله والاتجاه نحو عالمهم المادي وحياتهم اليومية . وبذلك بدأت الأفكار المادية تنتعش ، وكان ذلك قبل ظهور (ماركس) على مسرح الأحداث واختلاق نظريته الشيوعية بكثير ، فقد ظهرت نظريات التطور قبل ذلك والتي كان لها الأثر الكبير في اسناد الأفكار الماركسية .

ان ظهور فكرة التطور لم تكن سوى خطوة طبيعية في الفكر الأوربي بعد رفض الكنيسة ومعتقداتها ، لأن السؤال اصبح : اذا لم يكن الله موجوداً فمن أين أتينا ؟ وبطبيعة الحال ليس هناك جواب غير القول اننا جئنا من الأرض التي تحتنا . ولكن كيف ؟ لا بد وأنا بدأنا صغاراً وأقل تعقيداً ثم تطورنا : اذن فهو التطور ، الفكرة السحرية التي حلت المشكلة . ذلك لأن القول بأننا جئنا كما نحن على هيئتنا يتبعه القول انه يجب أن يكون هناك من صنعنا . وهذا الاستنتاج يمثل جرياناً طبيعياً لهذا الأسلوب من التفكير لأنه ليس معقولاً أن نتصور اننا ظهرنا الى الوجود فجأة على هيئتنا كما نحن بطريقة الصدفة . وهناك كثير من الملاحظات التي سندت فكرة التطور ، وكل ما نحن بحاجة اليه هو النظر الى الكائنات الحية الأخرى . وكانت الفكرة التي اكتسحت رؤوس عقلاء أوروبا هي انه ليس المهم الآن أن نبرهن على كل شيء مرة واحدة . ولذا فاننا سوف نقبل الفكرة أولاً ثم نحاول أن نجد الأدلة على صحتها بعد ذلك . وهكذا اقنع المؤمنون بفكرة التطور أنفسهم ، خاصة بعد أن أصبحوا متأكدين من أن فكرة الله والمسيح ليست سوى خرافات من الماضي . وفي الواقع ليس هناك من مسلك كان باستطاعة الفكر الأوربي أن يسلكه . فقد وصل الى نهاية مسدودة . والنظر الى السماء لم يعط الجواب فاضطر الأوربي أن يدير وجهه الى

الاتجاه الوحيد المتاح له ، وهو الأرض . فجاء (دارون) في الوقت المناسب ،
ومعه بدأ عصر جديد ، فقد أخرج الرجل الأوربي من مأزقه واعطاه فرصة
جديدة ، وأملاً جديداً ، للبحث عن أصل الخليقة ، ولكنه لم يعط الجواب
تماماً . وظهور (دارون) وفكرة التطور لم يكونا مسألة عفوية ، وكما يقول
(جفري كودمان)(*) ان الوضعية كانت ناضجة لظهور فكرة التطور ولو لم يأت
بها (دارون) لاتي بها غيره ، فقد كان (أَلْفَرِيد والاس) يعمل في نفس
الموضوع ويحمل نفس الفكرة الا أن (دارون) سبقه في طبع كتابه عن القضية .

وقد غزت نظرية التطور الفكر البشري لأكثر من قرن من الزمان ، ولا
زالت تسيطر على جانب كبير من هذا الفكر . ولما كان الاستنتاج المباشر لهذه
النظرية هو ان آدم لم يُخلَق كما تقول الأديان السماوية فان ذلك معناه ان الأنبياء
كذبوا وان كذبهم ساد منذ القديم . أما الآن ومع التنوير العلمي في عصرنا
الحاضر فان هذه السفاهات يجب أن تتوقف . فليس هناك انبياء ولا الله ،
والأنبياء ليسوا سوى رجال مصلحين تقمصوا شخصيات مقبولة في ذلك الزمان
وملائمة للتأخر والتخلف السائد حينئذ . وبذلك فان هذه النظرية كانت
الدعامة المهمة والسند القوي لظهور المادية الحديثة . وتقول النظرية أن الكائنات
الحية بدأت من خلية واحدة (أو عدة خلايا متشابهة) كانت قد انبثقت من المادة
تحت ظروف خاصة وبطريقة الصدفة . على أن النظرية لم توضح كيفية تجمع
المادة بالنسب الدقيقة للمكونات المختلفة المطلوبة لتكوين الخلية ، وكيفية ظهور
الحياة . وكل شيء يخص الحياة ، وهو الجزء المهم في الموضوع ، يبقى على شكل
افتراضات غامضة لا يمكن قيام البرهان عليها . وقد تمسك الماديون بالنظرية على
أنها صحيحة لأنها لاثمت أفكارهم ودعمت نظرياتهم في تفسير الوجود ، وأقوى
برهان على ان الله ليس موجوداً . ولكن هؤلاء نسوا أن النظرية نفسها لا تقودنا
بالضرورة للتأكيد على عدم وجود الله لان احتمال أن الله هو الذي أوجد

(*) انظر المصدر ١٠ .

الظروف للخلية الأولى لكي تنبثق يبقى ممكناً ، وليس هناك ما يبرهن على بطلان هذا الاحتمال . كما ويبقى السؤال عن أصل المادة الميتة نفسها ، والتي أتت منها الخلية ، بغير جواب ، ولا تستطيع النظريات المادية ونظرية التطور الدارونية أن تفسر أصل المادة ومن أين أتت فكلها تقف عند هذا الحد ، عند المستحيل .

وقد يكون مناسباً هنا أن نذكر ان التفسير الذي أعطاه (دارون) وغيره من التطوريين للتشابه الذي يمكن ملاحظته بين الكائنات الحية ليس التفسير الوحيد الممكن أو الموجود . وسوف نتوسع في هذا الموضوع في الفصول القادمة .

وبالرغم من أنه ليس كل الناس شيوعيين ، إلا أن كثيراً منهم لا يؤمنون بالله . وحتى اولئك المؤمنين بالله فان ما يؤمنون به لا يخرج الى حيز التطبيق ليؤثر على حياتهم وطريقة معيشتهم فهم لا يمارسون عقائدهم على الواقع العملي ، وبدلاً من ذلك فانهم يعيشون حياة مادية لا تختلف كثيراً عن حياة الملحدون . والسؤال الذي نحن بصدده هو كيف أثرت فكرة التطور على تفكير الناس وحياتهم ؟ وهنا يمكن القول أن التطور قد ساهم في جذب الناس نحو الاحاد والمادية أكثر من ذي قبل ، وجعل بعضهم يفكر بالطريقة التالية : دار نقاش بيني وبين أحد الأشخاص حول موضوع الخليقة ، وكان هذا الشخص لا يستطيع اتخاذ القرار فيما اذا كان الله موجوداً أم لا . وهذه الريبة والعجز في التصديق ظاهرة عامة بين الناس في وقتنا الحاضر ، خاصة في أوروبا . وللوصول الى نتيجة معه وضعت قلماً على الطاولة وسألته : - هل تتفق معي ان هذا القلم جاء على الطاولة بنفسه بواسطة الصدفة ؟

فكان جوابه : بالتأكيد كلا .

فسألته : ولم لا ؟

فأجاب : غير ممكن ، العقل لا يستطيع أن يقبل هذا الافتراض .

فقلت : حسناً ، وماذا عن هذه المنضدة ، هل تتفق معي أنها أتت بنفسها ؟

وباستعمال نفس المنطق كان جوابه : كلا .

فقلت : وماذا عن هذه الغرفة ؟

وكان الجواب نفسه : كلا ، لا بد وأن أحداً بناها .

عندها قلت : وهذه المدينة التي نعيش فيها ، هل جاءت بنفسها ؟

وجاء نفس الجواب : كلا .

ثم سألته : وهذه البلاد التي نعيش فيها ، هل بالامكان انها جاءت

بنفسها بطريقة الصدفة ؟

قال : كلا .

وهنا سألته السؤال الأخير : وهل أتت الكرة الأرضية الى الوجود بنفسها ؟

فجاء الجواب المدهش : لا اعلم ربما !!

وواضح أن منطقهم لم يستطع أن يخترق المسافة العظيمة لحجم الأرض .

وهذا مفهوم لأن الكرة الأرضية كبيرة الحجم . ولكن الشيء المثير للدهشة هو أن

نفس هذا المنطق بإمكانه أن يخترق مسافة أعظم من الأرض ليصل الى خالق

الأرض فينكر وجوده . وهذه اللااستمرارية أو الانفصال في التفكير مقبولة جداً

وتعتبر منطقية عند الناس المتعلمين وذوي العقول العلمية في مجتمعاتنا الحاضرة .

وأنا لا اعلم ، فقد يكون هناك تعريف للعلم والمنطق نحن لم ندرکه بعد .

وبصدد انكار وجود الخالق يقول (رسل)^(١) منذ زمن دارون ونحن

نفهم بصورة أفضل لماذا تكيفت الكائنات الحية الى ظروفها . وانه ليست

الظروف التي جُعِلت ملائمة لها ، ولكنها هي التي نمت لتلائمها ، وهذا هو

(١) انظر المصدر ٦٢٧ ص ١٧ .

أساس التكيف ، ولا توجد أدلة على الصنع فيها) . وبدون أن (رسل) كان على عجل من أمره في اتخاذ قراره بشأن هذه القضية المهمة ، وكأنه وجد ما يسعف فلسفته الملحذة ، فمبدأ الانتخاب الطبيعي ، وهو الذي يشير إليه في عبارته السابقة ، تم التخلي عنه من قبل مدعي التطور أنفسهم ، حيث وُجد انه لا يفي بالغرض ، وبذلك أصبح من الضروري تغيير رأي (رسل) تغييراً جذرياً .

وبعد افتراضه بأن المبدأ أعلاه صحيحاً ، فان (رسل) يسأل السؤال التالي :^(١) (لماذا فضل الخالق الوصول الى غايته بواسطة عملية تدريجية بدلاً من الذهاب إليها مباشرة ، ان هؤلاء اللاهوتيين الحديثين لا يجبرونا) . ولكن وكما سنرى ، ان الله ذهب الى غايته مباشرة وليس خلال عملية تدريجية كما يزعم (رسل) . فالأدلة الحديثة تبين أن الانسان الحديث ظهر فجأة على الأرض على هيئته الحاضرة ، واضعاً فكرة التطور بأكملها في قفص الاتهام . واذا كان (رسل) يفترض صحة التطور بدون أدلة كافية فماذا يستطيع اللاهوتيون اخباره ؟ ان كل ما يستطيعون أن يقولون له هو أن الله خلق الانسان والكائنات الحية الأخرى ، وهو يأبى قبول ذلك . والسؤال الذي يخطر على الذهن هو : هل أن التطور استطاع أن يفعل كل هذا لعقول الناس ؟ أم ان الناس هم الذين تمسكوا بفكرة التطور بسبب ضياعهم العقائدي ؟ وهل أن فكرة التطور جعلتنا أكثر انسانية ، أم أكثر انانية ؟

قد يقول علماء التطور ان هذا لا يهمهم فهم يهتمون بالحقائق العلمية ، والحقائق العلمية وحدها ، الا أن هذا ليس صحيحاً لأنهم لم يقتصروا أنفسهم ضمن نطاق الحقائق والاكتشافات العلمية فقط ، وإنما تعدوها الى الادلاء بأرائهم وطرح استنتاجاتهم ونسجوا نظرية عن الوجود اعتماداً على بعض العظام

(١) انظر المصدر ٢٥ ص ١٨٠ .

والمتحجرات التي وجدوها بواسطة التنقيب . وعند التمعن في الموضوع بصورة موضوعية ، فإنه من الصعب على المرء أن يتصور أن تفسير أصل هذه الظاهرة العجيبة (الحياة) يكمن في مجموعة من العظام والمتحجرات .

ونتيجة للايمان بفكرة التطور فقد ظهرت نظريات غريبة عن الأجناس البشرية . منها نظرية تقول أن الانسان الأفريقي متطور على باقي اجناس البشر وأنه أرقى أنواع البشر في حلقة التطور بسبب وجود الأدلة التي تشير إليها نظرية التطور ، على حد زعم تلك النظرية ، مع انه ليست هناك أدلة حضارية تسند هذا الادعاء ، بل الملاحظ أن أجناس البشر الأخرى كانت أفضل حظاً في تشييد الحضارات سواءً المادية أم الفكرية ، والتاريخ يزخر بذلك . ولو كان الانسان الأفريقي هو المتطور لوجب أن يكون أحسن حظاً في تشييد حضارات تفوق حضارات الأجناس الأخرى ، والا فما معنى التطور نحو الأحسن !! وهؤلاء يضربون لنا أمثالا بأن تجمعات بشرية قديمة وبدائية كانت في افريقيا ويُعتقد أنها أول تجمعات بشرية في التاريخ .

ولكن السؤال هنا لماذا لم تُسد تلك الحضارات وتطور اذن ؟ خصوصاً وأن الذي أنشأها هو الانسان الأرقى كما يزعمون ! ونحن هنا لسنا بصدد الخط من انسانية وكرامة الانسان الأفريقي ومقدرته على تشييد الحضارات ، فهو لا يختلف عن غيره من أجناس البشر ولا فرق هناك ، ولو توفرت له الظروف لاستطاع أن يشيد حضارات مماثلة لتلك التي شيدها الآخرون . ولكننا هنا بصدد توضيح زيف هذه المزاعم التي لا تتفق مع المنطق ولا مع الأدلة التاريخية الأخرى . ونحن نرى كم أن هذه النظرية تناقض أفكار (نيتشة)(*) والنازية التي تمخضت عن أفكاره والتي أدت الى تدمير أوروبا بحجة أن الانسان الأري هو الانسان الأرقى وهو الذي يجب أن يرث الأرض بعد تدمير وانهاء الأجناس البشرية

(*) الفيلسوف الالماني .

الأخرى ، حيث اعتبر (نيتشة) ان الانسان ، وبما أنه يمتلك الوعي يجب أن يقوم بعملية التطور نحو الأرقى بصورة واعية (***) ، وذلك بآبادة الأجناس الأخرى الأقل تطوراً بواسطة القوة . و (هربرت سبنسر) ، الفيلسوف الانكليزي ، سماها « البقاء للأصلح » وهي نفس مقولة « الانتخاب الطبيعي » التي قالها (دارون) ، ولكن بطريقة أخرى . والنازية أكدت على ان الانسان الأري هو الأكثر تطوراً ، وهو الذي يجب أن ينفذ هذه المهمة . والنازية وضعت الانسان الافريقي في أسفل سلم التطور ، وهذا يبين تناقضها مع تلك النظرية التي زعمت ان الانسان الأفريقي هو الأكثر تطوراً ، بالرغم من أن كلا النظريتين مشتقتان من نفس فكرة التطور .

وما فعله النازيون لم يختلف كثيراً عما فعله الانكليز أيام الملكة فكتوريا . و (جفري كودمان) يقول^(١) انه من المؤسف ، في انكلترا - فكتوريا المتزمتة ، أن تسود أفكار دارون عن الناس ذوي الجلد الداكن ، والتي أعطت أساساً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون اعطى أساساً جديداً للعنصرية ، ومن ثم للامبريالية والاستعمار . ورأي دارون اعطى أساساً منطقياً كاذباً من ناحية علم الاحياء ، ومظهراً علمياً خادعاً ، للأوروبيين الزاحفين الى أراضي آسيا وافريقيا والباسفيك غير المستغلة لنهب أناسها ومواردها وعلى التوالي فسر المستعمرون مهماتهم على أنها كانت لتحضير سكان تلك البلاد ، أولئك المتخلفين التعساء الذين هم في الدرجة الدنيا على سلم التطور . لذا فان الملكة فكتوريا لم تبدي اي حرج عندما اغتصب سيسيل رودس (***) جنوب افريقيا وسرق امبراطوريات القبائل السود ، من ماسهم وذهبهم) .

(**) انظر كتاب هكذا تكلم زرادشت - نيتشة .

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(***) مؤسس روديسا ، الان زائير .

ويبدو واضحاً أن أصل المشكلة يمكن الرجوع به الى فكرة التطور .
 فعندما ننظر الى التقسيم الذي وضعه (دارون لأجناس البشر) وقد يكون
 يكون بسبب تأثير عنصريته هو نفسه) نرى التشابه الملفت للنظر بين هذا
 التقسيم والطبقات التي وضعها النازيون لأجناس البشر على سلم الرقي الذي
 وضعوه ، على حد زعمهم . ويقول (كودمان) ان (دارون) كان يؤمن انه في
 التطور فان^(١) (الارتقاء من الأشكال البسيطة الى الأشكال المعقدة حتمي .
 وتحت هذا المفهوم فان أنواع الانسان تسلفت على سلم التطور من الأسود الى
 البني الى الأصفر الى الأبيض) . وهذا هو نفس التقسيم النازي ، الا أن النازية
 عرضته بشكل اكثر تفصيلاً . ويستطرد (كودمان) فيقول^(٢) (وبطريقة غير
 علمية تماماً اعطى دارون مغزى تسلسلياً لأجناس البشر المختلفة) . وهذا
 المغزى لا يتفق مع الحقائق التاريخية لحضارات وادي الرافدين ومصر أيضاً ،
 والتي أخذ منها (دارون) ، والانسان الأبيض ككل ، دينه ومثله وقيمه الخلقية
 المستمدة من تعاليم المسيح (ع) . والتفسير الوحيد للسلم الذي وضعه
 (دارون) للأجناس البشرية بهذا الشكل هو عنصريته المتأصلة ، والا فما معنى
 أن يطرح عالم في الاحياء فكرة كهذه ؟ ومن يعتقد أن النازية مسألة المانية بحته
 فانه مخطيء ، لأن النازية ليست سوى وجهاً من وجوه هذه العنصرية البغيضة
 للانسان الأبيض ضد الملونين والتي ظهرت في المانية على شكل النازية ، وفي
 أمريكا على شكل القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناكازاكي ، وفي
 افريقيا على شكل عنصرية بغيضة ضد سكان البلاد السود الاصليين ، وقبل
 ذلك في استراليا فانقرض سكانها الاصليين (الابرجينيين) ، وفي امريكا ،
 فانقرض الهنود الحمر . وعنصرية (دارون) الذي كان ينتمي الى الطبقة
 الاستقرائية في انكلترا يمكن تحسسها من اعتراض زوجته (آني) على دفن عالم

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤٥ .

الاحياء الانكليزي « آلفريد رسل والاس » ، الذي كان صديقاً لدارون ولكنه لم يكن ارستقراطياً ، اعترضت على دفنه بجانب قبر (دارون) في كنيسة ويستمنستر . ويخبرنا (كودمان) انه^(١) كانت هناك طلبات بأن يُدفن بجانب دارون في كنيسة ويستمنستر ، ولكن « آني » زوجة دارون رفضت ، وبذلك تم دفنه في التراب الانكليزي الذي كان يحبه حباً جماً ، وبدلاً من ذلك نُصبت له لوحة تذكارية في كنيسة ويستمنستر تبعد خطوات عن قبر دارون) . وطبعاً فان السبب الوحيد الذي يمكن التكهن به لرفض « آني » دفن « والاس » قرب (دارون) هو لانه ليس من الطبقة الاستقرائية ، والا فما هو الاعتراض ؟ والملاحظ أن هؤلاء الناس كانت عنصريتهم بشعة الى حد أنها طالت الطبقات الأخرى من شعوبهم ، والتي اعتبروها أقل منهم منزلة . ولم يكن علم « والاس » وعقله يشفعان له . ولم تنظر اليه « آني » على أنه عالم جليل ، ولكن مجرد فرد من الطبقات الدنيا ، ويبقى وضعياً في نظرها مهما ارتقى ، بحيث انه حتى عند الموت لا يستحق الدفن قربهم . هكذا هم الذين جاءونا بهذه الفكرة التي لم يستطع العلم تبريرها لحد الآن .

وهناك نظرية غريبة تمخضت عن فكرة التطور ، وقد جاء بها (بييرتايلهارد دي شاردن) (*٢) الذي كان عالم احياء وقساً بنفس الوقت . ونظريته تقول انه ، وباستمرار التطور ، فان البشرية سوف تتكامل الى مخلوق واحد . والبشرية تسير باتجاه توحيد البشر بأجمعهم الى مجموعة واحدة مشتركة - التفكير . ويبرر (دي شاردن) آراءه بالقول ، لما كانت الطاقة قد تطورت الى مادة ، والمادة تطورت الى حياة ، والتي بدورها تطورت الى العقل والارادة ، فان الخطوة المقبلة ستكون تطور عقول الجنس البشري بأكمله الى وحدة عضوية واحدة حيث سيعمل

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٢) انظر المصدر ١٩ .

الناس بتآلف وتوافق نحو هدف واحد بالضبط كخلايا الجسم الواحد . وواضح أن هذه النظرية تصلح أن تكون فلماً من أفلام علم الخيال أكثر مما هي تأملات علمية . ويبدو أن (دي شاردين) غافل تماماً عن حمامات الدم والمذابح البشرية على مر التاريخ ، وعن عنصرية قومه البيض في افريقيا الجنوبية . أو لعله غير مكترث ، فهو يبدو كالانسان الذي يعيش في عالمه الخاص ولا يعلم ما حوله . وأنه لمن الغريب أن نرى قسماً يؤمن بفكرة التطور المخالفة لتعاليم كتابه المقدس ، انه تناقض يرقد في شخص واحد . لا بد وأن هذا الشخص كان تعيساً ، أو انه لم يكن طبيعياً ، أو ليس قسماً حقيقياً ، لأنه من الصعب فهم كيف ان هذا الرجل استطاع التوفيق بين الانجيل والتطور . فاذا آمن بالتطور فانه لم يؤمن بالانجيل الذي يقول أن الله خلق آدم على هيئة الانسان ، وبذلك فانه ليس قسماً حقيقياً . وعلى أي حال ، فان (دي شاردين) لم يجربنا في نظريته عن تصوراته للهدف من وراء تكامل العقول البشرية .

ولكي يتضح لنا تأثير فكرة التطور على عقول العلماء الأوربيين ومفكرهم دعنا نرى الالماع المخيف في رأي (بيجورن كورتين) الذي لا يلاحظه معظم الذين يقرأون كتابه . فبأسم علم الاحياء ، ولاجل التطور المقدس ، يقول^(١) ان البحث في علم الاحياء يفك الرموز الجينية وقد يصل في المستقبل الى النقطة التي نستطيع عندها أن نبدأ بالسيطرة على تطورنا بصورة مباشرة ، بدلاً من الطريقة المؤلمة والمتوترة للانتخاب الاصطناعي أو الطبيعي) . اذن فهو ينادي بطريقة أقل ألماً لتقدم الانسان من الناحية البيولوجية . ولكن ما هي هذه الطريقة الأقل ألماً؟ يستطرد (كورتين) فيقول (ان جميع الكائنات في الطبيعة على قرن مازق : أنها تحتاج الى انتخاب للحفاظ على الصحة وقابلية الحياة . ولكن الانتخاب مؤلم للفرد . فلو استطاع الانسان أن يحرر نفسه من العضلة ،

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

فانه سيكون قد ربح الحرية الحقيقية - وهذه ستكون حالة فريدة في تاريخ الحياة على الأرض) . انها وبلا شك رائحة نازية . فهو يسمي منع الناس عن ممارسة حقوقهم الغريزية وامتلاك الأطفال بأنه تحرير واعتاق . وهذه الحقوق يحتفظ بها لأقلية معينة (وبدون شك ستكون هذه الأقلية هي الرجل الأبيض ، أو بالأحرى أقلية منهم وليس كلهم) . وما لم يمكن انجازه بواسطة الابادة للأجناس البشرية قد يمكن انجازه بواسطة الاقناع وغسل الأدمغة . وهذه الدعوى لا تمثل الا طريقة قديمة وخادعة للظلم والاضطهاد ، ولكن هذه المرة لكل الأجناس ، وليس لبلد أو أقلية . يا له من تفكير مظلم وجنوني . فالانسان يجب أن يحصل على الحرية الحقيقية بتحرير نفسه من انسانيته . أليس هذا هو ما تتضمنه كلمات الرجل ؟ (وكورتين) يتحدث عن خطر ازدياد السكان الكبير في البلدان المُعدّمة والتي قد تكتسح الانسان المتحضر ، فيقول^(١)) عند التحرك أكثر الى داخل مناطق المُعدّمين ، نجابه اشكالا جديدة للاعتاد أو الموت بواسطة العنف . وهنا فانه الحرمان الذي يصبح العامل الرئيسي ، وفي المقام الأول ، فانه الجوع . . . ومعدل الولادات العالي يوازَن بواسطة معدل وفيات أعلى ، خاصة بين الأطفال ، واذا استمر الاتجاه الحاضر ، فقد تحدث هذه الوفيات بتكرار اكثر) . وهنا فانه يتكلم عن العنف والمجاعة والجوع وكان هذه الأشياء ظواهر طبيعية ، أو ان أولئك الناس الجائعين غير قادرين على زراعة أراضيهم . وهو بذلك يتغافل عن التدخل السياسي المتعمد في البلدان المُعدّمة بواسطة القوى العظمى لضمان مصالحها الانانية . وكعالم من العلماء كان الأجدر به أن يعي الوضعية الحقيقية السائدة في هذه المناطق من العالم ، والتي تُفرض بالقوة المصطنعة ، وليس بالتطور الطبيعي أو البيولوجي ، واذا كانت هذه هي الحالة السائدة فانه من الطبيعي أن تحصل المجاعة المتكررة . ولكن ما بال أولئك المتحضرين المتطورين ذوي الحظ السعيد والثروة

(١) انظر المصدر السابق ص ١٥٩ .

الوفيرة لا يهبوا لمساعدة الجائعين؟ وأين الانتخاب الطبيعي عندما يموت الأطفال من الجوع؟ وهل سيعيش الطفل الأوربي اذا تعرض للمجاعة؟ أي كائن حي سيعيش اذا تعرض للجوع؟ ولكن لا حول ولا قوة الا بالله !!

ويستمر كورتين بالقول^(١) (وعندما تزداد أعداد هؤلاء السكان ، فان الجوع يميل الى التسابق في المقدمة ، وذلك لأنه بنفس الوقت تُمتص الموارد الطبيعية بالاستغلال الوحشي بمظاهر عديدة . . . واذا أصبح الجوع هو العامل الرئيسي للبقاء على عدد السكان واطشاً ، فلربما أن الأفراد الحذّقين والأنايين فقط هم الذين يبقون ، وبذلك يعطون جيناتهم كميّرات الى أجيال المستقبل) . ونحن نتساءل ماذا حدث للوجه الانساني للبشرية ، الا تمد الشعوب المتحضرة يد المساعدة؟ وماذا عن الشعور الانساني للناس الذين تصيبهم المجاعة ، الا يساعد بعضهم بعضاً؟ وهل ان المجاعة تلغي الشعور الانساني والعقول المنطقية والثابتة الى الدرجة التي يتحول فيها كل الناس الى وحوش فيبقى منهم الأناني فقط لأنه سوف يأخذ كل شيء لنفسه؟ انه يصور هؤلاء الناس وكأنهم أقرب الى القرد لمجرد أنهم لا يمتلكون التكنولوجيا التي كان قومه السبب في حرمانهم منها بالقوة والتقتيل والابادة . وعلى أي حال ، أي تطور هذا الذي يأمل أن يكون الأناني هو الباقي والمزدهر؟ أليس هذا هو الرجوع الى الوراء بالتطور وليس الى الامام؟ ونحن نتساءل ، لو أن بلداً مثل انكلترا التي لا تمتلك الا القليل من الموارد الطبيعية ، لو أن العالم توقف عن تصدير الأغذية اليها ، الا تحدث مجاعة كتلك التي تحدث في البلدان المُعدّمة؟ الا يبين هذا الوضعية الزائفة السائدة في البلدان المُعدّمة؟

ويستمر (كورتين) بالقول^(٢) (طالما ان جزءاً واسعاً من العالم في حالة

(١) انظر المصدر السابق، ص ١٥٩ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٦٠ .

حرب مستمرة تقريباً ، فان هذا النوع من الانتخاب في عمل وتأثير) . ونحن نتساءل ، هل ان هذا يعني أن أوربا أنهت عملية الانتخاب الخاصة بها بسبب الحروب التي مرت بها ؟ وكيف يكون القتل من مسافة بعيدة بواسطة الآلة الحربية المشتركة أو المستعارة من الآخرين انتخاباً طبيعياً ؟ فقد يُقتل رجل قوي بواسطة رجل ضعيف يضغط على نابض المدفع . وماذا عن الحرب النووية التي تقتل كل الأحياء ؟ كيف يفسرها التطور ؟ اننا لا نرى في رأي الرجل الادعوة حاقدة الى تغذية الحروب لقتل الملونين والحفاظ على الجنس الأبيض من أن يصبح أقلية صغيرة في هذا العالم . فالقتل والابادة هما الاسلوبان المناسبان لا غيرهما .

اذا كانت هناك لعنة نزلت على الأرض في هذه الحقبة الزمنية فانها فكرة ذلك الرجل الذي طرح مفهوم التطور الذي استغلته المادية لاسناد نظرتها التي بدلت الانسان الى وحش متمدن .

وانه ليس من الشمولية ان نتصور الوجود كله بانه ما نحس به فقط . فهناك أشياء كثيرة توجد في عالمنا ولكننا لا نستطيع تحسسها ، كالأشياء البعيدة جداً التي لا نستطيع رؤيتها ، والأصوات التي ترددها أعلى ، أو اوطأ ، من مدى سمع الأذن . وهناك أشياء غير موجودة ولكننا نراها ، كالسراب مثلاً . وبهذه المحدودية كيف يستطيع أي فرد أن يتصور أنه يستطيع الوصول الى سر ماهية الوجود ؟

و (ماركس) يقول لنا انه وجد السر فوضع نظريته المادية التي فسرت الوجود على حد زعمه ، فقال ان الانسان نتاج لأدوات الانتاج . ولكن اذا كان الحال كذلك ، فلا بد وان (ماركس) نفسه نتاج لأدوات الانتاج وبذلك فان فكره نسبي أيضاً ، فكيف ارتفع الى المطلقية التي فسرت التاريخ ؟ ان احدى استراتيجيات الخداع الماركسية ، والمادية بصورة عامة ، هي طرح اسئلة معينة تتعلق بالخالق . وعندما لا يستطيعون الاجابة عليها يستتجون ان الله ليس

موجوداً . وهم يتغافلون (وقد يكونون متعمدين) عن حقيقة أنهم عندما لا يستطيعون الاجابة على هذه الأسئلة فانه لا يعني ان الأجوبة غير موجودة . ولكنهم يفرضون استحالة الأجوبة ويستتجون ما يروق لهم . وأحد هذه الأسئلة (القديمة جداً في التاريخ) هو الآتي : اذا كان الله خلق كل شيء فمن خلق الله ؟

وانه لحقيقة انه مهما كانت تصوراتنا عن الأشياء ، فان ذلك لا يغير من حقيقة هذه الأشياء شيئاً . واذا كان الله موجوداً وكانت الجنة والنار موجودتين ، فان (ماركس) الآن يعاني من مشكلة حقيقية وكذلك يكون جميع أتباعه ، وسوف لن يكون باستطاعته مساعدتهم أو مساعدة نفسه .

وعندما يزعم الماديون أننا جئنا من لا شيء ونرجع الى اللا شيء ، فهل لديهم أدلة مادية تجريبية على ذلك ؟ أليس هذا هو استعمال افتراض لا مادي للبرهان على المادية ؟ أليس هذا غش وخداع ؟ كيف يزعمون أنه لا يوجد شيء ما وراء المادة ثم يستعملون حجة لا مادية لتبرير ادعائهم ؟ أليس هذا بحد ذاته برهاناً على الوجود اللامادي ؟ و (كودمان) يؤكد الوجود اللامادي بالقول^(١) ان المادية البحتة ، وكما نفهمها ، لا تكفي لتفسير اللحظات الظاهرية للاتصال العقلي والاستبصار^(*) ، حيث تم الحصول بطريقة ما بواسطة العقل على معلومات دقيقة قابلة للاختبار بدون مساعدة دخل فيزيائي . والمادية بدأت تفقد شعبيتها الآن بين كثير من العلماء ، خاصة بعد الاكتشافات العلمية الحديثة في الفيزياء وعلم النفس .

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٤٧ .

(*) القدرة على رؤية كل ما هو واقع وراء نطاق البصر .

الباب الثاني

التطور

الفصل الرابع

نظريات الخلية الحية الاولى

فكرة الخلية الأولى والحقائق العلمية

عند طرح فكرة الخلية الأولى تتبادر الى الذهن اسئلة كثيرة ، منها : هل صحيح ان الكائنات الحية بدأت من خلية واحدة وتطورت أم أن هناك خالق صنع الأشياء وأعطاهها قابلية التغير مع الظروف والمحيط ولكن الى حد معين فقط ؟ هل كانت هناك خلية واحدة انبثقت بطريقة الصدفة وابتدأت كل شيء ؟ كم يستطيع علماء الأحياء أن يجربونا ، وماذا أخبرونا لحد الآن ؟ هل أن علم الاحياء علم حيادي يلزم نفسه بالاكتشافات العلمية فقط كبقية العلوم أم انه استعمل بتحيز نحو معتقد معين يؤمن به العلماء الذين يحاولون اثبات هذا المعتقد بأي طريقة كانت مستعملين الخصائص والقابليات التي تمتلكها الكائنات الحية ؟

تقول لنا فكرة التطور ان الكائنات الحية تطورت من مادة ميتة بواسطة ولادة كائن حي بطريقة الصدفة على شكل خلية بسيطة حية . ونحن هنا ، في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، سوف نركز على مناقشة صحة هذا الافتراض

ابتداءً من تناقضات آراء العلماء بخصوص الموضوع ، ومروراً بالافتراضات اللامنطقية التي وضعت ، ثم انتهاءً بالمسألة المنسية التي لا يذكرها أحد ، وهي مسألة المعلومات التي احتاجتها الخلية لكي تبقى وتتطور . فاذا توصلنا الى الاستنتاج بأن الخلية لا يمكن أن تكون قد انبثقت بطريقة الصدفة ، فان الاحتمال الآخر الذي يبقى هو وجود الصانع بالضرورة . وسوف نرى على أي حال ، انه لا يوجد أساس علمي للنظرية ولا رأي متفق عليه بين العلماء بشأن الطروحات المختلفة المقترحة .

وخذ (جون مينارد) الذي يذكر مقطعاً من مجلة Scientific American , Inc . يجبرنا فيه عن قلة المعلومات الحقيقية المتوفرة للعلماء الذين يدافعون عن التطور^(١) (لقد رأى شارلز دارون في تنوع الكائنات الحية قواعد التطور الذي عمل على توليد الكائنات الحية ، وهي التغيير والتنافس والانتخاب . ومنذ زمن دارون فقد تم نوعاً ما اكتساب فهم للأحياء الجزيئية والفيزياء الأرضية والكيمياء الأرضية والذي لم يكن يتصوره أحد في القرن التاسع عشر . ولكن هل أن هذا يجعل تقفي التطور رجوعاً الى الفترة ما قبل وجود الكائنات الحية ممكناً ؟

كجواب أول ، كلا ؟ فالسجل ما قبل الأحياء ، وبموجب معرفتنا ، قد تلاشى أو ازيل تماماً بواسطة الأجيال اللاحقة للحياة وان المتحجرات الراقية الباقية - الرموز الجينية والرسائل الجينية للكائنات الحية الحاضرة وطرق التفاعل المعروفة للكيمياء الأرضية - تعكس معلومات متناثرة الى درجة بحيث ان احداً لا يستطيع أن يصف التطور ما قبل الحياة بتفصيل أكثر من تطور القروذ العليا على سبيل المثال) .

المقطع أعلاه يلخص قصة التطور بأكملها تقريباً . وعند تفحص هذا

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٠

المقطع يمكننا أن نستكشف ما يلي :

- دارون رأى تغيرات وتشابه بين الكائنات الحية ، فاستنتج أن هناك عملية انتخاب .

- ومنذ ذلك الوقت تم اكتساب معرفة أعمق في علوم الأحياء والفيزياء الأرضية والكيمياء الأرضية .

- ليست هناك معلومات عن تاريخ ما قبل الاحياء .

- توجد متحجرات عليا(*) فقط .

- توجد بعض المعرفة عن الرموز والرسائل الجينية . الخ للكائنات الحية الحاضرة .

- اعتماداً على هذه المعلومات تم تشييد نظرية تقول أن الكائنات الحية تطورت من خلية واحدة (أو عدة خلايا) انبثقت بطريقة الصدفة .

الا ان التمحيص الجيد لهذه المعلومات المتفرقة يبين الآتي :

- ان (دارون) ركز فقط على التشابه بين الكائنات الحية التي تعود الى نفس النوع أو الفصيلة . وقد أهمل الفروقات بين هذه الكائنات ، والتي هي في معظم الأحيان أكثر من التشابه . وتفسير (دارون) ليس التفسير الوحيد لهذا التشابه ، فقد يُعزى الى اسباب اخرى لا تقل منطقية ، وقد تكون أكثر منطقية من فكرة التطور .

- ان معرفة علم الاحياء الجزيئية والرموز الجينية الخ تأتي من دراسة الاحياء الموجودة الآن فقط ، ولا يمكن نسبها بأي طريقة من الطرق الى الأشياء ما قبل الحياة . فان ما قبل الحياة وما بعدها موضوعان منفصلان بعضهما عن

(*) المقصود انها متحجرات لحيوانات تعتبر راقية في سلم التطور

بعض سواءً من ناحية طبيعة كل منها أو من ناحية الزمن . وربطها عملية لا معنى لها .

- ان الأدلة الوحيدة التي يمتلكها التطوريون موجودة في شظايا العظام المتحجرة المتناثرة والتي جُمعت من هنا وهناك ، والتي تختلف في طبيعتها وتفصل بينها ملايين السنين . ومن هذه العظام بُنيت النظرية . وليس هناك دليل علمي لهذه النظرية عدا مقارنة الوجود ما قبل الاحياء مع طبيعة الكائنات الحية الحاضرة . وبطبيعة الحال فان الكائنات الحية الحاضرة لا تكشف سوى عن طبيعتها الآن والتي يمكن أن تُنسب الى صانع . وبالرغم من أن الكاتب يعترف بأن المعلومات المتوفرة ليست كافية لتقفي التطور رجوعاً الى الفترة ما قبل ظهور الحياة على الأرض (والتي فيها ، بدون حق ، يفرض أن تطور الحياة قد وقع فعلاً) فانه يرجع فيقول انه يمكن .

وباختصار ، يبدو أن النظرية ليست اكثر من تأمل لما يُعتقد انه قد حدث اعتماداً على عظام مبعثرة وعلى خصائص الكائنات الحية الموجودة الآن والتي يمكن نسبها الى صانع بواسطة نظرية اخرى ليس هناك برهان ضدها . واستقراء نظرية التطور من الصعب وصفه بالعلمية فيما لو نظرنا الى التعريف التالي للعلم الذي بذكره (برتراند رسل)^(١) عندما نجبرنا رجل العلم نتيجة تجربته ، فانه نجبرنا أيضاً كيف أجريت التجربة ، ويستطيع الآخرون أن يعيدوها ، واذا لم يحصلوا على النتيجة نفسها فانها لا تُقبل كحقيقة) . وبالنسبة للتطور فاننا نعلم ان التجارب التي يجريها علماء الأحياء تبين قابلية الكائنات الحية على التكيف وتغيير بعض القابليات ، ولكن ليس التطور الى كائن حي جديد . وهذه القابليات يمكن تفسيرها في اطار ذاتها وموضوعها فقط . أما ربطها باسلوب يوحى الى أن نظرية التطور صحيحة فانه قفزة كبيرة لا يمكن قبولها بهذه البساطة وبدون تساؤل .

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ١٧٨ .

و (رسل) يستمر بتعريف العلم بالقول^(١) يعتمد العلم على الإدراك والاستدلال . ومصادقته سببها أن الإدراكات هي بقدر ما يناقش أي شخص (ملاحظ) . ولكن فكرة الخليقة بموجب نظرية التطور لا يمكن اختبارها بأي طريقة كانت مما يخرجها عن الإطار العلمي بموجب التعريف المار . ونحن لا نعلم كيف أصبحت هذه النظرية مقبولة علمياً . وكما قلنا سابقاً فإن القضية بأكملها تبدو أنها ليست أكثر من انتاج لتصورات بعض العلماء . وقد يبدو هذا الرأي شديداً نوعاً ما . ونحن لا نتكر لما أنتجه علماء الأحياء من تراث علمي عظيم ساهم في خدمة البشرية الى حد كبير جداً . ولكن عندما يصبحون متحيزين ويوجهوا الاكتشافات العلمية باتجاه تأكيد قضية يؤمنون بها سلفاً فانهم يخرجون من ميدان العلم الى ميدان آخر . و (رسل) يؤكد^(٢) ان العلم يجب أن يكون حيادياً) . والتطوريون ليسوا حياديين عندما يحاولون البرهنة على قضية يؤمنون بها . فالحقائق التي يكتشفونها عن عمل الأنظمة الحية تخص كيفية عمل هذه الكائنات فقط وليس كيف اختلقت في البداية . ولذا فان طرح نظرية للخليقة من هذه المعلومات هي قضية أخرى تماماً .

والتطوريون الذين تملكهم الفكرة القائلة أن الحياة انبثقت على شكل خلية بسيطة يحاولون اختراع نظريات لجعل الفكرة متماسكة . ولكن هذه النظريات تتخللها طفرات كبيرة لربطها بعضها ببعض ، وهذه الطفرات غير مقبولة ، لأن القفز من خطوة الى اخرى بدون تبرير معقول للوصول الى الاستنتاج القائل أن الحياة ابتدأت بطريقة الصدفة يقودنا الى التساؤل فيما اذا كان هؤلاء الناس علماء أم منجمين !! مثلاً ان (سمث) يقول^(٣) ان الكينونات التي تمتلك خصائص التكاثر والتغير والوراثة حية ، وتلك التي

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٧٨ .

(٣) انظر المصدر ٦، ص ٧ .

تنقصها واحدة أو أكثر من هذه الخصائص ليست حية) . وهذا التصريح قد يبدو علمياً لأول وهلة ، ولكن عند التمعن به فإن المرء لا يستطيع ، وبموجبه ، أن يعتبر البغل ، أو المرأة العاقر ، أحياءً أم لا . وهذا النوع من القفزات في الآراء ، والأخطاء التي تتبعها هو ما يفعله علماء الأحياء عندما تأتي المسألة الى قضية الخليفة لكي يصلوا الى نظريتهم . وسنرى كثيراً منها في الفصول القادمة . ولكن سبقي الآن مع حجج العلماء لاستكشاف كم هم قرييون ، أو بعيدون ، عن حل مشكلة أصل الحياة . يقول (سمث)^(١) (ان مشكلة أصل الحياة اليوم ، وبالرغم من أنها لا زالت بعيدة عن الحل ، فانها تُدرّس بصورة نشيطة من كلا الجانبين التجريبي والنظري) . و(أندري كوياكس) يقول^(٢) (كيف تظهر الكائنات الحية ؟ وكيف تنفرض ؟ بصورة أساسية ، نحن لا نعلم العناصر الجوهرية ونحن مترددون ، وأفضل العقول غير متفقة) . ثم يستطر بالقول (لقد حاول رول أن ان يقتفى الأثر رجوعاً الى الأصل الأول . . . وقد يمكن للقوى الفيزيو- كيميائية أن تمتلك القابلية يوماً ما لتبيان كيف ، وتحت أي ظروف ، استطاعت الحياة أن تتكون وتنض في قلب البيثة الميتة) . ولكن اين العلم والاكتشافات التي يستند عليها ؟ انه لا يقول . و(روث مور) تقول^(٣) (ان بعض المعتقدات المتزمتة التي تم التمسك بها طويلاً يجب ان تُراجع والكتب المدرسية يجب أن تعاد كتابتها ، لأن كثيراً مما قيل وبعض الحقائق المؤيدة لذلك تبين الآن أنها غير صحيحة) . وهذا هو العلم الذي أملى علينا نظرية الخليفة و(بيتر رسل) هو الآخر يقول^(٣) (في الحقيقة أن مسألة كيفية بدء الحياة لا زالت قضية يدور حولها جدال كثير) . هذا هو قرب علماء الأحياء الذين

(١) انظر المصدر السابق، ص ٧.

(٢) انظر المصدر ٥، ص ١٩٥.

(٣) المصدر ١، ص ٣.

(٤) انظر المصدر ١٣، ص ٤١.

يتمسكون بفكرة التطور من أصل الحياة . ويبدو أن قريهم منها كقرب رجال الفضاء من نهاية الكون . وما موجود الآن ليس أكثر من آراء مختلفة لأناس مختلفين . وكثير من هذه الآراء يُكتشف انها خاطئة ، وقد تكون الآراء التي تحمل محلها ، والتي تعتبر صحيحة الآن ، هي الأخرى خاطئة أيضاً ويتم التخلي عنها في أوقات لاحقة . فحقائق الأمس لم تكن حقائق ، وحقائق اليوم قد لا تكون حقائق أيضاً . ومهما اعتقدنا فان اعتقادنا لا يغير من حقائق الأشياء . وبالرغم من الوقت المبكر لاعطاء الحكم فان (سمث) على عجل من امره لاتخاذ القرار ، فهو يقول^(١) (اننا لا نستطيع بعد الآن أن نترك الأشياء الى نَفْس الخالق) . وهو متأكد مما يقول ، ولكنه لا يمتلك التبريرات التجريبية لاسناد رأي كهذا . وهذا النوع من التفكير اعتيادي هذه الأيام . فها هو (دي كايوكس) يقول^(٢) (في السابق ، كان الانسان مضطراً للاعتماد على تصوراتهِ وحده بصورة رئيسية . واليوم فانه يحصل على دعم اكثر فأكثر من الحقائق) . وسؤالنا هنا هو : أي حقائق هذه ؟ أهى الحقائق التي في تبدل مستمر ؟ وهل ان استقراء نظريات التطور والخليقة من المتحجرات ليس حدىساً ؟ ان النظرية بأكملها ليست الا حدىساً وتصورات معتمدة على قطع من المتحجرات التي لا علاقة تربط بينها سواء من ناحية طبيعتها أو الزمن الذي يفصل بينها . وهل يوجد تصور اكبر من ذلك ؟ . هل يستطيع أي من علماء الأحياء أن يؤكد أن حقائقهم هي حقائق لا جدال فيها ولا يمكن تحديها ؟

ويستمر (سميث) بالقول^(٣) (لقد تبين أنه بالرغم من أن دارون لم يفكر جدياً في المشكلة ، فان نظرية التطور تزودنا بالوضوحية المُرضية الوحيدة للحياة ، وعليه فانها تعطي الطريقة الواضحة والوحيدة لصياغة مشكلة

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤ .

(٣) انظر المصدر ٦ ، ص ٧ .

أصلها) . يا لها من غرابة !! فمع كل الحقائق التي تبين أنها أخطاء فإن صياغة (أو ربما الأفضل أن نقول تخيل) أصل الحياة يصبح الطريقة الوحيدة الواضحة . و (دي كايوكس) نجبرنا بأن^(١) الحياة ظهرت على الأرض قبل ثلاث أو أربع مليارات من السنين . وقد اشتقت من المادة غير العضوية ، أو على الأقل كل شيء يشير الى ذلك) . وهذا يعطينا ريبة مقدارها مليار سنة ، أو ٢٥ - ٣٠٪ . وهي فترة زمنية لا يمكن لأحد أن يتصورها . ولكن أي الأشياء التي تشير الى أن الحياة اشتقت من المادة غير العضوية ؟ انه لا يتكلم عنها . الا اذا كان الواضح هو المقصود ، وهو أن أجسامنا تتكون من نفس مكونات الأرض .

و (ريتشارد ليكي) هو الآخر متسرع في اتخاذ القرار ، فهو يقول^(٢) في زمن ما ، كثير من الناس اعتقدوا أن الحيوانات والنباتات التي نراها في عالمنا اليوم خلقت مرة واحدة من قبل الله . ولكن الآن نحن نعرف أن كل هذه الحيوانات والنباتات ظهرت تدريجياً ، وأن الأشياء الحية الأولى كانت صغيرة وبدائية وتشبه بكتريا عصرنا الحاضر) . و (ليكي) متأكد من نظريته بالرغم من أن معرفته تعتمد على الحقائق التي ليست حقائق ، وعلى قطع العظام ، وخصائص الكائنات الحية الحديثة والتي يفسرها على أنها تطورت من لا شيء . فهو يفترض افتراضات ثم يعتبرها صحيحة ، ويقارن الخلايا الحية الأولى مع البكتريا الحاضرة . وهذه المقارنة ليس لها أساس علمي . فالبكتريا احياء متطورة جداً . ولكي يتضح لنا ذلك ، دعنا نأخذ الفيروسات التي هي أبسط من البكتريا في تركيبها وأوطأ منها على سلم التطور ونرى كيفية تكاثرها . (دي كايوكس) نجبرنا انه في التجارب العلمية عندما تزرق الفيروسات الملتهمة للجراثيم الى جسم البكتريا فانها ، وكما تبين التجارب ، تتكاثر بعملية ذات

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٣ .

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٧ .

مرحلتين . الأولى ان مادة البكتريا تتحطم الى قطع مشابهة للحائط الذي يتهدم الى طابوق متفرق . الثانية ان هذه القطع تتجمع مرة اخرى الى كتل صغيرة تشبه الفيروس . وهذه الكتل هي الفيروسات الجديدة . وتأخذ العملية ثلاثين دقيقة ، ونتيجتها ولادة مائتي فيروس باستعمال أكثر من تسعة أعشار مادة البكتريا . أما الجزء الباقي غير المستعمل فانه يُترك كفضلات . و (دي كايوكس) يشير الى انه^(١) (باستطاعتنا مقارنة الفيروس مع الحماة التي تريد كُتتها أن تفعل كل شيء كما تفعل هي . او باستعمال مقارنة أكثر فلسفة ولطافة ، فان الفيروس هو المثال المبسط للرسول ، لأنه يحول الآخرين الى نفسه . وعلى أي حال ، فان رسوله يتضمن صراعاً ، وهو تحطيم الأواصر القديمة . وهذا الأواصر هي البروتين البكتيري) . ويبدو أن الفيروس يعطي أوامر معقدة جداً ، وهذه الأوامر تنفذ عمليات معقدة لتحطيم كائن حي ثم تستعمل مكوناته في ترتيب جديد لتوليد كائنات حية جديدة مختلفة . لذا فان الفيروس ليس بتلك البدائية التي قد يتصورها بعضنا . بل على العكس من ذلك ، فهو نظام دقيق وعالي التنظيم . ولأولئك الذين يعتقدون أن الفيروس يمثل أصل الحياة يقول (دي كايوكس) ان^(٢) (كل الفيروسات التي تمت دراستها لحد الآن تستطيع التكاثر فقط بواسطة الاستنبات داخل البكتريا الحية أو داخل خلايا أخرى ، وعلى حسابها . وهي متطفلة ، وبسبب هذه الخاصية ، فانها لا يمكن أن تكون أصل الحياة) . لأن الخلايا الأولى كان عليها أن تتغذى على المادة الميتة وليس الكائنات الحية ، حيث لم تكن هناك كائنات حية بعد .

وعلى أي حال ، وكما سنرى ، فان الأدلة الجديدة تبين انه ليس هناك

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٩٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(*) اي الزرع في خلايا حية .

تطور تدريجي . فالكائنات ظهرت على شكل مجموعات كما هي عليه .

النظريات ونقدها

كيف انبثقت الخلية ؟

يقول التطوريون انها جاءت بطريقة الصدفة . (جاك مونارد) يقول^(١) (الصدفة والضرورة . . دارون ، ومن عالم الصدفة البحتة ، حيث تدخل الصدفة الى حال الضرورة ، لأكثر الحقائق غير القابلة للتغيير) . اي أن عمل دارون الذي لم يعرف الكلل لسنوات طويلة من عمره لم يكن سوى صدفة بحتة وضرورية كان يجب أن تحدث . و (مونارد) لا نجبرنا لماذا كانت هذه الصدفة ضرورية ، فلا علم ولا تحليل ولا أسباب ولا قوانين . وها هو ، وكأي من الذين يؤمنون بالتطور ، يتيه في صحراء الخيال ليحط على تصور يتوخى منه أن يقنع الناس بنظريته ، فهو يقول^(٢) (وحتى اليوم يبدو أن كثيراً من العقول المشهورة ليست عندها القابلية لأن تقبل ، أو حتى تفهم ، ان من مصدر ضوضاء كان باستطاعة الانتخاب الطبيعي ، وبدون أي مساعدة ، أن يصوغ موسيقى محيط الكائنات الحية . وفي الواقع فان الانتخاب الطبيعي يعمل على منتجات الصدفة ولا يستطيع أن يتغذى في أي مكان آخر) . وهذا ليس ما ادعاه (دارون) على أي حال . فدارون ارتأى أن الأصلح يبقى ويسود ، وليس في هذا أي صدفة .

و (بيتر رسل) نجبرنا^(٣) ان اكثر النماذج^(*) شهرة تفترض ان المحيط الجوي البدائي كان يتكون من خليط من الهيدروجين والأمونيا والميثان وثاني

(١) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١١٨ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤١ .

(*) اي نظريات خلق الخلية

او كسيد الكاربون وكبريتيد الهيدروجين وبخار الماء وغازات أخرى بسيطة متكونة من اتحاد الذرات الخفيفة . وقد افترض أن هذه الغازات كان باستطاعتها أن تتحد لتكوين المركبات الكيماوية الضرورية للحياة) . اذن فالنظرية تبدأ بنموذج يفترض الأشياء ، وليس سوى افتراضات وتصورات لا علاقة لها بالواقع أو حقيقة ما كان ، أو لم يكن ، موجوداً . وهي بداية ربما تكون خطأ بأكملها مما يجعل النظرية تقف على قرن ثور (كما كان القدماء يؤمنون أن الكرة الأرضية محمولة على قرن ثور) . اذن هي بداية مشكوك فيها . وهذه البداية تذهب الى اكثر من ذلك بافتراض أن الغازات كان باستطاعتها أن تتحدد وليس « انها اتحدت » . شيء أقرب الى التخمين منه الى العلم . ولكن كيف تصوروا افتراضاً مدهشاً كهذا ؟ (بيتر رسل) يستمر بالقول^(١) (هناك سند معتبر لهذه النظرية يأتي من التجربة المشهورة التي قام بها ستانلي ملر عام ١٩٥٣ . . . ففي قارورة في المختبر صنع الحساء البدائي ، من الماء والميثان والتروجين والأمونيا وآثار من الهيدروجين ، والتي أخضعها لشرارة كهربائية (لمحاكاة البرق) . وخلال ساعات تكبوت أنواع كثيرة من المواد العضوية مثل السكر والالدهيد والحوامض الكربوزيلية(**) والحوامض الامينية) . اذن فان السر العظيم بأكمله يكمن في قارورة ، وفي تجربة بينت ظواهر كيميائية معينة ، ثم استنتج منها كيف تمت الخليقة . وهذا الاستنتاج يشبه الاستنتاج الذي نخرج به اذا رأينا عشرة أشخاص امريكيين سود بأن كل الأمريكان سود . قد يكون حقيقة أن هؤلاء العشرة السود امريكيون . وقد يكون حقيقة أيضاً أن تلك المواد العضوية قد تكونت في القارورة . ولكنه ليس حقيقة أن كل الأمريكان سود ، كذلك فانها ليست حقيقة أن تكون المواد العضوية معناه خلق الحياة . فالمواد العضوية لا زالت مادة وليست حياة . والفرق بين المادة والحياة ليست المادة العضوية ،

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤١ .

(**) حوامض خشبية .

ولكنها الحياة نفسها . فالجسم الميت كله مواد عضوية ، وليس هذا فقط ، فهو نظام في منتهى التعقيد ، ولكنه مع ذلك ميت ولا يمكنه أن يكون حياً أبداً . وقطعة الخشب كلها مواد عضوية ، ولكنك اذا دفنتها في الأرض لا تنمو الى شجرة مطلقاً . وكذلك فان البذرة التي تمثل الوحدة الأكثر استعداداً للنمو الى شجرة لا يمكنها أن تنمو الى شجرة مطلقاً اذا كانت ميتة بالرغم من أنها كلها مواد عضوية منظمة على شكل نظام قابل للنمو . فالمسألة اذن ليست المواد العضوية ، ولكنها الحياة نفسها . ويقدر ما تكون مخطئاً في الاعتقاد أن كل الأمريكان سود فان التطوريون مخطئون في اعتقادهم عن أصل الحياة . فالمواد العضوية متوفرة بكثرة في كل مكان ولكنها لا تستطيع أن تخلق الحياة . ان التفكير في المادة العضوية حقل معين والحياة حقل آخر . والمواد العضوية انتاج لتفاعلات كيميائية من نوع معين ، لا اكثر ولا اقل ، بينما الحياة ظاهرة اخرى برمتها . والحياة تحوّل المواد اللاعضوية الى مواد عضوية في النباتات ، ولكن ليس العكس ، فالمواد العضوية لا تحوّل المادة (سواء العضوية أو اللاعضوية) الى حياة . و (بيتر رسل) يقول^(١) وقد بنيت تجارب أخرى ان وجود المحيط الجوي الغني بالميثان والأمونيا لا يبدو ضرورياً . فنفس الجزيئات يمكن تكوينها في بيئات غنية بثاني أكسيد الكربون أيضاً ، وحتى في المحيطات المتجمدة الباردة جداً . . . وأكثر من ذلك ، فان تكوينها ليس محدوداً بالضرورة الى الأجرام السماوية . فقد بينت التجارب أن هذه الجزيئات الأساسية تستطيع أن تتكون حتى في الفراغ التام تقريباً ، ودرجات حرارة تقترب من الصفر المطلق وبالفعل فقد تم حديثاً ايجاد كثير من هذه المركبات في الفضاء البعيد) . وهذه الاكتشافات تؤكد أن هذه المركبات ليست سوى مركبات كيميائية كأى مركبات أخرى ، ولا تحمل أي علاقة مع الحياة . وإذا أردنا أن نقول أن المادة العضوية تقود الى الحياة فانه باستطاعتنا أن نقول أن وجود المادة نفسها يقود الى الحياة ،

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٢ .

لأن ذلك لا يمثل سوى الرجوع خطوة الى الوراء ليس الا .

و (كيم مارشال) تعترف على مضمض بأن^(١) التجارب التي أنتجت الحوامض الأمينية والعناصر الأساسية للنواة الحية في القناني كانت تشير الاهتمام ، ولكن كانت هناك مشكلة واحدة فقط) . كم تبدو سهلة !! انها مشكلة واحدة فقط . ولكن ما هي طبيعة هذه المشكلة ؟ ان (كيم) تشرح ، فنقول (ان هذه الجزئيات لم يكن لديها طاقة من لديها . فلم تتمكن من الأكل أو الحركة أو التكاثر . وبكلمة أخرى لم تكن حية) . هذه هي المشكلة التي نقول عنها انها مشكلة واحدة فقط . ونحن نسأل اذا كان هؤلاء العلماء يتوقعون من هذه المواد أن تأكل وتتكاثر ، أي أن تصبح حية ، فلم لا يتوقعون من جسد ميت أن ينهض من موته ، أو من قطعة خشب أن تنمو الى شجرة ؟ ونحن نريد أن نفهم ، ما هو الفرق بين توقع المادة العضوية الميتة المصنوعة في قنينة أن تصبح حية وتوقع بغل ميت أن ينهض ويهرب ؟ ويتضح أن الأولى بالنسبة لهم علمية أما الثانية فانها سخافة مستحيلة . وهو ليس جنوناً توقع الحوامض الأمينية أن تتغذى وتتكاثر ولكن توقع قطعة الخشب الميتة أن تتغذى وتتكاثر فانه جنون . ونحن نرى أن رجوع الخلية التي كانت قد ماتت مرة أخرى الى الحياة أقل استحالة من ان تتحول مادة عضوية مجردة الى خلية حية ، لأن الخلية الميتة تمتلك كل شيء كان حياً على أقل تقدير بينما المادة العضوية لا تمتلك من ذلك شيئاً . ويبدو أن علماء التطور اهدروا جهوداً مضيئة ووقتاً طويلاً لكي يدركوا حقيقة من حقائق الوجود المهمة التي يمكن لأي انسان عادي أن يلاحظها ، وهي أن الميت لا يمكنه أن يصبح حياً . والشيء الذي لا يدركه هؤلاء الناس هو أن وضع المادة بأي شكل من الأشكال أو أي صورة من الصور ليس أكثر من اللعب بها ، سواءً بحجوم صغيرة أو كبيرة . وفهم كيفية عمل

(١) انظر المصدر ٧ ، ص ٣١ .

الخلية الحية لا يقودنا الى فهم كنه الحياة ولا الى خلقها . فنحن نعلم مم تكون الأرض وكيف يعمل النظام الشمسي ، ولكننا لا نستطيع أن نصنع أي شيء مماثل لهذا النظام ، حتى بحجم أصغر .

(بيتر رسل) يستمر بسرد تصوراته عن النظرية ، فيقول^(١) (ان البحار البدائية وبحيرات الصخور الأرضية ربما كانت المشهد المناسب للخطوة التالية في مسرحية التطور) . وهنا فانه ينسى انه لما كانت المواد العضوية قد تكونت قرب درجة حرارة الصفر المطلق وفي الفراغ الخ ، فلماذا لم تنبثق الحياة في ظروف كتلك ؟ وهو ينسى ايضاً أن تكون المواد العضوية في تلك الظروف يبين بكل وضوح أن وجود المواد العضوية وحده لا يقود الى تكوين الحياة . و (كيم مارشال) تسأل بالقول^(٢) (ان السؤال هو : كيف أن الحوامض الامينية والنواة التي تمخضت في المحيط البدائي تنظمت الى جزيئات أكبر وكونت الخلايا الحية ؟) ونحن لا نفهم لماذا تسمى المحيط بدائياً . وربما أنها تتخيل الحياة البدائية ، ولذا فان المشهد يبين أن كل شيء كان بدائياً . فالماء كان بدائياً والصخور كانت بدائية ، الا اننا لا نفهم ما يعني ذلك ، فلربما كانت بأنواع مختلفة وتطورت لما هي عليه الآن ايضاً . ولكن ليس هناك من دليل على ذلك . فالماء والصخور كانت ولا تزال نفسها . و (بيتر رسل) يرى الجواب لسؤال (كيم مارشال) كالآتي ، فهو يقول^(٣) (هنا فان الظروف كانت صحيحة لهذه المواد الكيميائية لكي تتجمع مع بعضها البعض لتكوين جزيئات أكبر مثل الحوامض الامينية والأنزيمات والبروتينات) . وهكذا يمر أعظم حدث على الأرض دون تفسير . فالأشياء حدثت فقط . . . طفرة وقفرة ثم بدأت الحياة . . الظروف كانت ملائمة للحياة أن تنبثق . ولكن دعنا نقارن هذه العبارة مع العبارة القائلة (ان

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

(٢) انظر المصدر ٧ ، ص ٣١ .

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

الله خلق الحياة) ، أليس ان هذه العبارة أكثر عقلانية من العبارة الأولى ؟
 (بيتر رسل) ، ومثل بقية الناس والعلماء ، لا يستطيع أن يفسر كيف ولماذا
 تجمعت تلك المواد الكيميائية لتكوين جزيئات أكبر . وهذا يذكرنا بالفكرة التي
 ورثتها الكنيسة والقائلة « ان الله نور يسقط في القلب . والعقل غير قادر على
 الوصول الى معرفة الله » ، والتي في الواقع يجب أن توضع كالاتي « ان معتقدات
 الكنيسة لا يمكن للعقول المنطقية أن تقبلها لأن كثيراً منها أقرب للخرافة منها الى
 الحقيقة . ولذا فاما أن تقبلها بدون نقاش أو لا تقبلها ، واترك الحقائق عن الله
 جانباً » . ونفس الشيء مع نظرية التطور ، فالحياة بدأت ولكنهم لا يعلمون
 كيف . الا أن التطوريين ، وليس كرجال الكنيسة ، لا يمكنهم أن يطرحوا
 الحقائق جانباً . وبدلاً من ذلك فانهم يضيفون على آرائهم روح العلمية بغطاء
 خادع ومموه . ولكن ليس بذلك النجاح الذي يودون .

و (سمث) ، ولانقاذ الموقف ، يحاول أن يعطي وصفاً للظروف التي
 أدت الى تكوين الجزيئات الكبيرة ، التي يتكلم عنها (بيتر رسل) ،
 فيقول^(١) ان تأثيرات الأشعة الشمسية على هذه المادة الفائقة البرودة المتبقية من
 تكاثف النظام الشمسي ربما كان باستطاعتها انتاج جزيئات عضوية كبيرة بحجم
 بوليمرات^(*) الاحياء) . اذن فانها أشعة الشمس التي فعلت ذلك . ولكن ،
 ولسوء حظ هذه النظرية ، فقد وجد أن أشعة الشمس لا تكفي لإنجاز المهمة .
 وكما سنرى فان أشعة الشمس تقتل هذه الجزيئات في الواقع .

و (بيتر رسل) يستمر بالقول^(٢) ويمرور الزمن تجمعت هذه الجزيئات الى
 مجموعات وسلاسل أكثر تعقيداً . ومرة أخرى لا تُعطى أسباب لتجمع هذه
 الجزيئات ولا لكيفية التجمع . وليس مهماً طبعاً ما دام التطور صحيحاً وهو ما

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١١ .

(*) بوليمر = مركب عضوي ذو جزيء كبير ومعقد .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

حدث بالفعل (بموجب اعتقادهم) . وهكذا ، ومرة أخرى ، نرى كيف يتعلق الانسان بفكرة يؤمن بها ويحاول تبريرها حتى بأسفه الطرق . أما (سمث) فانه يدرك المشكلة العويصة التي يمكن أن يقع فيها فيما لو ادلى برأي كراي (رسل) ، لذا فانه يعترف بأن^(١) الحساء البدائي قد واجه كارثة طاقة فعلاً : فأشكال الحياة الأولى احتاجت الى استخلاص الطاقة الكيميائية بطريقة ما من الجزئيات الموجودة في الحساء . وبالنسبة للقصة التي نرويها هنا ليس مهماً كيف فعلت ذلك ، لأننا نفترض نظاماً ما لحزن الطاقة وإيصالها اعتماداً على خزان طاقة للفوسفات) . اذن ، وبالنسبة له ، فانه ليس مهماً كيف حدث التطور . ونحن نسأل : اذا كانت هذه هي الحالة فعن أي شيء يتكلمون ؟ وماذا يحاولون أن يصفون أو يثبتون ؟ وأين الحقائق العلمية ؟ ليس هناك حقائق ، ولكن فقط افتراضات بدون أي تبرير منطقي .

الى هذا الحد فان القفزات التي افترضت لتكوين الحياة (وبدون أسباب معطاة بطبيعة الحال) هي الآتي :

- تكونت مواد عضوية .
- هذه المواد العضوية تجمعت مع بعضها البعض في البحار .
- ارتبطت هذه المواد لتشكيل مجموعات وسلاسل .

والآن كيف تستمر القصة ؟ (بيتر رسل) نجبرنا عن المواد العضوية ، فيقول^(٢) ان الجزئيات التي كانت أكثر اتزاناً بقيت موجودة لفترة أطول واتحدت مع أخريات لتكوين وحدات أكبر من ذلك ، وهي الجزئيات الضخمة ، والتي يحتوي بعضها على آلاف من لبنات البناء الأساسية والملايين من الذرات) . والسؤال هنا هو : اذا كانت كل هذه لا زالت مركبات كيميائية ، واذا كانت

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢ .

(٢) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٢ .

متشابهة ، فلماذا كان بعضها متزنًا وبعضها غير متزن؟ وكيف تجمعت هذه الآلاف منها إذا كانت بهذا الصغر الذي لا يمكن رؤية الملايين منها بالعين المجردة؟ لا بد وأن الحالة الوحيدة التي مكنتها من التجمع مع بعضها البعض هو أن مليارات ومليارات منها كانت قريبة بعضها من بعض ، وهذا يقتضي وجودها بأعداد هائلة . وهذا العدد أكبر من الخيال ، ومن الصعب تصور كيف أن هذا العدد الهائل تكون ، ومن الصعب أيضاً التصديق بأن كل الجزئيات كانت متشابهة . فهذا هو (بيتر رسل) يشير الى أن^(١) ان بكتريا الاستريشيا القولونية التي تعيش في امعاء الانسان تعتبر أبسط اشكال الحياة . ومع ذلك فان واحدة من هذه الخلايا تحتوي على أربعة جزئيات DNA وحوالي ٤٠٠,٠٠٠ جزيء RNA ، وحوالي مليون خلية بروتين ، و ٥٠٠ مليون جزيء عضوي أصغر وفي كل خلية استريشيا القولونية يوجد حوالي ٤٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (اربعون مليار) ذرة . والخلايا الأكثر تعقيداً ، مثل خلية العضلة ، فقد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (ترليون) ذرة ، وبعض الاميبا الكبيرة قد تحتوي على ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ذرة وليست هناك أشكال من الحياة معروفة بأقل من ١٠٠,٠٠٠,٠٠٠ (مائة مليون) ذرة . وبالنسبة للأعداد المجردة ، يبدو أن هناك حد أدنى لا تظهر الحياة تحته) . وفي الواقع فان تجمعاً كهذا لكي يحدث ، بجانب كل الأسباب الأخرى ، فلا بد وأن اللبنات العضوية قد غطت البحار والمحيطات كلياً . وأنه لمن الصعب على أي انسان أن يبرهن أن ذلك قد حدث في الظروف المقترحة ، لأنه اذا كان فعلاً قد حدث بهذه الطريقة فلا بد وأنها كانت الظاهرة السائدة ، والتي تجعلنا نتساءل : لم توقفت اذن عند نقطة معينة ؟ واذا لم تتوقف ، فلماذا لا نرى تكون الحياة المستمر ؟ ويبدو أن الموضوع كله هو محاولة تطبيق نموذج على ظاهرة تلاحظ الآن

(١) انظر المصدر السابق، ص ٥٦ .

(وهي الحياة) .

وبعد تكوين الجزيئات الضخمة حدثت المعجزة فـ (بيترسل) نجبرنا بأن^(١) بعض هذه الجزيئات العملاقة « طورت » قابليتها على معرفة الجزيئات الأخرى الأصغر حجماً) . والاعلان عن هذا التصريح مهلك اذا فهمنا ما هي المعرفة . وسوف نركز على هذا الموضوع في وقت لاحق ، ولكننا الآن نسأل السؤال التالي : كيف طورت هذه المواد هذه القابلية وهذا الذكاء ؟ ولأي سبب ؟ الجواب نجده طبعاً في الصدفة و « الحظ » و « الخطأ » المقترحة كطريقة سهلة للخروج بالمستحيل . وطبعاً فان هذا من السفاهة بحيث لا يمكن قبوله . وعلى كل فان المعجزة تكتمل بعد ذلك بواسطة معجزة أخرى ، فـ (بيترسل) يقول^(٢) (وبهذه القابلية فان بعض الجزيئات الضخمة « وخاصة جزيئات حامض الديوكسيريبونواتي DNA » استطاعت أن ترتب الجزيئات الأخرى الصغيرة بسلسلة متتالية معينة . وبواسطة بناء متتاليات مشابهة لنفسها فانها انجزت جوهر التكاثر) . وهذه قفزة كبيرة جداً تحاشت تفسير كيفية تكون نظام الـ DNA الفائق التعقيد ، حيث يذكره (رسل) دون شرح أو تفصيل . وفجأة فان قوة ما لا يُعرف مصدرها جعلت بعض الجزيئات ترتب الجزيئات الأخرى ، بدلاً من العكس . وهذه الجزيئات أصبحت تمتلك ذكاءً بينها الجزيئات الأخرى ليس كذلك . ويتضح أن النظرية تقول بأن الذكاء انبثق قبل الحياة . يا للعجب !!

و (بيترسل) نجبرنا بأنه^(٣) (حالما تم تكوين الجزيئات المعقدة التي تكرر نفسها ، فانها بدأت تكوّن تجمعات غير وثيقة الارتباط مع الجزيئات الأخرى الضخمة والمعقدة) . وبطبيعة الحال فاننا لا نعلم لماذا أو كيف . ولكننا نرى

(١) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

(٣) انظر المصدر السابق، ص ٤٣ .

معرفة وذكاءً يظهران الى الوجود دون تفسير . ويضيف (بيتر رسل)
بالقول^(١) ان جزيئات أكثر فأكثر اشتركت في التجمع ، الى أن وصلت في
النهاية الى مرحلة أصبح فيها التجمع وحدة متكاملة . وبهذه الطريقة ولدت
أبسط الخلايا قبل ٣,٥ مليار سنة) . ونحن نسأل بأي طريقة ؟ أهذه
الافتراضات التي هي أبعد ما تكون عن العلمية ؟ وهل كانت هذه الجزيئات
متشابهة أم مختلفة ؟ فقد يكون كل واحد منها على شاكلته ويختلف عن
الأخرى . أين البرهان على أنها كلها كانت متشابهة ؟ ولماذا يفترض أنها كانت
متشابهة ؟ أي صدفة هذه التي جعلت المليارات من هذه الوحدات متشابهة هكذا
بكل شيء ، سواء التركيب ، أو عدد الذرات ، أو الوظيفة ، أو الطبيعة الخ ؟
يبدو أنها ، فيما لو حدثت فعلاً ، اقرب لأن تكون مصممة من قبل صانع على
أن تكون صدفة . وحتى بتقدم العلم والتكنولوجيا الحديثة فاننا غير قادرين على
صنع تركيب ميت ، وليس حياً ، كتلك الوحدات المعقدة .

و (كيم مارشال) تؤكد^(٢) انه بالتأكيد كانت هناك قوى مدمرة على
الأرض البدائية) ، ثم تسأل (ولكن ما هي القوى التي كان بإمكانها أن
تستخرج الحياة من ذلك الحساء الكيميائي ؟) .

أما (سمث) فانه متحفظ حول الموضوع ، ويجب بحذر ، فيقول^(٣) كل
المفاهيم حول « الحساء البدائي » والذي خرجت منه الحياة تتفق على انه احتوى
ليس فقط على السكر الخاص ، والحوامض الأمينية ، والمواد الأخرى التي هي
الآن ضرورية للمفاعلات الكيميائية - احيائية ولكن أيضاً جزيئات أخرى كثيرة
والتي هي الآن ليست أكثر من تحف مختبرية . ولذا كان من الضروري بالنسبة

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٢) انظر المصدر ٧ ، ص ٣٢ .

(٣) انظر المصدر ٦ ، ص ١١ .

للمصدر المؤسس أن يكون ذا انتقاء بالغ الدقة منذ البداية). وهنا فان (سمث) يتفوه بها أخيراً كضرورة « مقدرة المصدر المؤسس وذكائه ». ان هذا صحيح ولا جدال فيه لأن الانتقاء معناه التمييز ، والتمييز هو أحد خصائص العقل المفكر. لذا فان المصدر المؤسس كان عالي الذكاء لأنه كان دقيق الانتقاء . وهذا يقودنا الى القول بأن صانعاً عاقلاً جعل الأشياء تحدث فيما لو كانت قد حدثت كما يقولون فعلاً . و (سمث) يستمر بالقول^(١) (كان عليه أن يتحمل جهداً ضخماً لا يطاق من الجزئيات الصغيرة التي كانت بايولوجياً « خطأ » ولكنها كيميائياً ممكنة . ومن هذه الخلفية كان على المصدر المؤسس أن يستخرج تلك الجزئيات التي ستكون في النهاية البحر الاحادي المعياري المصنّع روتينياً لكل البوليمرات الاحيائية ، وكان عليه أن يربطها بطريقة يُعتمد عليها ، وبشكل خاص) . وهذا هو اعتراف صريح وواضح لذكاء المصدر المؤسس ، والذي نسميه الله تعالى . والقصة التي قرأناها تتضمن احتواء نوع من المعلومات والمعرفة . وسوف نأتي الى هذه النقطة بشيء من التفصيل في الفصل القادم ، ولكننا سنستمر هنا مع نظريات قصة الحياة لكي نستكشف ونستفد كلياً الافتراضات غير المنطقية التي يطرحها علينا التطوريون ، ونبرهن بما لا يقبل الشك أن النظرية ليس لها ما يبررها على الاطلاق .

من الواضح أن النظرية السابقة قادت أصحابها الى نهاية مسدودة لأنها أوصلتهم الى ضرورة وجود المؤسس العاقل ، واذن كان هناك تخطيط عاقل ، أي كانت توجد حياة وعقل قبل خلق الكائنات الحية على الأرض ، وهو الله تعالى . وهذا معناه وجود الصانع ، فاذن ليست هناك ضرورة للأخذ بنظرية التطور . ولذا فان نظرية أخرى يجب أن تُقترح لتحل محلها وتبرر المعتقد . (كيم مارشال) تجربنا عن نظرية أخرى لكيفية نشوء الحياة ، فتقول^(٢) (احدى

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١ .

(٢) انظر المصدر ٧، ص ٣٢ .

أحدث النظريات تقول أن شواطئ الطين على حافات المحيطات لعبت دوراً مهماً في تكوين الخلايا الأولى . وبالنسبة لهذه النظرية ، فإن ماء المحيطات الحسائي المملوء بالدقائق الكيماوية كان ينجرف على شواطئ الطين بواسطة المد المتصاعد . وعند الجزر يترك بعض الماء فيتبخر تحت الشمس تاركاً الدقائق الكيماوية على الطين الكرات الدقيقة التي تنجرف من الطين كانت تمثل الرزومات الصغيرة للجزئيات العملاقة للملائمة للخلايا الحية . والعلماء يسمونها الخلايا الأصلية ، والذي معناه انها كانت قريبة لأن تكون خلايا حية ، ولكن كانت تنقصها بعض المقومات الجوهرية) . ويبدو أنه ليس هناك جديد في هذه النظرية فيما يخص انبثاق الحياة ، ونفس الانتقاد الذي وُجّه الى النظرية السابقة يمكن أن يُوجّه الى هذه النظرية . ولكن قد نتساءل ، بما ان المحيطات لا زالت موجودة ، والشواطئ لا زالت موجودة أيضاً ، لم لا نرى انبثاق الحياة باستمرار ؟ لماذا حدثت ولادة الحياة في الماضي فقط ثم توقفت بعد ذلك ؟ يبدو أن علماء التطور تملكهم فكرة (وقد يكون دون وعي منهم) تقول أن الظروف الملائمة لتحويل المادة الى حياة سادت في الماضي فقط ، وليس الآن ، دون أن يعطوا أي سبب لهذا الاعتقاد . (و كيم مارشال) تستمر بالقول^(١) كيف وصلت هذه الخلايا الأصلية الى النقطة التي استطاعت فيها أن تنمو وتتكاثر ؟ يعتقد العلماء انه ولمدة سنين طويلة سيج عدد لا يحصى من الخلايا الأولية في البحار متحدة مع بعضها البعض ومع مواد كيميائية أخرى) . وهنا فان الكلام لا زال عن كيمياء المادة الميتة . ثم تستمر فتقول^(٢) (اولئك اللاتي امتلكن الغلاف الأقوى تماسكُن مع بعضهن البعض ، بينما أولئك اللاتي امتلكن غلافاً ضعيفاً تحظمن بواسطة الأمواج أو بواسطة أشعة الشمس فوق البنفسجية الكثيرة) . لاحظ التناقض بين هذا الرأي الذي يقول أن أشعة الشمس دمرت

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٣ .

الدقائق الكيميائية الأولى (رأي) (سمث) الذي قال أن الأشعة أنتجت جزيئات عضوية . وعلى أي حال ، فان (كيم مارشال) تتكلم عن نفس المركبات الكيميائية المتزنة وغير المتزنة التي تكلم عنها (بيتر رسل) ولكن بتعابير مختلفة باستعمال مصطلح الغلاف . وبطبيعة الحال ، فانها لا تعطي أسباباً لكيفية أو لماذا تكوّن الغلاف ، الذي يتألف من ملايين الذرات ، لحماية المكونات الداخلية للدقائق الكيميائية من الخروج والانتشار الى المحيط ، ولماذا كان بعضها قوياً والبعض الآخر ضعيفاً .

وتستمر (مارشال) بالقول^(١) بعض هذه الدقائق الناجية امتصت مواد كيميائية خلال غلافها وبنّت جزيئات أكبر في داخلها . وهذه الخهلايا الاولى كانت تمتلك طريقة بدائية « للأكل » الكيميائية من الماء الذي حولها) . اذن ، وكما يبدو ، أن الأكل قد بدأ قبل الحياة في هذه النظرية بخلاف النظرية الاولى التي نصت على أن الذكاء جاء أولاً ، وسوف نرى كمية المعلومات التي تحتاجها الخلية لكي تتمكن من التغذية في الفصل القادم ، ولكن يبدو أن (مارشال) تقول أن الأكل جاء أولاً وليس الحياة . واذا فرضنا أن هذا صحيح فعندئذ من حقنا أن نتوقع الكائنات الميتة تتغذى . ولكننا لا نعتقد أن عاقلاً يجرؤ على القول أنه شاهد كائناً ميتاً يأكل . وعلى أي حال ، فان النظرية لا تجربنا فيما اذا كانت الكيميائية المأكولة مواد عضوية مشابهة للخلايا الأكلة أم أنها كانت مواد لاعلى التعيين . ذلك لأن الحالة الثانية تعني أن الخلايا الاولى حولت المادة الى مادة عضوية ، وهذا شيء لا تذكره النظرية لأنه قضية حساسة ، فالكائنات الحية وحدها هي التي تحول المادة اللاعضوية الى مواد عضوية . أما الحالة الاولى فانها تعني أن الخلايا الاولى كان باستطاعتها التمييز بين المواد العضوية والمواد اللاعضوية . وهذه عملية تحتاج الى ذكاء ، وهو من خصائص الكائنات الحية أيضاً . ونحن نتساءل فيما اذا كان أولئك العلماء الذين وضعوا هذه النظرية

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

واعين على هذه التعقيدات التي تتضمنها نظريتهم أم لا !! ويتضح أن هذه الأفكار تخرج من العلماء بسبب اليأس والحرج الذي ينتابهم ، ولكن ذلك لا يجعل هذه الأفكار صحيحة .

وتستمر (مارشال) بإخبارنا عن كيفية بداية التكاثر بعد الأكل ، فتقول^(١) (ولكن عندما نمت الى حجوم اكبر ، فان اغلفتها لم تستطع التوسع أكثر ولذا فقد انفجرت معظمها وتحطمت . ولكن بعضاً من الخلايا الاولى صادف وان امتلكت غللاً من نوع مختلف . وعندما كبرت الى نقطة معينة لم تنفجر ، ولكنها انقسمت الى خلايا أولى أصغر . . . وهذه الخلايا المنقسمة بقيت وتكاثرت تدريجياً) . ولكن النظرية لا تبين كيف حدث الانقسام . هل كان الانقسام الى نسخ متشابهة أم الى اشكال مختلفة وغير مترابطة ؟ وهل أن الخلايا الأولى الصغيرة التي جاءت نتيجة للانقسام امتلكت غللاً قوياً أيضاً ؟ وهل استمرت في عملية الأكل والانقسام ؟ هكذا وبدون دوافع ؟ أم أنها كانت تعرف ماذا تفعل ؟ واذا كانت على علم بواجبها ، كيف أتها المعرفة ومن أين ؟ وهل جاءت المعرفة قبل الحياة ؟ أم كانت هناك قوة عاقلة تخطط وتعمل ؟ وعلى أي حال أين البرهان الذي يثبت أن بعض الخلايا امتلكت غللاً أقوى من غيرها . ليس هنالك أي برهان على أي شيء . والقصة كلها من نسج الخيال . وتستمر (مارشال) بالقول^(٢) (وعلى مر السنين ، أصبحت بعض الخلايا الأصلية أكبر وأكثر تعقيداً) بدون سبب طبعاً . وهذه القفزة من خلايا صغيرة الى خلايا اكبر واكثر تعقيداً بدون الانقسام هذه المرة، ثم تقول (ويعتقد العلماء أنه قبل حوالي ٣,٥ مليار سنة ، كانت هناك خلية واحدة على الأقل استطاعت أن تمتص مواداً كيميائية من الماء ، وكبرت ، و ثم انشطرت الى نسختين مطابقتين للخلية

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق، ص ٣٣ .

الأصلية . وكل واحدة من هذه بدأت « تأكل » وتنمو حتى انشطرت هي الأخرى) . وطبعاً ليس هناك من سبب أو تبرير . وحتى لو فرضنا أن الخلية الأولى انشطرت الى نسختين مطابقتين للأصل ليس هناك برهان علمي يثبت أن هذه النسخ استمرت بعملية النمو والانشطار الى نسخ أخرى مطابقة لها . فالقضيتان لا تتبع احدهما الأخرى ، والافتراضات تمثل قفزات كبيرة نوعاً ما ، وهناك كثير منها . وعلى سبيل المثال ، دعنا ننظر الى هذه الطفرة ، (مارشال) تقول^(١) وهذه كانت الخلايا الحية الأولى . وكل واحدة استلمت رسالة كاملة من « امها » - كُل ، انمو ، انقسم ، وانقل هذه الرسالة الى الامام) . ومرة اخرى هناك افتراضات كثيرة ، واحتمالات كثيرة ، وقفزات كثيرة ، فالافتراض الأول وهو أن الخلية الأولى امتصت مواد كيميائية ، وهو ليس بالضرورة ما حدث . الافتراض الثاني أن الخلايا الأولى نمت . الافتراض الثالث أنها انشطرت الى نسخ متشابهة ، الافتراض الرابع أن هذه النسخ بدأت تفعل ما كانت تفعله الخلية الأم ، الافتراض الخامس أنها نقلت الرسالة الى الامام للجيل القادم والتي بحد ذاتها قفزة كبيرة كما سنرى . ويبدو أن الخلية الأم صاغت الرسالة « كل ، انمو ، انشطرت ، وانقل هذه الرسالة الى الامام » ثم اعطتها الى الخلية النسل . ولكن كيف استطاعت الخلية الأم أن تصوغ هذه الرسالة ؟ ولأي سبب ؟ وماذا عن المعلومات المعقدة التي تطلبها العملية والنظام المعقد الذي اخترعته للقيام بالمهمة ؟ ليس هناك جواب لأي من هذه الأسئلة يمكن مشاهدته في النظرية .

وعلى كل حال ، دعنا نرى كيف يحدث سوء الفهم . (مارشال) تقول^(٢) ان العملية الأساسية للنمو بواسطة الانشطار الى اثنين (وتسمى الانقسام الفتيلي) والتي عثرت عليها الخلايا الأولى القديمة صدفة قبل ملايين

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٤ .

السنين لا زالت تستعمل من قبل كل أشكال الحياة في يومنا هذا) . ولكن هل القصة هكذا فعلاً أم أنها على عكس ذلك ؟ أليس الاستنتاج ، معكوساً في الحقيقة ؟ أليس الواقع هو أن العلماء لاحظوا أن اشكال الحياة الحاضرة تستعمل عملية الانشطار للتكاثر فقادهم ذلك الى القول ان اشكال الحياة الاولى استعملت مبدأ الانشطار أيضاً لأنه ليس هناك عملية للتكاثر أبسط من الانشطار ؟ وما فعله علماء التطور هو ليس تفسير ما حدث ولكنهم مجرد عكسوا الملاحظات التي لاحظوها الآن ثم زعموا أن هذا ما حدث في الماضي ، وطبعاً بدون برهان علمي من أي نوع . وهذا شيء محزن للعلم ، وهو ليس علمياً على الاطلاق . أين التجارب العلمية التي تثبت هذه الادعاءات ؟ وماذا حدث للعلم عندما وصل إلى هذه القضية ؟ لماذا تحول الى ما يشبه التنجيم ؟ فالعلماء يلاحظون ما يحدث في الخلايا الحية الآن ثم يزعمون أنه ما حدث للخلايا الاولى . وكان عليهم أن يجربونا ماذا حدث عندئذ والذي يدلنا على ما يحدث الآن . أن عكس قابلية الانشطار التي لاحظوها في الخلايا الحية الحاضرة لا يمكن قبوله كتبرير منطقي . وهو اعتقاد خاطيء لا يمكن قبوله فلسفياً .

وعلى أي حال ، (مارشال) تعود الى مشكلة المعرفة ، ولكن بدون أن تكون واعية على أهمية موضوع نظرية المعرفة الذي سوف نناقشه في الفصل القادم ، فتقول^(١) « كل خلية حية احتوت الرسالة « كل ، اتمو ، انشطر ، وانقل هذه الرسالة الى امام » . ولكن كيف استطاعت هذه الخلايا أن تفهم الرسالة ؟) . نعم كيف ؟ فالفهم نوع من الذكاء فكيف انبثق الى الوجود ؟ وبطبيعة الحال فانها لا تجيبنا على هذا السؤال المهم ، ولكنها نجبرنا عما وجد العلماء في الخلايا الحية الحاضرة^(٢) فتقول (في عام ١٩٥٣ ، حل أربعة من العلماء الغموض) . كلا ، انهم في الواقع لم يحلوا الغموض عن الكيفية التي

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦ .

أصبحت فيها الخلية قادرة على فهم الرسائل ، وهو الذي تقصده (مارشال) . وكل الذي فعلوه هو انهم اكتشفوا كيف تستطيع الخلية الحية الحاضرة أن تفهم الرسائل . وهذا يختلف عن القول أن العلماء اكتشفوا كيف فهمت الخلية الأولى الرسائل . وعلى كل حال ، أنها تقول أن هؤلاء العلماء^(١) فهموا تركيب الجزيئات العملاقة المسماة DNA « وهي مختصر لحمض ديوكسيريبونواتي Deoxyribonucleic » ، والتي تحتوي على رسائل الخلية وقد اكتشفوا أن جزيئات الـ DNA ، تشبه في مظهرها حبل السلم ، والتي سموها اللولب المزدوج) اذن فان ذكاء الخلية يكمن في الـ DNA ، وهو عقل الخلية . وفي الواقع فانه حاسبة صغيرة جداً . وكيفية عمله معقد جداً ، ولذا سوف لن ندخل في تفاصيله وما تجربنا به مارشال يكفي ، فهي تقول^(٢) (ان « حبل » و « خطوات » الـ DNA كما قالوا « أي العلماء الأربعة » مصنوعة من أربعة أنواع من العناصر الأساسية للنويات مربوطة مع بعضها البعض بطريقة خاصة تستطيع أن تحمل الرسائل الرمزية للحياة . الـ DNA موجود في وسط جميع الخلايا الحية . ويعمل كذاكرة ومركز سيطرة للنمو والتكاثر . وكل « خطوة » في السلم المفتول عبارة عن « كلمة » رمزية من البيانات تخبر الخلية عن كيفية بناء نفسها خطوة فخطوة ، ومتى تنشطر الى اثنين) . وأنه لو اوضح أن برنامج الـ DNA معقد الى حد يصعب معه تصوره . ولكن مَنْ كتب هذا البرنامج ؟ وهل من الممكن أن يكون قد أتى بنفسه ؟ ومن هو الذي يعطي الأوامر في هذا البرنامج ؟ ومن هو الذي ينفذ هذه الأوامر ؟ وبطبيعة الحال فاننا هنا نتكلم عن أوامر صارمة ومحددة ، وعن نظام معقد يتضمن تخطيطاً ويحتوي على أجزاء مختلفة وظيفياً وفسولوجياً . فبعضها يعطي الأوامر والبعض الآخر ينفذ . وكلاهما ، بطبيعة الحال ، يحتاج الى ذكاء لأداء

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٦ .

وظيفته سواء اصدار الأوامر أو فهمها وتنفيذها . و (مارشال) تقول^(١) (وهذه القابلية الرائعة على الانقسام الى حبلين متشابهين وبناء المقدرة هي الأساس لكل أنواع الحياة على الأرض ولولا الـ DNA لما استطاعت الخلايا ان تتكاثر). نعم ان هذا صحيح ولكن ماذا يعني الـ DNA بحد ذاته ؟ لا شك أنه يعني ذكاء ، ومعرفة . . . أليس كذلك ؟ اذن فان الحياة هي ذكاء ومعرفة ، وليس مجرد أكوام من المواد العضوية . وهنا تصل النظرية الى نهاية مسدودة كسابقتها . فالخلية الأولى احتاجت الى معرفة . ولذا يجب ايجاد طريقة ما لتبرير النظرية والأفكار التي تتضمنها . ولكن كيف ؟ بطبيعة الحال ليس هناك طريق آخر غير عكس الملاحظات التي يمكن مشاهدتها في الكائنات الحية ، بالضبط كعكس خاصية الانشطار التي مرت سابقاً . و (مارشال) تقول^(٢) (لقد كان صورة أبسط من DNA اليوم ، ذلك الذي أعطى الخلايا الحية الأولى القابلية على الانشطار ونقل الرسالة الى امام قبل حوالي ٣,٥ مليار سنة ، وابتدأ قصة الحياة المدهشة) . يا له من علم هزيل ، فخيال العلماء وتصورهم لم يذهب خطوة واحدة أبعد من الـ DNA . فبقيت عقولهم محدودة بتقنيته ولم يستطيعوا تصور تقنية أخرى لأداء نفس الوظيفة . لذا فكل ما كان باستطاعتهم أن يقترحوا للخلية الأولى هو DNA أي أنه ليس أكثر من ملاحظات لاحظوها على الخلية الحية الحاضرة. ولكي يكون اقتراحهم مختلفاً عن الواقع الحاضر نوعاً ما قالوا انه كان DNA أبسط ، ولكن السؤال هو : ما هي درجة البساطة التي يتكلمون عنها ؟ وكيف كان الـ DNA الأول ؟ ما هو تشريحه ؟ وكيف أتى الى الخلية ؟ وكيف فرض نفسه كعقل يعطي الأوامر الى الأجزاء الأخرى ؟ وكيف استطاع اقناع هذه الأجزاء أن تطيع أوامره وتنفذها ؟ وهذه الأجزاء أيضاً احتاجت الى ذكاء وقابلية لفهم الأوامر وتنفيذها . فنحن هنا نتكلم عن نظام متعدد الأجزاء .

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٨ .

ولكن لا جواب يأتي من العلماء على أي من هذه الأسئلة . ونحن نتوقع أن يجبرنا العلماء عن آلية بدائية تشكلت في الخلية البدائية ، ذلك لأن الـ DNA ، مهما كان بسيطاً ، فهو معقد جداً ويمتلك ذكاءً مفرطاً ، ولا يمكن تصوره انه انبثق هكذا من عند ذاته . ان ظهور الـ DNA بحد ذاته قفزة لا تُضاهى ، وهي تحويل المادة الميتة الى مادة حية . انه الحياة نفسها . فاما أن تكون أولاً تكون ، وهو الموضوع بأكمله . ولكن يبدو أن العلماء لا يقفون عند هذه القضية بالكفاية التي تستحقها لكي يقوموا بالتمحيص المطلوب . وقد يكون سبب ذلك أنهم يستعملون اسلوب عكس الملاحظات .

ولكي تتكون عندنا فكرة عن تعقيد الخلية الحية ، ننظر الى ما يقوله (بيتر رسل)^(١) ان ملايين الجزيئات العملاقة التي تكوّن الخلية الحية هي نفسها منظمة على شكل عُضَيَّات (وهي اجزاء الخلية) . والتي هي بدورها منظمة بطرق خاصة ، وتبادل الفعل مع بعضها البعض بأوقات محددة ولغايات محدّدة ، والتي الآن فقط بدأ علماء الأحياء يفهمونها وتعمل العناصر بطرق تساعد بعضها بعضاً بصورة متبادلة وتلقائية . ولذا فهناك أقل ما يمكن من التعارض الذاتي بينها ، ان لم يكن هذا التعارض معدوماً) . وواضح من هذا أن النظام هو من أعقد الأنظمة الموجودة على الأرض وأكثرها دقة ، والذي لا يمكن تفسيره بشروح بسيطة مبتورة الأوصار كتلك التي يقدمها لنا التطوريون .

و (مارشال) تلتفت بعد هذا الى نقطة مهمة عندما تقول^(٢) (لقد عاشت الخلايا الحية الأولى حياة ملؤها المخاطر ، وأنها لأعجوبة ان أيّاً منها بقي) . ولكن بما أنها بقيت ، فان التطورين لا بد وأن يجدا مخرجاً . وهذا يشبه قصة المسيح (ع) ، فلأنه لا أب له لا بد وأنه ابن الله . ولكن ماذا عن آدم ، كيف

(٣) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٧ و ص ١١٠ .

(١) انظر المصدر ٧ ، ص ٣٨ .

جاء هو الآخر بدون والدَيْن ؟ ولماذا هو ليس ابن الله ؟ وإذا كان الله قادراً على خلق آدم بدون أم وأب الا يستطيع أن يخلق عيسى من أم فقط ؟ ويبدو أن التطوريين ورثوا هذا المفهوم من خلفياتهم . « شيئاً لا بد وأن يكون قد حدث لتلك الخلايا مما جعلها تعيش وتبقى » . هكذا يقولون ، بدلاً من التخلي عن النظرية والتفكير بوجهة نظر أخرى مختلفة عنها كلياً . وتستمر النظرية بالقول أن بعض هذه الخلايا تحولت الى خلايا مفترسة وبدأت تأكل خلايا أخرى ، ولذا فقد بدأ الانتخاب الطبيعي . وبطبيعة الحال ، عندما تصل القصة الى هذه النقطة فإن ما تبقى ليس صعب التوقيع ، حيث أن الحياة قد بدأت . ولكن ليس هناك سبب يعطيه العلماء لتحول هذه الخلايا الى خلايا مفترسة . وقد تكون فكرة أخرى مقبسة من الطبيعة . فالحيوانات المفترسة موجودة . وعلى أي حال فإن القصة تبقى نظرية ، أو مقترحاً ، بدون أي اثبات علمي من أي نوع كان . وأغرب ما في النظرية هو أنها تفترض أن الخلايا الحية الأولى كانت تعيش في ثاني أوكسيد الكربون ، بينما كان الأوكسجين سماً قاتلاً لها . ولكن عندما بدأ الأوكسجين يملأ المحيط الجوي ، تتبدل القصة لتقول أن الخلايا بدأت تتغذى على الأوكسجين (الذي كان سماً قاتلاً في البداية) وتطرح ثاني أوكسيد الكربون (الذي كان الغاز الذي تعيش عليه الخلية ، والآن هو سم قاتل) . وهذا الانعكاس المدهش شيء لا بد من الوقوف عنده ، وطرح بعض الأسئلة : كيف يتحول السم الى غذاء ؟ ولماذا يصبح ثاني أوكسيد الكاربون سماً ، وقد كان غذاءً ؟ لماذا لم يبقى غير مؤذ على الأقل ؟ أليس هو تطوراً ؟ ولماذا تغذت الخلية على الأوكسجين وليس النتروجين ؟ وكيف يمكن تفسير هذه الفجوة ، أو بالأحرى القفزة المدهشة ، والتي حولت الغذاء الى سم والسم الى غذاء ؟ على أنه يمكن القول بكل تأكيد أن الخلية احتاجت الى كمية كبيرة جداً من المعلومات لكي تحتضن تغييراً كهذا ، لأنه لا يمكن لأي تغير أن يحدث بدون معلومات ومعرفة . وجدير بالذكر هنا أنه كان على الخلية ، ولكي تبدأ بالتغذي على

الأوكسجين ، أن تخترع عملية التمثيل الضوئي ، وهي عملية معقدة جداً وتتطلب نظاماً دقيقاً ، فكيف جاء هذا النظام الى الوجود هكذا من نفسه ؟ وما هي كمية ونوعية المعلومات التي تطلبها والتي كان على الخلية امتلاكها ؟ وبطبيعة الحال ، ومرة اخرى ، فان العلماء لا يذكرون ذلك وليس هناك من تفسير له في أي مكان من النظرية . وبناء النظرية يمكن تصوره كمن يريد أن يبني داراً فيرمي الطابون والسمنت وقضبان الفولاذ والشبائيك والأبواب والماء . الخ على قطعة من الأرض ، ثم يرتبها بعضها فوق بعض ويتوقعها أن تربط نفسها على شكل دار تلقائياً . وليس هناك أي ذكر للهندسة التي تتطلبها هذه العملية ولا لرجال البناء . ان الذي نريد توضيحه هنا هو انه لا يبدو ان احداً من هؤلاء الذين يؤمنون بالتطور مكثرت بالمعلومات والذكاء الذي تتطلبه التغيرات التي حصلت على المادة لكي تتحول الى خلية . وهذه نقطة مهمة جداً لم تتطرق لها نظرية التطور ، وقد اختار العلماء أن يهملوها .

والسؤال هو كم من المعلومات احتاجت الخلية لكي تصبح حية ؟ وكم احتاجت من الذكاء ؟ .

ويجب ان نتذكر أن الخلية الحية ليست مجرد مجموعة من الجزيئات ، فهذه الجزيئات يجب أن ترتب بنظام خاص عالي التعقيد . وليس هذا فقط ، فالخلية الميتة تمتلك نفس النظام المعقد الذي تمتلكه الخلية الحية ، ولكنها مع ذلك ميتة . ولذا هناك عنصر آخر ضروري للحياة ، هو جريان الطاقة والمعلومات خلال أجزاء هذا النظام بالاضافة الى الترتيب المعقد له . و (بيتر رسل) يؤكد هذه الحقيقة بالقول^(١) (والقضية الحاسمة بالنسبة للتعقيد هو جريان المادة والطاقة والمعلومات بين المركبات العديدة والأنظمة الفرعية وفقط عندما تصبح الطاقة منظمة بطريقة خاصة تبرز ميزات المادة وتُظهر نفسها ، وفقط عندما تصبح

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٩ - ٦١ .

عدة وحدات من المادة متجمعة على شكل نظام بطريقة معينة يبرز الوعي ويُظهر نفسه وكل كائن حي من الاسشربشيا القولونية الى الحوت الأزرق ، عبارة عن تجمع عالي التنظيم من المادة والطاقة . وبمرور الزمن ، فان الأنظمة الحية المستقلة ، ليس فقط تحافظ على درجة عالية من التنظيم الداخلي لها ، ولكنها تبني هذا التنظيم أثناء نموها وتطورها أيضاً .

وعلى أي حال ، سوف ننظر الى هذه النقطة في الفصل القادم لمحاولة الحصول على جواب لهذا السؤال وتمحيص احتمال حدوثه ، لتحديد ما اذا كان قد حدث فعلاً . أما هنا ، فيمكن القول أن ما اقترحتة النظريات يمكن اختصاره كما يلي :

الظروف كانت مناسبة

الخلايا انبثقت .

الخلايا تطورت .

استنتاج

لقد أجرينا تحقيقاً في نظريات الخليقة السائدة التي تفترض أن الحياة كانت قد انبثقت على شكل خلية ، فتوصلنا الى نتيجة تشير الى أن هذه النظريات ليست سوى تخمين لا يستند على أي برهان أو دليل علمي . وتتوفر عدة آراء حول الموضوع ، ولكن ليس هناك اتفاق بين العلماء حول أي منها . والنظريات الموجودة هي رآء لأشخاص ليس الا . وقد بينت التجارب زيف هذه الاعتقادات ، أو على الأقل عدم ضرورة صحتها . كما أنها لا تستند على أسس فلسفية مقبولة ، وتخللها قفزات لا يمكن تفسير حدوثها . وبذلك فان النظريات غير متسقة أو مترابطة .

الفصل الخامس

المعلومات التي احتاجتها الخلية الحية الأولى :

المعرفة التي احتاجتها الخلية :

سوف نعتبر جدلاً أن الخلية الأولى انبثقت من المادة كما تصفها النظرية الدارونية لظروف خاصة وبطريقة الصدفة ، ثم ننظر الى مقدار المعلومات التي احتاجتها هذه الخلية لكي تعيش وتتطور . ولما كانت هذه الخلية قد انبثقت نتيجة تحول المادة الى الخلية الحية ، فلا بد وأن هذه المادة امتلكت شيئاً جديداً لم تملكه قبل تحولها الى الخلية الحية . كما أن هذا الشيء لا بد وأن يكون زيادة نحو الأحسن والأرقى ، وهو الحياة . أي أن المادة امتلكت الحياة التي هي أرقى وأصبحت خلية حية . (وهذا استنتاج يتفق مع نظرية التطور نحو الأرقى على فرض قبولها . فالزيادة هي الحياة) .

ولكن ما معنى الحياة ؟ انها قابلية الخلية على الحركة والتغذي والتنفس والنمو والتكاثر الخ . وهذه القابلية معرفة ، والمعرفة ذكاء . أي أن الخلية الحية أكثر ذكاء من المادة فهي تسخر المادة لرغبتها . وهذا الادراك لأمكانية تسخير المادة ، والقيام بهذا التسخير فعلاً ، وهذا الاحساس بالرغبة للقيام بذلك ،

كلها نوع من الذكاء والمعرفة حصلت عليها الخلية الحية لحظة انبثاقها . أي أنها ولدت معها . فالخلية لم تكن مجرد ذرات تجمعت عشوائياً ولكنها كانت تجمعاً لهذه الذرات بتركيب دقيق ونظام يتكون من عدة اجزاء ، كل جزء له وظيفته ، وحياته ، وذكاؤه ، والخلية وحدة متكاملة ، وعالم بحد ذاته ، وذو شأن يجلب اللب في وجوده . يقول (ج . ليذ يارذستينز)^(١) (ولدرجة كبيرة ، فان الأشياء الحية مدينة في طبيعتها الى الطريقة التي تنتظم فيها المكونات بأنماط مرتبة ، والتي هي أكثر استقراراً من المواد نفسها) . و (بيير تايلهارد دي شاردين) يقول^(٢) (لقد كُتبت مجلدات عن الخلية ، ولا تكفي مكتبات بأكملها لاحتواء الملاحظات الدقيقة التي تخص تركيبها ، ووظائف البروتوبلازما والنواة والطريقة التي تنشطر فيها وعلاقتها بالوراثة . ومع ذلك ، فانها بنفسها ، لا زالت كتاباً مغلقاً ، ولا زالت مبهمة كما كانت دائماً . وتبدو ، وكأنها ، حالما نصل الى عمق معين في تفسيرنا ، نجد أنفسنا محتزّلين الى رسم علامات الزمن أمام حصن لا يمكن اختراقه) . وكل هذا بسبب الحياة الموجودة في الخلية . فالصعوبة والاعجاب سببها هذه الحياة التي هي بأبسط أشكالها عبارة عن نوع من الذكاء الذي مكن الخلية من الاستمرار في الحياة والتكاثر والتطور ، وهي شروط ثلاثة لا بد من توفرها اذا كانت الخلية الحية قد تطورت الى الانسان .

ونود أن نشير هنا الى ان الافتراض الذي تطرحه نظريات التطور من أن التغذية أو التكاثر (بواسطة الانشطار) حدثت قبل أن تصبح الخلية حية لا يمكن قبوله مهما كانت الخلايا بدائية ، وذلك لأن التغذية والتكاثر من خصائص الكائن الحي ، وليس العكس . أي أن الخلية يجب أن تكون حية لكي تكون عندها القابلية على التغذية والتكاثر ، لا أن تتغذى وتتكاثر ثم تصبح حية . فالتغذية والتكاثر عمليات منظمة بدقة فائقة وتتحكم فيها قوانين دقيقة تتطلب

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٢) انظر المصدر ١٩ ، ص ٧٤ .

نوعاً من الذكاء مهما كان هذا الذكاء بسيطاً . وبطبيعة الحال فان الذكاء لا يمكن أن يوجد بدون حياة ، فهو أحد خصائص الأشياء التي توصف على أنها حية .

الاستمرار في الحياة :

الخلية الأولى استمرت بالحياة ، ولو لم تستمر لما تطورت الى الكائنات الحية الموجودة على الأرض (على حد زعم نظرية التطور) . والسؤال هنا ما هي المعرفة التي احتجتها هذه الخلية لكي تستمر في الحياة وتتفادى الموت ، والتي مكنتها من التغذية والتنفس الخ ؟ الجواب على ذلك يصبح واضحاً بعد تمحيص النقاط التالية :

أ - الغذاء :

لكي تتمكن الخلية من أخذ الغذاء فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

- ان الغذاء هو سر ديمومة الحياة وهو الوسيلة الوحيدة لاستمرار الحياة ولا يمكن الاستمرار بدونه .

- انها يجب أن تتناوله ، وفي الأوقات المناسبة ، أي الشعور بالجوع .

- ان ما يحيط بها من مواد بعضها غذاء نافع وبعضها سام ومضر ، أو على الأقل ليس مفيداً .

- عليها أن تميز أي المواد نافعة وأياها ضارة .

- كيفية الاستفادة من الغذاء الذي تأخذه ، أي الاحتياج الى نظام للتغذية .

- ان عملية التغذية تنتج فضلات سامة وعليها أن تطرح هذه الفضلات ،

وأن عدم طرحها يؤدي الى الهلاك والموت .

- كيفية طرح هذه الفضلات ، أي ايجاد نظام لطرح الفضلات .

ب - التنفس :

لكي تتمكن الخلية من التنفس ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

- ان الأوكسجين ضروري للحياة ، ولا تستمر الحياة بدونه . وإذا فرضنا أن الخلية تبديلت من التغذي على الكاربون الى التغذي على الأوكسجين (حيث أن نظرية التطور تذكر ذلك كأحد الاحتمالات) فان ذلك معناه أن الخلية قررت أن تبدل طريقة حياتها كلياً .

- ان الأوكسجين غاز وطريقة تناوله تختلف عن طريقة تناول الغذاء .

- لذا كان على الخلية ايجاد نظام لتناول الأوكسجين ، وهو نظام التنفس .

- ان هناك غازات أخرى في المحيط وعليها أن تفرق بين كل واحد منها لكي تعرف من هو الأوكسجين فتأخذه .

- ان الغازات الأخرى غير مفيدة لعملية التنفس فلا تأخذها وبدلاً من ذلك تطرحها مع الفضلات . كما أن ثاني أكسيد الكاربون المتولد من عملية التنفس سام ومضر ويسبب الاختناق والموت ولذا عليها أن تطرحه الى الخارج .

- كيفية ايجاد نظام للاستفادة من الأوكسجين مع الغذاء ، أي عملية الاحتراق الداخلي .

ج - الضوء :

- لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الضوء ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

- الضوء موجود ومهم للحياة .

- كمية الضوء الضرورية للحياة .

- كيفية استلام الضوء والاستفادة منه . أي نظام التمثيل الضوئي .

د- الحرارة :

لكي تتمكن الخلية من الاستفادة من الحرارة ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

- الحرارة الزائدة عن حاجتها تقتلها .
- الحرارة القليلة لا تكفي والبرد الشديد يقتلها .
- تجنب الحرارة الفائضة والبرد الشديد مفضل لاستمرار الحياة وعليها أن تفعل ذلك .

النمو والتكاثر :

لكي تتمكن الخلية من النمو والتكاثر ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :

- انها ولدت لتبقى .
- التكاثر هو الطريقة الوحيدة للاستمرار .
- التكاثر هو أفضل الطرق للتطور .
- انها ستموت يوماً ما وهذا الموت معناه فناء الحياة فيها .
- كيفية التكاثر .
- عليها أن توصي الخلية النسل بجميع ما تحمله من علم ومعرفة وقدرة مع جميع الأسباب الضرورية لهذه المعرفة . وعليها أن توصي الخلية النسل أن توصي من بعدها من النسل بهذه المعلومات .
- أفضل الطرق لنقل المعلومات الى الأجيال القادمة هي الوراثة .
- امتلاك (او ايجاد) نظام الوراثة .
- لكي يتم التكاثر يجب أن تنمو أولاً لكي تنشط الى خليتين متساويتين في كل شيء .

التطور :

- لكي تتمكن الخلية من التطور ، فانها تحتاج أن تمتلك المعلومات التالية :
- انها ولدت ليس لتبقى فقط وإنما لكي تتطور ايضاً الى كائن حي أكثر تطوراً وتعقيداً ، فالغاية لم تكتمل بايجاد الخلية . وعليها أن تتطور وإذا لم تتطور فانها سوف تحطم جميع الآمال التي علقتها عليها المادة .
 - لذا كان عليها امتلاك قابلية التطور .
 - يجب أن تنقل هذه الخاصية الى النسل الجديد .
 - ان التطور يأخذ وقتاً طويلاً ، لذا عليها أن توجد ظاهرة الطفرة الوراثية لتقصير زمن التطور .

معارف منظمة ومعقدة :

فما تقدم تعرفنا على بعض المعارف الأساسية التي كان على الخلية الجديدة أن تمتلكها ، على أن هذه ليست جميع العلوم الضرورية التي كان على الخلية معرفتها . ومنها يتضح أن الخلية كان عليها أن تحتوي على معلومات كثيرة ويمتهدى الدقة والتعقيد لكي تستمر وتتكاثر وتتطور ، والا فانها سوف لن يكتب لها البقاء . ويمكن ملاحظة ما يلي على هذه المعارف :

١ - معارف معقدة :

ان عملية التغذية وعملية الحركة هما في الحقيقة تحويل المادة الى طاقة وهذه العملية تحتاج الى معارف معقدة وعميقة . فامكانية تحويل المادة الى طاقة تحكمها قوانين في منتهى التعقيد ، وقد اكتشف الانسان هذه الامكانية حديثاً بعد تقدم العلم ونظريات الرياضيات والفيزياء (بحيث أن فهم هذه النظريات يصعب على الانسان العادي) ، وبعد اختراع الأجهزة المتطورة المستعملة في

التجربة . ولكن الخلية الأولى عرفت كل ذلك وعملت به . كما أن عملية التنفس عملية كيميائية معقدة ، وقد عرفت الخلية وعملت بها .

٢ - معارف غيبية أو مسبقة :

أ - اختارت الخلية طريق التكاثر لادخال أكثر ما يمكن من المادة الميتة الى الخلية الحية ، وللاستمرار بالحياة . وسواءً كان هذا الطريق هو الطريق الوحيد لانجاز ما تصبوا اليه أم لا ، فلا بد وأنها توصلت اليه باعتباره أفضل الطرق تمشياً مع فكرة التطور نحو الأحسن، أي أن الخلية عرفت أن هذا هو أفضل الطرق . هذه المعرفة لا بد وأن تكون قد أتت عن أحد طريقين . الأول أن الخلية (أو المادة) أجرت عمليات حسابية معقدة عن مختلف الطرق وتوصلت الى أن أفضلها هو طريق التكاثر . وهذا يتضمن معرفة معقدة جداً وعميقة لجميع الاحتمالات الأخرى ، وأن اخلية (أو المادة) لم تحتاج للتجربة لمعرفة الطريق الأفضل ، بل توصلت اليه عن طريق نظري ، أي ميتافيزيقي . وهذا بحد ذاته تناقض مع المادية .

الاحتمال الثاني أن هذه المعرفة أتت عن طريق غيبي مجهول .

ب - اختارت الخلية طريق التكاثر لاستخدامه في التطور ، حيث أنها قررت أن أفضل الطرق لإحداث الطفرات والتطور يجب أن يكون عن طريق النسل الجديد وليس عن طريق إحداث التطور في الخلية الأم . ولا بد أن الخلية (أو المادة) . وبعد حسابات معقدة ، توصلت الى أن إحداث الطفرات في النسل الجديد أفضل من تطوير الخلية الأم ، أو أنها توصلت الى عدم امكانية تطوير الخلية الأم فالتجته هذا الاتجاه للتكاثر . وتجب الملاحظة هنا أن الأم لو لم تكن تعرف ذلك لحاولت تطوير نفسها لا أن تموت ويتطور النسل الجديد .

ج - اختيار الخلية طريق التغذية والتنفس واجراء عملية الاحتراق الداخلي لا بد وأن يكون على علم مسبق بأن الأوكسجين هو العنصر الوحيد الذي

بالامكان استخدامه حيث أنه العنصر الوحيد الذي يساعد على الاحتراق . وإلا لماذا اختارت الخلية الأوكسجين ولم تختار الغازات الأخرى بالرغم من توفرها في الجو ، وأحياناً بنسبة أكبر من نسبة الأوكسجين ، كغاز النتروجين مثلاً .

د - الخلية تطورت الى نباتات وحيوانات . والحيوانات أرقى من النباتات على سلم التطور . من ذلك نستنتج أن الحيوان هو الغاية المنشودة من عملية التطور اذا كان التطور فعلاً يهدف الى أنواع عليا من الأحياء كما تزعم النظرية . ويلاحظ أنه بوجود الحيوان والنبات معاً فقط يستطيع الحيوان أن يعيش . فالحيوانات في النهاية تعيش على النباتات ، لأنه حتى الحيوانات المفترسة تعيش على الحيوانات التي تتغذى على النباتات . ووظيفة النباتات هي استعمال ضوء الشمس لتحويل مكونات الأرض الى غذاء (على شكل مواد عضوية) والحفاظ على نسبي الأوكسجين وثاني اوكسيد الكربون ثابتين بالقيمتين الضروريتين لادامة الحياة .

ولما كان الحيوان هو الأرقى الذي تنشده المادة من مشروعها العظيم ، فلا بد وأنها (أي المادة) اتخذت القرار بتطوير خط مائل من الكائنات الحية ، وهو النبات ، لا لانه الغاية المنشودة ولكن لكي يخدم الكائن المتطور المنشود وهو الحيوان ، الذي تطور بعدئذ الى الانسان ، ويوفر له الظروف الأفضل . أي كان على جزء من الخلايا أن تتطور الى الحيوان باعتباره الأرقى وهو الخط الأصل الذي أرادته المادة في تطورها نحو الأرقى . وكان على الجزء الآخر من الخلايا أن يتطور الى نبات لا لشيء سوى لخدمة الحيوان . وهذا علم مسبق وتخطيط دقيق يحتاج الى قوة ذكية جداً لتدبيره .

ولما كان الانسان هو الكائن الوحيد الذي تطور فأصبح أرقى الحيوانات ، فلا بد وأنه هو الكائن المنشود الذي وُجِدَت الطبيعة بأكملها لخدمته . ولو لم تكن هذه هي الحالة لكان هناك أكثر من كائن حي متطور لتأمين وجود الاحتياط

فيما اذا انقضى أحدهما ، ولكي يستمر مشروع الحياة العظيم ولا ينقطع بعد وصوله الى هذا الحد المتطور أو يجابه نكسة كبيرة مثل الرجوع الى مستوى اوطأ من الكائنات الحية ثم الصعود مرة أخرى .

ان تطور الانسان وحده ليكون أفضل الكائنات ظاهرة تلفت الانتباه ، حيث يبدو أن الطبيعة قد صُنِعَتْ (بواسطة التطور أو غيره) لخدمة الانسان . و(برتراند رسل) يشير الى ملاحظة مهمة في هذا الصدد ، متكلماً عن تأكيد الأديان السماوية بأن الله صنع الطبيعة لخدمة الانسان فهو ، وبعد تمحيص الموضوع ، يقول^(١) (حقاً تبدو غاية الله من خلق الكون تخص الانسان بصورة رئيسية) .

الحقيقة الخافية :

عندما نتأمل في المعلومات التي كان من الضروري أن تمتلكها الخلية عند انبثاقها (اذا كانت قد انبثقت فعلاً) نجدها نفس المعلومات الأساسية الموجودة في خلية الكائن الحي الموجود في عصرنا . وسبب ذلك هو أن أي خلية يجب أن تمتلك معلومات كهذه لكي تكون حية مهما كان نوع الخلية ووظيفتها . وهذا يقودنا الى الاستنتاج بأن الخلية الاولى لم تكن مجرد خلية بسيطة أو بدائية تحركت ولذا أصبحت حية ، بل انها احتوت في نفس الوقت على معلومات كثيرة وفي منتهى التعقيد . وهذه الحقيقة غفل عنها دارون ويغفل عنها التطوريون .

الحادث اذن لم يكن مجرد صدفة واحدة ، أو صدفة عادية ، بل انه (وعلى فرض القول انها صدفة) كان مجموعة كبيرة من الصدوف اجتمعت في آن واحد وبترتيب في منتهى الدقة وبالمقادير اللازمة لانتاج شيء محدد ، بلا زيادة ولا نقصان ، لا في العدد ولا النوعية ولا الترتيب . فان كانت هذه صدفة حقاً فانها بلا ريب صدفة غريبة ، وأغرب من الخيال ولا تتفق مع أي قانون عقلي ، أو أي

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٢٣ .

قانون آخر في الكون . لان العقل انما يعتمد على المنطق في استنتاج الأسباب والمسببات للعلل ، والمنطق لا يقبل وقوع هذه الصدفة الكثيرة العدد ، والمتناهية في التعقيد . ولكن هناك بعض الناس يعتقدون فعلاً أن هذه الصدفة حدثت بهذا الأسلوب الغريب ، والأغرب منه أنهم يعتبرونها علمية ومنطقية . ولو تصورنا أن هؤلاء الناس يجدون حجراً على الطريق ويسألون عن الذي وضعه هناك ، وكان الجواب انه جاء بنفسه بطريقة الصدفة كما اثبتت الخلية بطريقة الصدفة (ولو أنها صدفة أقل تعقيداً) فهل سيصدقون ذلك ؟ بل حتى لو أنهم رأوا الحجر يتحرك بنفسه الى الطريق لظنوا أن عيونهم تخدعهم . لماذا ؟ الجواب بسيط ويكمن في أن قوانين العقل البشري لا تقبل هراءاً كهذا . ولكن العجيب في الأمر أن نفس هؤلاء الناس يصدقون هراءاً أكبر من القول بأن وجود الحجر في الطريق صدفة ، اذ أنهم يصدقون اجتماع كل تلك الصدفة الكثيرة لانتاج الخلية بالرغم من عدم رؤيتهم لها ، وبالرغم من عدم قيام البرهان القطعي على ذلك .

ما الذي يجعل الناس يصدقون هذا ؟ وأكثر من ذلك يعتقدونه حقيقة علمية ؟

نحن نعتقد أن السبب هو ثقة الناس بمن يعتقدون أنهم ذو علم ومعرفة ، وتأثرهم بالوسط الذي يعيشون فيه ، اضافة الى جهلهم في أمور كثيرة والذي يجعلهم يصدقون ويعتقدون بما يظهر لهم وكأنه حجة منطقية . المشكلة أن هناك أفكار كثيرة تبدو منطقية ، ولكنها مبنية على أسس ونقاط انطلاق خاطئة ولكن الناس لا يبحثون عن أصل الأشياء أو أسس الأفكار . فهذه عملية تحتاج الى وقت وجهود ، ومعظم الناس لا يزعجون أنفسهم بها ، ويمكننا أن نلاحظ أنه ليس من الصعب بناء فكرة تبدو منطقية ولكنها تستند على قاعدة غير منطقية ، اذ قد يكون الافتراض الأول غير مقبول كما نرى ذلك مع الماركسية . وفي قضايا المحاكم يحاول المحاكم أن يجمع أكثر ما يمكن من المعلومات حول القضية التي

ينظر فيها لكي يكون حكمه مستنداً على أساس قوي . وإذا لم يجمع المعلومات الكافية فقد لا يكون حكمه صحيحاً ، لأن معلومات قليلة اضافية قد تعكس قرار الحكم اذا توفرت .

وذلك الذي يعتقد بصدفة خلق الخلية ، وبنفس الوقت لا يعتقد بصدفة وجود الحجر في الطريق ، يناقض نفسه بكل تأكيد . اذ لو كان اجتماع كل تلك الصدوف لانتاج الخلية ممكناً ، فما المانع من أن يكون الحجر موجوداً صدفة أيضاً ؟ إما أن نقبل الاثنين معاً ، وهنا سوف يحدث خلل لا يمكن اصلاحه لأننا في هذه الحالة سوف لن يمكننا أن نقبل ، أو نستعمل أو نعتمد على قوانين الاستقراء والبرهان العقلي ، وأي شيء يصبح بالامكان اعزاؤه الى الصدفة ، وعندئذ تنهار نظرية المعرفة بأكملها . أو أن نرفض الاثنين معاً ، وفي هذه الحالة سوف لن يخل أي توازن ونستطيع أن نستعمل الأسس العقلية في البرهان والاستنتاج والاستقراء والمنطق بنفس الطريقة التي أوصلتنا الى جميع أنواع المعرفة .

أما اذا أصر التطوريون على رأيهم فعليهم في هذه الحالة أن يفسروا لنا كيف اجتمعت كل تلك الصدوف بهذا الترتيب المتناهي في العظمة والدقة لانتاج أعظم حدث في وجودنا ، وهو الحياة والعقل . وليس مقبولاً أن يستمروا بتحسين صفات أنواع من النباتات ، والحيوانات وبلقونها كبرهان على التطور ، ثم يربطونها بطريقة ما ليوحوا بأن الخلية انبثقت بالطريقة التي يزعمونها .

العقل المدبر :

ان نظرة بسيطة الى المعارف المعقدة والمعارف الغيبية أو المسبقة الأنفة الذكر والتركييب المعقد لمكونات الخلية ونظامها المتطور يدلنا على أن هناك عقلاً واعياً ومدبراً بمنتهى الحكمة والذكاء وراء تلك العلوم والمعارف . فلورأينا برنامجاً للحاسبة الالكترونية يؤدي وظيفة معينة أو يحل معادلة رياضية معقدة

لُبهرنا بعظمة الانتاج ولعرفنا أن كاتب البرنامج انسان ذكي . ولو قارنا برنامجاً كهذا بالبرنامج الموجود في الخلية والذي يَمكّننا من أداء وظائفها لظهر البرنامج الأول تافهاً بالنسبة له . فاذا قلنا أن كاتب برنامج الحاسبة انسان عاقل وذكي ، واذا قلنا باستحالة وجود ذلك البرنامج لوحده بطريقة الصدفة ، فمن الطبيعي اذن أن نقول باستحالة وجود برنامج الخلية لوحده بطريقة الصدفة . ومن الطبيعي ان نعتقد ان كاتب هذا البرنامج عاقل وذكي أيضاً ، لأننا لا يمكننا ان نصور أن المادة الجامدة الميتة بإمكانها أن تفعل ذلك كله ، فنحن لا نجد فيها الذكاء والتخطيط المطلوبين لعملية دفع الكائنات الحية في اتجاه خاص ولغاية أو نهاية معينة .

استنتاج :

لقد فرضنا أن الحياة ظهرت على الأرض على شكل خلية كما تقول نظرية التطور ، فتوصلنا الى أن هذه العملية ، فيما لو كانت قد حدثت فعلاً فانها لا يمكن أن تكون صدفة . ذلك لانها لم تكن صدفة واحدة ولكن عدداً لا نهائياً (تقريباً) من الصدف التي اجتمعت في نفس الوقت بنظام دقيق مبرمج ومتطور للوصول الى غاية محددة (هي الخلية الحية) . وقد وجدنا أن هناك تخطيطاً وعلماً غيبياً ، كان قد ساهم في تعبيد الطريق لهذا المشروع الضخم .

واذا فرضنا أن الحدث كان صدفة فان ذلك يقودنا الى نكران بديهيات العقل وقوانينه ، والتي بدورها تقود الى انهيار نظرية المعرفة بأكملها .

اذن فالحدث (فيما لو كان قد وقع) ليس صدفة وإنما مخطط له من قبل عقل واع وفي منتهى الحكمة والذكاء ، وهو الخالق . وهذا يناقض النظرة المادية ، وبنفس الوقت فانه برهان على وجود الخالق .

ان استحالة وقوع تلك الصدفة تقودنا الى قبول افتراض أن الله خلق الأشياء كلها ، وقد يكون الخلق ليس على شكل خلية تطورت كما يزعمون ،

خاصة وأنهم ليس لديهم برهان مقبول وقطعي على صحة هذا الافتراض .

الفصل السادس

التطور ونقده

التصورات المهيمنة على فكرة التطور :

تنقسم الكائنات الحية بموجب نظرية التطور الى كائنات أدنى وكائنات عليا . الكائنات الأدنى صغيرة الحجم وأقل تعقيداً عادة أما الكائنات العليا فانها اكبر حجماً وأكثر تعقيداً ، الا أن تعقيد الكائن الحي كنظام يحمل أهمية أكبر من حجمه .

وهناك فكرتان كانتا تسيطران على تفكير دارون ولا زال نفوذهما يؤثر على علماء التطور لحد الآن ، وهما :

- ان الكائنات الحية تتكون من أجناس دنيا وأخرى عليا .

- ان الأجناس العليا تطورت من الأجناس الدنيا .

وهتان الفكرتان مصدرهما ملاحظات وآما (دارون) وزعم أن الكائن الحي ضمن أي جنس يعاني من تغير مستمر ، وأن هذا التغير ترثه الأجيال اللاحقة ، وأن كل الكائنات الحية تنتج اجيالاً جديدة اكثر مما يبقى (من هذه

الأجيال) . (كودمان) يقول ان دارون^(١) (علل بأن النسل الجديد الذي تغيراته تلائم البيئة بصورة أفضل هو الذي يُتَّخَب طبيعياً للبقاء والتناسل . وقد زعم دارون أن نتيجة هذه العملية التي استمرت للمليارات من السنين هي التقدم الحتمي من أشكال الحياة البدائية القديمة الى أشكال الحياة الحديثة المعقدة ، تاركة في أثرها مجموعة هائلة من الأجناس المنقرضة) . وكانت ملاحظات (دارون) مبنية على التشابه بين الأجناس فقط وليس التشابه والاختلاف كلاهما معاً .

وتتملك العلماء الفكرة القائلة أنه بما أننا نرى تغيرات بطيئة حولنا ، فإن التغير هو الشيء المهيمن على الوجود ولذا فإن الحياة في تغير أيضاً ، ويتبع ذلك أن التطور حاصل . ولكننا لا نرى ذلك كلياً . فالتغير قد يحصل ، الا أنه بالتأكيد لا يعني أن التطور يحصل أيضاً ، لأن التطور ليس أي تغير كان ، ولكنه تغير من نوع خاص . فهو تغير كامل للجنس على مر الزمن .

وكان من بين الأدلة المهمة التي استعملت للبرهان على وقوع التطور اكتشاف متحجرات الكائنات المنقرضة . وقد استنتج العلماء انه إذا كانت بعض الأجناس قد انقرضت فلا بد وأن اجناساً جديدة ظهرت ، وأخرى في ظهور مستمر . ولكن هذا الاستنتاج لا يعتمد على سند قوي . فبعض الأجناس القديمة قد تكون انقرضت ليس لأنها أصبحت غير قادرة على مقاومة البيئة ، ولكن ربما بسبب الأمراض أو التغيرات الجيولوجية . وقد بينت الأدلة الحديثة ان انقراض الأجناس القديمة يمكن اعزائه الى أسباب خارجية وليس الانتخاب الطبيعي . فالكائنات الحية الصغيرة ، الأقل تطوراً ، كالفيروسات والجراثيم ، بإمكانها أن تقضي كلياً على أجناس أكثر تطوراً منها اذا توفرت لها الظروف للانتشار على شكل وباء . فالسل ، على سبيل المثال ، كان يقتل ملايين الناس

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٣ .

في الماضي حتى وجد الطب الأدوية الملائمة لمعالجته . وتوجد بعض الجراثيم القوية التي اذا دخلت جرثومة واحدة منها الجسم فانها تكفي للتكاثر وقتل الانسان مهما كان ذلك الانسان قوياً ، ومرض الايدز (فقدان اكتساب المناعة) مثال صارخ على ذلك في وقتنا الحاضر . فأين التطور؟ وليس بعيداً أن تكون الجراثيم قد قضت على أجناس بأكملها في الماضي ، وليس هناك ما يفند هذا الاحتمال .

وقد تمخضت عن فكرة التطور مشكلات ومجادلات فلسفية كثيرة ، وبذّر الانسان جهوداً ضخمة يصارع هذه المشاكل لأكثر من قرن من الزمان . وأخيراً بدأت فكرة الانتخاب الطبيعي التي طرحها (دارون) تنهار مع الأدلة الحديثة . (روث مور) تشير الى ان^(١) كل واحد من هذه المجموعات (أي مجموعات الأجناس) تختلف عن كل المجموعات الأخرى . وهناك لا استمرارية ، وفجوة بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول ، مستشهداً بأقوال بعض العلماء،^(٢) (ليس هناك أدلة للتدرج بالنسبة لأي صنف من البشر أو القروء . . . فكل جنس اختفى وهو بنفس الحياة التي كان عليها عند الأصل . - (ستيفن كولد ونايلز الدرج المتحجرات ، ١٩٧٧) .

بين علماء المتحجرات ، هناك علماء يدرسون سجلات المتحجرات ، وهناك انشقاق متزايد عن رأي دارون الذي ما زال سائداً . - (جيمس كورمان « السلحفاة أو الأرنب البري » في الاكتشاف ، تشرين الأول ١٩٨٠) .

ويستطرد كودمان فيقول :

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٤٨ .

ليس هناك أدلة تذكر بأن أجناس الانسان القديم أو الأجناس التي قبله عانت من تغيرات تطورية خلال حياتها . ويظهر أن شبه - القرد الاسترالي ، والانسان القديم ، وانسان النياندرتال كانت على نفس هيتها على طول عمرها) . وبعد هذا نسأل : هل ان هناك تطوراً قد حدث فعلاً ؟ أم أن الكائنات تتكيف للبيئة فقط ؟ و (كودمان) يقول^(١) ان الجيولوجي لويس اكايز ، وهو أحد الأصوات المؤثرة في المنشأة العلمية الأمريكية ، وصَم النظرية بأنها خطأ علمي وغير صحيحة في حقائقها وغير علمية في طريقتها وخادعة في مقصدها فليس هناك أدلة على ارتقاء الأجناس الحديثة من الأجناس القديمة) . وحتى (برتراند رسل) الذي كان يؤمن بالتطور لم يستطع قبول النظرية بدون انتقاد ، فهو يقول^(٢) (أن التطورية^(*)) ، وبالرغم من اشارتها الى بعض الحقائق العلمية ، فانها تفشل في أن تكون فلسفة علمية حقيقية بسبب عبوديتها للزمن ، وانشغالها الأخلاقية المسبقة ، واهتمامها الغالب بمشاغلنا الأرضية وقَدَرنا) . ويتضح أن المشكلة تكمن في المهاجس الذي يملك بعض العلماء بأن الحديث تَطَوَّر من القديم . ولكن أين الدليل ؟ ان دليلهم على ذلك هو التشابه الموجود بين الأجناس الحية . ولكن دعنا نفترض أن عقلاً ذكياً خلق هذه الأجناس وصاغها بمستويات بحيث أنها تختلف بعضها عن بعض بالتدرج بينما تبقى القضايا الأخرى متشابهة ، فما هو الخطأ أو اللامنطق في هذا الافتراض ؟ وفي الواقع فانه ليس من الضروري أن تكون الأجناس مختلفة بعضها عن بعض كثيراً على أي حال ، وليس من الضروري أن يجعلها الخالق مختلفة . فلكي توجد الكائنات الحية على حالتها الحاضرة كان من الضروري أن يتغذى بعضها على بعض ، وأخيراً بعضها يتغذى على التربة . ولذا توجد

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٢٦ ، ص ٣٠ .

(*) اي فكرة نظرية التطور .

النباتات والحيوانات والانسان . وكل واحد منها مصنع يصنع الغذاء للآخر في دورة كاملة . واذا افترضنا أسلوباً آخر للتغذية فانه سيكون بمثابة افتراض ظاهرة أخرى جديدة للحياة تختلف عما هو موجود الآن ، وهذه مسألة أخرى تماماً .

وتمتلك جميع الكائنات الحية ذكاءاً من نوع معين ، وهذا الذكاء ضروري لادامة حياتها . والانسان يمتلك العقل المبدع . ولما كانت الكائنات الحية تنتقل من مكان الى آخر على سطح الأرض (بضمنها النباتات التي تنتقل بذورها بواسطة الهواء أو الطيور والحيوانات الأخرى) فمن الضروري لها أن تمتلك قابلية التكيف لظروف البيئة التي تختلف من منطقة الى أخرى على الأرض ، كما أنه ليس من الضروري للأجناس الحية المنفردة أن تبقى موجودة ولكن توازن الحياة الكلي هو المهم والذي يجب أن يبقى . لذا فان التوازن بين الكائنات الحية يجب يكون السائد ، وهكذا فهي خلقت بحيث أن بعضها غذاء لبعض في دورة كاملة ، بضمنها الانسان الذي يصبح غذاءاً لمخلوقات أخرى بعد الموت . ولكن هذه النظرية لتفسير الوجود لا يقبلها المفكرون العلمانيون لأنها تطرح أسئلة كثيرة أجوبتها غير ممكنة أحياناً الا بواسطة شيء خارق للطبيعة (كرسالة سماوية) . وبالنسبة للمفكر الأوربي فان المعتقدات الكنسية عاجزة تماماً عن اعطاء أي جواب مقبول . لذا فان الأوربي يصطدم مرة أخرى بنفس المشاكل القديمة المستعصية .

وسوف نرجع الى هذا الموضوع في الفصول القادمة لاعطاء الأجوبة على اسئلة كهذه . أما الآن فاننا سنبقى مع التطور ونظرياته لكي نستكشف المشكلات التي تعاني منها هذه النظريات بصورة أعمق .

ادلة التطور وتمجيد الأفراد :

يصور لنا علماء التطور ان هناك أدلة علمية كافية لاثبات نظرية التطور .
فما هي هذه الأدلة ؟ وأين هي ؟

وللجواب على ذلك يقول (كودمان)^(١) (ان المدافعين عن دارون أصزروا على أن الأدلة التي تسند نظريته تنتظر مدفونة في السجلات الجيولوجية ، وان « الحلقات المفقودة » بين الأجناس لا بد وأنها ستكتشف بواسطة البحوث والتنقيبات الاضافية) . ولكن ما لم يعيه هؤلاء الناس هو أنه حتى في حالة اكتشاف العظام والمتحجرات فليس هناك من دليل على أنها تطورت بعضها من بعض ، والعظام وحدها ليست كافية لكي تحكي لنا الحكاية بأكملها . و(رُوث مُور) تذكر الدكتور (واشبورن) بأنه يقول^(٢) (والى حد معين فان الوظيفة لا تنعكس في العظام . ولا يمكنك حل هذا اللغز بالنظر الى العظام فقط ، ذلك لان الجواب ليس هناك . فالجواب يوجد في الكيفية التي بواسطتها أدى الانسان أو الحيوان وظيفته) . وهذا يضع كل ما يسمى بأدلة التطور والاستنتاجات المعتمدة عليها في شك حقيقي . وتستطر (رُوث) بالقول أنه بعد تجارب عديدة على الجرذان^(٣) ولدهشته المستمرة ، فان واشبورن وجد أن الاختلاف كان قليلاً لا يذكر مهما صُنِعَ بالعظام . فبعض العظام كانت تنمو مرة أخرى كما كانت عليه . وفي النهاية ، فان ازالة أقسام كبيرة لم يسبب اختلافات تذكر على الحيوان) . وتستمر بالاشارة الى أن (واشبورن) يقول^(٤) (بدأنا بدراسة العظام والعضلات . وعند الانتهاء كنا قد وصلنا الى القرار بأن العظام كانت نسبياً غير مهمة ما دامت موجودة ، وأن العضلات كانت غاية في الأهمية) . وإذا ، وبالرغم من أن الأدلة ليست في العظام فان العلماء استمروا بصياغة استنتاجاتهم اعتماداً عليها . وسبب ذلك أنه لم يكن لديهم الخيار ، فالعظام وحدها تبقى ولا تتآكل أما العضلات فانها تتآكل . وعلى كل حال ، هناك مشكلة أخرى في

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٦ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

(٤) انظر المصدر السابق ، ص ٤٠٩ .

العظام يشير إليها (سميث) بالقول (١) انه ذلك السجل للمتحجرات الذي يبين فقرات زمنية طويلة فيها قليل من التغيرات ، أو لا تغيرات ، تطويرية أصلاً وتخللها فترات عاجلة(*) من التغيرات . . . والمشكلة المستمرة الوجود في علم الأحياء التطوري كانت غياب المتحجرات الوسطية . فالتحولات التدريجية الطويلة الأمد للسلاسل المفردة من الأجناس نادرة ، وبصورة عامة فانها تتضمن زيادات بسيطة في الحجم أو تأثيرات بيئية ووراثية تافهة . وبصورة نموذجية يتكون السجل من سلالات أسلاف - أجيال متتالية ثابتة من ناحية الهياكل خلال الزمن وغير مربوطة بأجيال وسطية) . وهذه كانت مشكلة حقيقية لم تستطع نظرية (دارون) أن تعطي تفسيراً لها . وواضح أنه في حالة وجود الفجوة الزمنية الطويلة فان الحلقة المفقودة التي تربط بين الجنسين على جانبي الفجوة لم يمكن اكتشافها . وهنا فان هناك احتمالين . الأول هو عدم ترك أي متحجرات لتلك الحلقات المفقودة (وهو غريب جداً) . والثاني أن تلك الحلقات المفقودة (المزعومة) لم تكن موجودة أصلاً . وليس هناك من سبيل في معرفة أيهما الصحيح . ولذا فان الحل يجب أن يُفترض ، وبذلك فانه يعتمد على الرأي الشخصي وليس الحقائق . وهذه كانت هي المشكلة مع التطور منذ البداية - الآراء الشخصية . ويخبرنا (كودمان) باستشهاده بفقرة من « الحلقات المفقودة » للكاتب (جون ريدر) انه(٢) خلال دراسة متحجرات الانسان ، كانت العناصر المترابطة للتفسير ونظرية الادراك مرتبطة بقوة بشخصية العالم المقترح وقابليته على الاقتناع دائماً . لذا فقد هيمن الأفراد الطموحين على هذا العلم الذي تقدم بقوة الجدل بقدر ما تقدم بقوة الدليل) .

ولكن في حالات كثيرة ، حتى تلك الآراء كانت قد اتخذت بحماس وعلى

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢٦ و ١٦٣ .

(*) المقصود قصيرة .

(٢) انظر المصدر ١٠ ، ص ٨٥ .

عجل ، وبدون دليل كافي أو دراسة كافية . و (ل . س . ب . ليكي) يقول (٢) «وأراؤنا تُتخذ بواسطة تقديرات سريعة ، وغالباً لا واعية ، لمدى واسع من الخصائص التي تجتمع مع بعضها لتكوين صورة لجنس من نوع معين . وهنا فإن التفسير الشخصي لقيمة الدليل الموجود أمام الاختصاصي يلعب دوراً كبيراً لا محال ، ولذا فإننا نجد مرات ومرات أن المتحجرات البشرية وبقايا الكائنات التي أذن من البشر تصنف كأجناس لنوع واحد بواسطة بعض العلماء ، أو تصنف على أنها تمتلك مراتب جينية معينة أو متميزة . ان الحقيقة المجردة بأن شيئين «سواءً كانا مجتمعين أو سنين أو قطعيتين من الخشب» يمتلكان نفس الطول والعرض والارتفاع لا يعني أنها يمتلكان نفس الشكل أو انها متشابهان من ناحية الهيئة . ان المسألة بعيدة كل البعد عن ذلك . . . وان دراسة تطور الانسان لا زالت في مرحلة الطفولة . لأنه ، وبصورة رئيسية ، فان أدلة المتحجرات المتوفرة لحد الآن والتي يمكن الاعتماد عليها لوضع استنتاجات مقبولة كانت دائماً نادرة نوعاً ما) . وبعد كل هذا فانه لمن العجيب أن نرى بعض الناس ذوي العقول العلمية يصرون على اعتبار التطور كحقيقة وواقع . وعلى أي حال فان علماء التطور أنفسهم في خلاف شديد حول الموضوع . و (رُوث مُور) تقول (٣) (لقد كان من الصعب جداً أن نكون متأكدين . ولما لم تكن هناك ثقة في معظم الحالات ، فقد ظهرت اختلافات جديدة في الآراء حول عمر كل متحجرات الانسان أو متحجرات قريبي - الانسان المهمة تقريباً) . و (دورثي هنشوبينتت) تؤكد على (٤) (وجود اختلافات كثيرة بين علماء التطور أنفسهم حول الأهمية النسبية للعوامل المختلفة التي تؤثر في مسار التطور ، سواءً في الماضي او الحاضر) . و (اندري كايوكس) يحلل نظريات التطور المختلفة ، فيقول

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٦٠ - ١٦٣ ، ١٧١ .

(٢) انظر المصدر ، ١ ، ص ٧ .

(٣) انظر المصدر ٩ ، ص ١٢٥ .

(١) عندما نجابه هذه الآراء المختلفة اختلافاً كبيراً ، نحن نتساءل كيف أنها ظهرت . وهي تُنسب جزئياً الى الفترات الزمنية وحتى الى شخصية الاختصاصي ، كما نعتقد) . من هذا يتضح أننا قد خُدِعنا بطموحات الناس وأذواقهم واعتقاداتهم الشخصية التي تُعرض علينا على أساس أنها حقائق علمية .

والأدلة العلمية نادرة بصورة مثيرة للدهشة ، ولدهشتنا يقول (روبرت اندري) (٢) مثالان فقط لمتحجرات القروذ القديمة موجودة في أي مكان على سطح الأرض) ، وعلى هاتين المجمعتين بُنيت نظرية كاملة لتطور الانسان . و(روث مُور) تقول (٣) لا توجد النظرية في أي مكان كاملة لحد الآن) . ويتضح ان ما حدث هو أن فكرة ما قد طُرِحَت وَجَدَّتْ بعض العقول ، وسار وراءها جيش من العلماء محاولين جر اعتقادات الناس وراءهم . ولا يمتلك معظم الناس أي فكرة عن الاختلافات الواسعة والكثيرة بين العلماء أنفسهم ، وكم من الأخطاء وقعوا ولا زالوا يقعون فيها في محاولة اثبات اعتقاداتهم حول التطور وحقيقته . وحتى دارون نفسه ، الذي كان المؤسس لهذه الفكرة ، قد وُجِدَ على خطأ .

ضد التطور :

لقد خلقت الأدلة الجديدة مشكلات كثيرة لنظرية التطور وعرضتها لانتكاسات حقيقية ، وأشارت باستمرار ضد التطور . (كودمان) يقول (٤) (اليوم يتخلى كثير من العلماء عن دارون ويستبدلونه بنظرية تقترح أن الأجناس الجديدة

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٧ .

(٢) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢٤٧ .

(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٩ .

(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ .

ربما ظهرت نتيجة لطفرة نوعية كلية نحو الأمام ، والتي تفسر ظهور الانسان الفجائي بصورة أفضل) . و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى (١) اننا ربما يجب علينا أن نراجع أفكارنا بين الحين والآخر أيضاً فيما يخص مهد الانسان وأين يقع . . وأثناء كتابتي لهذا الفصل جاءت أخبار عن اكتشافات جديدة مهمة لبعض متحجرات القروود في أوروبا . . ولذا بعد ترجمة معاني هذه الأدلة الجديدة فلربما يجب علينا أن نغير أفكارنا مرة أخرى حتى ، وكما نأمل ، تصبح الصورة مكتملة كلياً يوماً ما) . ولكن هل أنهم يبحثون عن شيء قد لا يكون موجوداً على الاطلاق ؟ وهذا هو أحد الاحتمالات التي تشير اليها الأدلة الجديدة . (رُوث مُور) تقول (٢) لقد رُسمت الصورة لحلقة مفقودة وانسان بدائي . وكلاهما صوراً مخلوقات ضخمة خرقاء تشبه القروود وكانت تتحرك بخطوات ثقيلة غير منتظمة بسيقان منحنية ورؤوس مندفعة الى الامام . ولكن العظام الحقيقية ، عندما اكتُشفت ، حطمت هذه الصورة . فالتحجرات بينت ان الانسان - القرد كان يمشي كالانسان الحديث ويمتلك جسماً منتصباً كجسم الانسان الحديث قبل أن يصل دماغه الى حجم دماغ الانسان لفترة طويلة) . ولذا فانها تؤكد (٣) ان الصورة ، التي كانت مقبولة لفترة طويلة يجب تغييرها) . وهذه هي الكيفية التي يغير بها علماء التطور آرائهم باستمرار . وفي الواقع لو أننا القينا نظرة سريعة على نظريات التطور فاننا سنلاحظ تغيرات رئيسية حدثت فيها ، ولذا فقد طُرحت نظريات جديدة لتصحيح النظريات السابقة الخاطئة ، والتي كان الناس يعتبرونها صحيحة لفترة طويلة من الزمن . والنظريات الجديدة تتطلب افتراضات وترقيعات كثيرة قبل أن تؤخذ مأخذ الجد . و (ج . ليدارد ستبترز) يعترف (٤) (بأننا ندرس ، كحقائق تاريخية ، كثيراً من الحوادث الاحتمالية المرتبطة

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٦ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٦ .

(٤) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

بارتقائها وسقوطها . والأدلة التي يمتلكها البيولوجيون الآن حول ظهور وانقراض المجموعات الحيوانية الرئيسية خلال العهود الجيولوجية الماضية تشبه ذلك في طبيعتها ، وتحمل في طياتها نفس الدرجة العالية من الاحتمال) . ولكن ما يُغفل عنه هنا هو أن التاريخ ليس بتلك الأهمية القصوى لحياة الانسان حتى لو أخذت احتمالات خاطئة بخصوصه بينما قضية الخليقة باستطاعتها أن تغير طريقة حياتنا وأخلاقنا ومثلنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض جذرياً ، فهي باستطاعتها أن تقلبنا كلياً الى هكذا أو هكذا ، ولذا فانها ، وبكل تأكيد ، يجب أن تؤخذ بجدية حقيقية بواسطة الناس الذين يعتبرون أنفسهم علماء ومفكرين يحملون مسؤوليات تجاه المجتمع الانساني . وعلى أي حال ، فإن الموضوع بأكمله ، وكما يقول (ستينز) مجرد احتمال وليس أكيداً . وبالرغم من ذلك فانه يُعرض علينا وكأنه حقيقة علمية . الا أنه أبعد ما يكون عن العلم الذي نرغب أن نضع ثقتنا فيه .

نظريات التطور وتبريراتها ونقدها :

توجد ثلاث نظريات لتفسير التطور بصورة عامة . نظرية (لامارك) التي تعطي الدور الأساسي في التطور للبيئة . وكان لامارك عالماً فرنسياً أعلن عن نظريته قبل (دارون) بكثير (حوالي عام ١٨٠٢) . ويعتقد (لامارك) ان الأجناس تتفاعل لتغيير نفسها لغرض ملائمة البيئة أي أنها تعمل وتجهد نفسها للحصول على التغيير اللازم . ومعنى ذلك أن سبب التغيير الذي يحدث في خصائص الكائن الحي هو حاجة ذلك الكائن الحي لهذا التغيير الذي يساعده على البقاء والديمومة ، مثلاً ، أن العضلات القوية للركض تصبح جزءاً من الكائن الحي . والتغيير الجديد هذا ينتقل الى النسل الجديد لأنه (كما تزعم النظرية) يصبح جزءاً متأصلاً من الكائن . وهذه النظرية تعاني من مشكلات كثيرة وحلقات مفقودة كثيرة ، ولذا تم التخلي عنها تماماً من قبل العلماء .

ثم جاء (دارون) بعد ذلك في عام ١٨٥٩ (وكان عالماً انكليزياً) ،

فطرح نظريته التي تؤكد على الانتخاب الطبيعي كسبيل للتطور التدريجي . وهذا معناه أن الطبيعة تنتقي الكائنات الحية الأقوى والأصلح ، أي أن الظروف هي التي تقرر ، ويتم التغيير في الكائن الحي المفرد . وهذه النظرية جابهت مشكلتين . الأولى انه وُجِدَ بأن التغييرات في الكائنات الحية تحدث على شكل طفرات كبيرة وليست تدريجية . الثانية أن هذه التغييرات لم تحدث في الكائنات المفردة ، ولكن للجنس كنوع بأكمله . و (سميث) يشير الى انه ^(١)بينما التنافس هو أساس الانتخاب الطبيعي بين الكائنات الحية ، فان التنافس وحده ما كان ليعمل في الأزمان ما قبل الحياة لانتخاب المجموعات الجزيئية الأصلح ، ولذا فان أنواعاً أخرى معينة من المساعدة كانت ضرورية) . من الواضح أن المسألة يجب أن تكون هكذا لو أن الحياة كانت قد انبثقت فعلاً كما يقولون ، لأن الخلية الأولى لم يكن معها ما ينافسها . وأنها لمسألة في منتهى البساطة ولكن (دارون) ومؤيديه من العلماء لم يدركوا ذلك لفترة قرن من الزمان . لذا فان نظرية ثالثة ، تسمى نظرية الطفرات الوراثية ، ظهرت عام ١٩٥٠ . وهذه النظرية تؤكد على ظهور الخصائص الفجائية (والعشوائية) الجديدة عن طريق الصدفة كسبيل للتطور بواسطة طفرات تسببها تغييرات عشوائية في الجينات . وكانت هذه النظرية طريقاً للخروج من المأزق بعد أن وصل التطوريون الى نهاية مسدودة مع الانتخاب الطبيعي الذي اقترحه (دارون) . ولكن هذه النظرية عانت من مشكلة أيضاً ، وهي أن هذه الطفرات وحدها ليست كافية لجعل الكائن الحي يتلائم مع الظروف لأن التغييرات (ولكونها عشوائية) قد لا تنتج الأصلح دائماً . لذا فان الرأي السائد الآن هو أن هناك عاملين يؤثران معاً في تطور الكائنات الحية ، وهما الطفرات التي تولد خصائص جديدة والانتخاب الطبيعي الذي يؤدي مهمة الصقل النهائي .

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١١ .

وعن الانتخاب الطبيعي يقول (روبرت اندري) (١) ان دارون حاول أن يعطي تفسيراً للفروقات بين الأجناس على هذا الأساس وحده ، وفشله كاد يسبب انهيار النظرية بأكملها تقريباً . ولكن هناك شكلاً آخر من الصدفة الطبيعية لم تكن معروفة في زمن دارون . وهذه هي الطفرة الوراثية . . . ونظرية الطفرات الوراثية قد انقذت نظرية التطور) . وسؤالنا هو : هل أنها انقذتها فعلاً ؟ أم أنها اكثر التبريرات لا منطقية على الاطلاق لأي شيء في الوجود وليس للتطور فقط ؟ وهل أن هذه الطفرات ، أو الصدفة ، تعطي نتيجة ؟ ويجب (اندري) بالقول (٢) واحدة من مائة من هذه الطفرات بالامكان اعتبارها جيدة ، وبصورة عامة نستطيع القول أن الطفرات التسعة والتسعين الأخرى تقتل الكائن الحي لحظياً ، أو تدمر نظامه الجيني الى درجة كبيرة بحيث أن الانتخاب الطبيعي يكمل افناءه) . انه لأمر عجيب حقاً !! انها ليست الصدفة بأكملها ولكن واحد بالمائة منها فقط . يا له من انقاذ اخرق لنظرية التطور ! في الواقع انه بمثابة الاعتراف بفشل النظرية بأكملها .

(و (دي كايوكس) يشير الى أن (٣) التقسيمات الفجائية في دورة الطفرات ممكنة جداً ولكنها لم يقم البرهان عليها) . والسؤال هو : اذا كانت لم يتم اثباتها بعد ، كيف تكون ممكنة جداً اذن ؟ وبيدوان أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها استقراء ليس علمياً وأبعد ما يكون عن الحقائق .

ولكن كيف تحدث هذه الطفرات ؟

(دورثي هنشوبينتنت) تقول (٤) هناك عامل آخر بجانب الانتخاب

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ و ٢١٩ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩ .

(٣) انظر المصدر ٥ ، ص ١٣٣ .

(٤) انظر المصدر ٩ ، ص ٣٥ .

الطبيعي قد يكون مهماً جداً في تطور الأجناس . وهذا العامل يسمى الانجراف الجيني . وهو عملية عشوائية . فبعض الخصائص المعينة قد تصبح نوعاً ما متكررة في الجنس بصورة عشوائية) . لذا فانها الصدفة ، بلا قانون أو تعليمات ، وليس هناك شيء نظامي ، ولكن مع ذلك جميع الكائنات الحية تتكون من أنظمة معقدة فائقة التطور والتنظيم . ويؤكد (اندري) كذلك بالقول (١) ولكن الصدفة عامل لا يجب تجاهله في واقع العمليات الحيوية) . ونحن نقول ، ربما لا يجب تجاهل الصدفة ، ولكن جعلها القانون الذي يتحكم في الأمور ليس علمياً أيضاً . وعلى أي حال ، صدق أو لا تصدق ، فان (مونارد) يقول (٢) ان مجموعة تتكون من بضعة مليارات من الخلايا يمكن أن تتكون في مليمترات قليلة من الماء . وفي مجموعة بهذا الحجم قد يكون الفرد متأكداً أن أي طفرات ممكنة ستكون موجودة . وبذلك ، فانه في مجموعة كبيرة كهذه فان الطفرات ليست ظاهرة شاذة أبداً : انها القانون) . ولكن أين البرهان الذي يثبت أنها القانون ؟ وعلى سبيل المثال ، اذا أخذنا معدل الجريمة في امريكا بنظر الاعتبار ، وهو عالٍ جداً ، فهل باستطاعتنا أن نقول ان الجريمة في أمريكا هي القانون ؟ ان القانون يحتاج الى برهان قطعي على صحته ، وليس مسألة رأي فقط ، خاصة اذا كنا نتكلم عن الحقائق العلمية . وبالإضافة الى ذلك ، كيف ينطبق هذا القانون على الخلايا الاولى ؟ خاصة وأنه كان قد افترض ان قليلاً منها ، وربما واحدة فقط ، عاشت وتطورت ، كما رأينا سابقاً . ويبدو أنه في الوقت الذي يشيد العلماء نظرياتهم العلمية في جميع فروع العلم على أساس افتراض وجود علاقة سببية بين الحوادث المتعلقة بعضها ببعض ، وعلى أساس امتناع الصدفة ، نرى التطوريين يقترحون الصدفة على أنها القانون الذي بموجبه تسير الحياة وتتطور (بلا برهان طبعاً) . و (مونارد) يقول (٣) في الواقع أن

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٦ .

(٢) انظر المصدر ٤ ، ص ١٢٠ .

(٣) انظر المصدر ٤ ، ص ١١٨ .

الانتخاب الطبيعي يعمل على منتجات الصدفة ، ولا يمكنه أن يعمل في أي مكان آخر) . ولكنه يناقض نفسه عندما يقول (١) ولكنه يعمل في منطقة ظروف ذات متطلبات كثيرة ، ومن هذه المنطقة فان الصدفة ممنوعة . وان التطور ليس مديناً للصدفة ولكنه مدين لتلك الظروف في مساره التقدمي بصورة عامة) . وعند قراءة هذه الآراء لا نجد أنفسنا إلا في الوضع الذي نطلب فيه من (مونارد) أن يقرر فيما اذا كان التطور سببه الصدفة ام لا .

ولكن ما هي العوامل التي تؤثر على الطفرات ؟

(دورثي بيتنت) تقول (٢) وطريقة أخرى لزيادة قابلية تغير الجينات المتوفرة للانتخاب الاصطناعي بواسطة الطفرات الصناعية . فالتعرض للأشعة السينية ، أو الأشعة فوق - البنفسجية ، أو بعض المواد الكيميائية بإمكانه زيادة معدل الطفرات) . وقد جرى بعض العلماء وراء هذه الفكرة ، و (ستبنز) يشير الى ان (٣) هذا قاد بعض علماء الأحياء للاعتقاد بأن بعض هذه الطفرات الفجائية تتولد بواسطة الأشعة الطبيعية ، مثل الأشعة الكونية . ولكن عندما أجريت الحسابات ، اعتماداً على شدات (*) معروفة للأشعة الطبيعية بالمقارنة مع الشدات المطلوبة لتوليد الطفرات ، بينت النتائج أن شدة الأشعة الطبيعية واطقة الى الدرجة التي لا يمكنها أن تسبب سوى جزءاً ضئيلاً جداً من الطفرات الفجائية) . ولذا فان هذا الرأي الذي تمسك به العلماء لسنين طويلة انهار هو الآخر . ولذا فان (ستبنز) يستنتج ان (٤) اكثر التعميمات أماناً التي يمكن الاعتقاد بها في الوقت الحاضر هي القول بأن الطفرات الفجائية عبارة عن نتائج

(١) انظر المصدر السابق، ص ١١٨ .

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٠٩ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ١٩ .

(*) جمع شدة (وهي الكثافة) .

(٤) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ .

عرضية للصدفة في الأبيض(*) النواتي أو حتى الخلوي) . ومرة أخرى فان الصدفة هي المخرج الوحيد من المأزق في غياب الدليل العلمي ، وهي التبرير العلمي الوحيد لأعظم ظاهرة على وجه الأرض . ان العلم لم ير تبريراً أخرق كهذا لأي من نظرياته في أي حقل من حقوله .

و (ريشارد ليكي) يشارك الآخرين من أقرانه في هذه الفكرة الرائعة ، فيقول (١) في عملية الخلط فان الخطأ باستطاعته أن يحدث وتغير واحدة أو اثنان من التعليمات . وهذه الأخطاء تعرف بالطفرات ، وسواء كانت هذه التعليمات التي تنتجها أحسن أو اسوأ فان الموضوع يعتمد على الصدفة) . وهكذا جئنا الى الوجود ، بواسطة الخطأ ، والصدفة . والأنكى من ذلك أننا لا نعلم سواء كان الانتاج الحاصل من هذه الصدفة نحو الأفضل أو الاسوء . ولا نستطيع أن نفهم كيف تستطيع الأخطاء أن تولد أنظمة معقدة ومتطورة كتلك التي تمتلكها الكائنات الحية فما تعلمناه دائماً هو أن الخطأ شيء سيء ويجب أن نتحاشاه . وقد نتساءل لماذا لا يصبح الأفراد ملوكاً أو علماء بطريقة الخطأ . فلا ملك أصبح ملكاً بطريقة الخطأ ، ولا عالم أصبح عالماً بطريقة الخطأ . ومن حقنا أن نتصور اننا اذا كنا نتاجاً للخطأ فان الخطأ يجب أن يكون مقبولاً باعتباره نظاماً انتاجياً في حياتنا الاعتيادية ، أو على الأقل كان يجب أن لا يُنظر اليه بهذه السلبية التي نعرفها . واذا كنا نُقاد الى الاعتقاد بأننا نتاج للأخطاء كان علينا أن نكبر وننضج ونحن طبيعياً لا نعتبر الخطأ شيئاً قبيحاً . ثم لماذا لا تنتج الأخطاء اشياء مفيدة في حياتنا اليومية ؟ ويضيف (ريشارد ليكي) بالقول (٢) ولكن أحياناً يكون التغير محظوظاً والتعليمات الجديدة تقود الى التحسين) . وهكذا ، وكالآخرين ، فان هذه هي الخلاصة التي يترجم بها كيفية وصوله الى معرفة قصة الخليقة :

(*) الأبيض = الميتابولزم .

(١) انظر المصدر ٨ ، ص ٧ .

(٢) انظر المصدر ٨ ، ص ٨ .

الصدفة ، والخطأ ، والحظ . ويسموننا الحقائق العلمية ويتوقعوننا أن نقبلها . والتطوريون يقبلون وقوع هذا العدد اللامتناهي من الصدوف والأخطاء على أنها فعلاً حدثت ، ولكنهم لا يقبلون وقوع الصدفة الواحدة التي تقول أن الله هو الذي خلق الكون ، أو هو الذي مهد لهذه الكائنات أن توجد . وبالنسبة لهم فإن هذه الصدفة المنطقية ، التي لا تتناقض مع البدييات والقوانين العقلية التي سُيدت على أساسها جميع أنواع العلوم والمعرفة ، لا يمكن أن تكون قد وقعت . والسؤال هو لماذا ؟ وقد نجيب على هذا السؤال في الفصول القادمة . أما الآن فإننا سنبقى مع قصة الخليفة لكي نتحقق من الافتراضات التي على أساسها يُفسرُ نشوء الحياة . ونذكر هنا أن هذه الافتراضات هي تأملات بحثية ولم يتم البرهان العلمي على صحتها أبداً .

وكما انهارت نظريات التطور الأولى فإن نظرية الطفرات الوراثية تنهار هي الأخرى أيضاً بواسطة الأدلة العلمية ، ويجب أن يظهر تفسير آخر لانقاذ فكرة التطور . ويشير (ريشارد ليكي) متكلماً عن الطفرات بأنها ، وحتى عندما تحدث ، فإن (١)الأغلبية الساحقة من الطفرات مؤذية ولكن جزءاً صغيراً منها مفيد والطفرات نادراً ما تكون هي المصدر المباشر ، إذا كانت على الإطلاق ، للتغيرات التي تعتمد عليها التغيرات التطورية وبدلاً من ذلك فإنها تمون امدادات التغيرات لُبُرْكة الجينات التي تقل دائماً بواسطة الحذف الانتقائي للمتغيرات غير الملائمة . . . ونتيجة لذلك فإننا لا يجب أن نتوقع وجود أي علاقة بين معدل الطفرات ومعدل التطور . وليس هناك أي دليل على وجود علاقة كهذه والسبب الأساسي لتعقيد التكيف الذي تسيطر عليه الجينات هو التعقيد والطبيعة غير المباشرة للعلاقة بين الجين والخصيصة ولا يمكننا أن نتوقع أي طفرة مفردة أن تحسن المقدرة العامة للكائن الحي ولكن

(١) انظر المصدر السابق، ص ٣٠ ، ٣٢ ، ٢٥ .

فقط تكيفه لظروف بيئية معينة) . ولذا فانه من الواضح أن الأدلة العلمية الحديثة تبين أن الطفرات لا تسبب أي تطور في الكائن الحي ، ولكن هذه الطفرات التي تحدث بطريقة الصدفة (كما يزعمون) تساهم في امداد بُركة من الطفرات ، وبطريقة الصدفة فان هذه البُركة تدفع الى الامام باتجاه التطور (حسب تصوراتهم) . ولكننا سنرى عن قريب أن المسألة ليست هكذا أيضاً .

(و بلييترو) يؤكد على فشل نظرية الطفرات بالقول (١) ان العملية العشوائية الاعتيادية لآلية الجينات تميل الى انتاج اما تغيرات لا تطورية والتي يمكن اعتبارها اخطاء تعين(*) والتي هي غير تكيفية أو أنها تكون تكيفية بطريقة الصدفة) . و (دي كايوكس) يشير هو الآخر الى فشل نظرية الطفرات بالقول (٢) ان القرعة ليست كافية . ونظرية الطفرات فاشلة من ناحيتين . فتطور الأجناس لا يمكن أن يكون نتيجة للصدفة وحدها حتى لو أن الانتخاب صحح الأخطاء . ولا يمكنها أن تنتج كذلك من جهود الكائنات الحية الداخلية وحدها ، لأنه في حالة وجود الكائنات الكثيرة في أي وقت معين فانها تبذل جهداً أكثر ، لذا سيكون هناك تطور أسرع . ولكن الحالة ليست كذلك في الواقع . ولذا لا بد وأن شيئاً آخر خارج الكائن الحي لعب دوراً أيضاً) . ولذا فانه يؤكد على (٣) اننا نعرف أن الأغلبية الساحقة لهذه الطفرات رديشة . وحتى أننا نستطيع أن نرى ذلك متمثلاً في لحوم أجسامنا ، أو على الأقل في أجسام أناس آخرين . ومعظم التشوهات الخلقية هي من هذا الأصل . لذا فان تفسير التطور وتقدم الحياة خلال الأزمان بواسطة عملية تبيمن عليها التشوهات والعيوب يبدو متناقضاً . واللجوء الى الانتخاب يضائل التناقض ، ولكن هل

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٥ .

(*) تعين = فعل أخذ العينات .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ٢٠١ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

يقضي عليه ؟ ان تفسير المقطوعة الموسيقية لا يكمن في سلسلة من النوبات الخاطئة) . و (بلييترو) يذكر أيضاً انه ^(١) تحت تأثير أخطاء التعمين^(*) العشوائية ، أو المسمى « الانجراف الجيني » في هذا المجال ، فان تردد^(*) صبغية جينية معطاة قد يزداد حتى الى ١٠٠٪ ، أو يقل حتى الى الصفر . . وذلك لأنه ، وكما هو معروف الآن ، فان هذه هي العملية الوحيدة التي بواسطتها يستطيع التطور (غير الموجّه باتجاه التكيف) أن يحدث ولكن كم هي اعتيادية الحدوث وكم هي مهمة في اطار الصورة العامة للتطور ، هذان سؤالان لا زالا يقوم عليهما جدال عنيف) . اذن ، وكما قد نتساءل ، أين نقف الآن بعدما اتضح أن فرصة التطور والدمار متساوية ؟ وهذا يضع توازناً باتجاه تأكيد الثبات والسكون ، وليس التطور ، وهو ما نقوله بأن الله تعالى خلق الأشياء كما هي . وبعد كل هذا فانه ليس عجباً ان نجد العلماء في خلاف ولا يستطيعون أن يصوغوا قانوناً من التطور . ولكنهم مع ذلك يعرضون الموضوع علينا وكأنه واقع وحقيقة وفي ذلك خداع وغش لا يليق بالعلم ولا بالعلماء . ويبدو أن التطور ليس سوى معتقد يؤمن به مَنْ يؤمن ، وموضّة العصر الحديث ، وهاجس يمتلك بعض الناس الذين يتمسكون به ويحاولون تبريره بأي اسلوب كان . و (بلييترو) يجبرنا بأن ^(٢) الاتفاق الجماعي على قبول الفكرة يبدو الآن عاماً ، ولكن أهميته في المسار التطوري الطويل والتغيرات التطورية الجذرية قد حُجبت كلياً تقريباً بواسطة التأثير غير العشوائي للانتخاب) . أي أنهم يرون الطبيعة الخلاية ، ثم يفرضون التطور ، ثم يبررونه بالعشوائية ، ثم يقولون بما أن النتائج النهائي (وهو الطبيعة) موجودة فلا بد وان العشوائية تنتج اللاعشوائية (أي النظام) . ولكن أين الحقائق العلمية في هذا التفسير ؟ وأين

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٥ .

(*) تكرار حدوث .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٥ .

التجارب العلمية التي تؤكد هذه المفاهيم والاستنتاجات ؟ (بلييترو) نجبرنا باحتمالين . الأول انه^(١) (إذا كان التناسل تباينياً ، وإذا كانت هناك علاقة متبادلة بين العوامل الجينية المتميزة في الأسلاف وفي نجاحهم الأعظم النسبي في التناسل ، فسوف تكون هناك زيادة في تكرار هذه العوامل الجينية ضمن الجنس من جيل الى آخر . والتطور سوف يحدث ، وسوف يكون موجهاً وليس عشوائياً) . والاحتمال الثاني انه (إذا كان التناسل عشوائياً ، وبالاتحاد مع العملية العشوائية ذاتياً في الانقسام الاختزالي ، فلا توجد نزعة احصائية للتغير في تكرار العوامل الجينية ضمن الجنس . وبكلمة أخرى ليست هناك نزعة لحدوث التغيرات التطورية الموجهة وحتى لو أخذت الطفرات بنظر الاعتبار فان هناك نقطة توازن فيها أي طفرة معينة تُوازَن بواسطة طفرة ارجاعية وخسارة عشوائية ، وليس هناك نزعة باتجاه التغير التطوري في الجنس . لذا فان عملية الجينات العشوائية كلها لا تميل ، احصائياً ، الى انتاج التطور) . ولكن بما أنهم يؤمنون بأن التطور مسألة واقعية لا جدال فيها فانهم يفترضون أن الاحتمال الأول هو الذي يحصل . وهو ليس أكثر من افتراض مبني على معتقد مسبق وليس اكتشافاً علمياً يبين بأنه هو الذي يحدث من بين الاحتمالين . ولكننا نريد أن نجلب الانتباه الى نقطة مهمة في هذا الصدد ، وهي أنه لما كان التطوريون يؤكدون (وكما رأينا) أن عملية الطفرات الوراثية هي عملية عشوائية فاننا نميل الى افتراض حدوث الاحتمال الثاني وليس الأول . أم هل أن الصدفة والخطأ والحظ تتوقف هنا ؟

وعلى كل حال ، بسبب الظهور المفاجيء للأجناس الكاملة وبسبب ان الطفرات لا تنتج تغيرات رئيسية في الكائن الحي ، فان أحدث النظريات ترى أن التطور يحدث للجنس ككل . (و بلييترو) يشير الى ان^(٢) النهاية المهمة في

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٢) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٣ .

التطور هي قابلية تكيف الجنس ككل ، ومقدرته على الاستمرار خلال الأجيال المستقبلية ضمن بيئة معينة) . ولكن ماذا يعني هذا ؟ هل انه يعني أن كل الكائنات الحية ، وبطريقة الصدفة ، تحدث فيها نفس الطفرات التي تسبب نفس التغييرات في خصائصها ؟ يا للعجب !! في الواقع أن هذا معناه حدوث نفس الطفرات ، وبطريقة عشوائية لملايين الكائنات الحية التي تنتمي للجنس الواحد . ولكي يستمر التطور فان هذه العملية العشوائية يجب أن تحدث لكل الأجناس في كل الأجيال وبصورة دائمية . ويبدولنا ، لو ان هذا هو فعلاً ما يحدث ، فانه عملية مصممة بكل تأكيد وليس مسألة عشوائية ، ذلك لأن تكرار حدوثها بهذه الكثرة ينافي تعريف معنى العشوائية أصلاً . فالشيء الحادث يقال له عشوائياً اذا حدث بدون تكرار ، أما إذا تكرر بخصوص نفس الشيء فلا يسمى عشوائياً وإنما لا بد وأن هنا علاقة سببية له . وبذلك فان هذه العملية ليست صدفة ابداً ، وأنه لمن الجنون أن يوصف شيء كهذا بالعشوائية .

وخلاصة الموضوع ، كما يشير اليها (بيجون كورتن) هي ان (١)التطور ، كما تم اثباته ، يأتي من تبادل الفعل بين التغيرات في الوراثة الناتجة من الطفرات ومن الانتخاب الطبيعي . وهذا كل ما في الأمر ويجب علينا أن نقبل به) . ولكن (اندري دي كايوكس) يجلب الانتباه الى أن هذا الاستنتاج الأخير ليس بتلك القوة . فهو يشير الى ان (٢)ظهور السلالات الجديدة يشكل مشكلة عويصة . فدارون لا يشير اليها ، ولا مارك يقدم لنا احتمالات كثيرة ولكن قليلاً جداً من الحقائق يمكن رؤيتها تعمل في الطبيعة اليوم ، ونظرية الطفرات الوراثةية تجهزنا بأكوام من التغيرات المفصلة ، ولكن قليلاً منها مهمة أو مفيدة . وهي تشبه بناء جبل من الأحجار الترابية الصغيرة) .

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٤٢ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ١٩٨ .

التطور معتقداً ودين

بالرغم من ندرة الأدلة وفشل جميع النظريات التي اقترحها التطوريون في اعطاء تبرير مقبول لفكرة التطور فان الناس يتمسكون بها ويحاولون تبريرها بأي طريقة كانت . وفي الواقع فقد أصبح التطور مجرد اعتقاد أشبه بالدين أكثر مما هو علم ، وأولئك الذين تخلوا عن المعتقدات الكنسية قد استبدلوها بالتطور . فهذا هو (بيتر رسل) نجبرنا في معرض حديثه عن تحرير ذرات الأوكسجين الى الجو بواسطة الخلايا الحية الاولى التي تفترضها نظرية التطور على أنها كانت تتغذى على المواد الكيميائية وتطلق الأوكسجين (على حد زعمهم) ، فيقول (١) استمر الأوكسجين بالتراكم الى ما قبل ١,٥ مليار سنة عندما وصل الى نسبة ٢١ ٪ ، ذلك المستوى الذي صادف وان كان هو التوازن الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران . ولذا فانه توقف عن الزيادة بصورة فجائية وبقي متزنأً اتزاناً استثنائياً منذ ذلك الوقت) . يا للعجب كيف يلعب المعتقد بتفكير الانسان وبأي طريقة يجعله يفكر !! ولكننا لو قلنا للسيد (رسل) باننا جئنا من مكان نائي من غابات الامازون وبعد أن رأينا التكنولوجيا الحاضرة لأول مرة ولاحظنا السيارات تسير من حولنا والطائرات تطير فوقنا الخ ، وقررنا ان المكائن استمرت بالتراكم حتى وصلت الى المستوى الحاضر الذي صادف وان كان هو المقدار المطلوب الذي يحتاجه الانسان، ماذا سيظن بنا؟ ونحن نسأله لماذا توقف الأوكسجين هكذا فجأة؟ وكيف صادف وان كان هو المستوى الذي يعطي الاتزان الأمثل بين الكفاءة الحيوية وخطر اشتعال النيران بالضبط ؟ بطبيعة الحال ، وكما قد نظن ، فان هذه صدفة عجيبة أخرى . فكل هذه الظواهر العظيمة المحكمة التنظيم ليست سوى صدفاً عجيبة . ولا نعلم ماذا حدث للعلم وللحقائق والاكتشافات العلمية ، وأين هي تلك العلوم التي جعلت

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٤٥ .

هؤلاء العلماء يعتقدون بأنها صدف ليس الا . أليس القول بأن هذه الظواهر الفائقة التنظيم هي نتاج لتخطيط مسبق أكثر علمية من القول بأنها محض صدف ؟ وكما أننا نقول أن هذه المكائن والألات التكنولوجية الحديثة قد تم تصميمها وصنعها بواسطة العقل ، فانه من الانصاف ، والاحترام لعقولنا ، أن نفترض نفس الشيء لظاهرة الأوكسجين وظاهرة الحياة العظيمة . ولكن خواطر « الصدفة » و « الخطأ » و « الخط » و « ربما » و « لا بد وان » تسيطر على عقول العلماء بسبب الايمان المسبق بالمعتقد القائل أن التطور هو سبب الخليقة . وأحد التبريرات يعطيه (ستينز) هو^(١) (ان هياكل محسنة كهذه تطورت تدريجياً ، وكما نظن ، خلال تراكم الطفرات والمؤتلفات الجينية) . وواضح انه عندما يتكلم عن تطور هذه الهياكل فانه يتكلم بثقة ، ولكن عندما يأتي الى الأسباب نرى كلمة الظن تظهر بسبب عدم وجود الاثبات الأكيد . ولكن اذا لم يكن البرهان موجوداً أليس لدينا الحق في أن نسأل (ستينز) كيف انه أصبح متأكداً من أن هذه الهياكل قد « تطورت » ؟

و (سميث) يبرر الخليقة بواسطة التطور كما يلي^(٢) ان العمليات الجيوفيزيائية كالجو والتبخر والترسبات لا بد وأن اثرت في ذلك الوقت كما تفعل الآن لخلق أنواعاً متبانية من البيئات . وانه لمن الواضح ان واحداً من هذه البيئات على الأقل كان ملائماً للحياة من ناحية درجة الحرارة والتركيب) . وقد يكون هذا صحيحاً ، ولكن السؤال : ما هي هذه البيئة ؟ والجواب على ذلك هو انه بما اننا لا زلنا نعيش وفيها حياة فان تلك البيئة لا بد وانها كانت تشبه بيئتنا هذه التي نعيش فيها . واذا كانت هذه هي الحقيقة ، وهي كذلك طبعاً ، كان يجب على الحياة أن تكون في انبثاق مستمر . وهذا معناه ان ولادة الخلايا

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٥ .

(٢) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢ .

البداية (التي يؤكد عليها التطور) يجب أن تكون مستمرة دائماً منذ ذلك الوقت الى وقتنا الحاضر . ليس من الانصاف أن نقترح هذا الاحتمال ؟ ولكن اذا كان ذلك ممكناً ، وهو ما يجب أن يكون ، فأين الأدلة العلمية ؟ ان علماء التطور لا يتكلمون عن هذه الأمور أبداً ، فهم يقولون لنا أن الحياة انبثقت قبل بضعة مليارات من السنين فقط ، ثم بدأت (لا لسبب) بالتطور . واذا لم يكن هناك انبثاق مستمر لخلايا جديدة وحياة جديدة فالسؤال هو : ما هو السبب الذي اوقفها ؟ لا جواب هناك .

(دي كايوكس) يسرر ايمانه بالتطور كالاتي (١) اذا اتفقنا أن الطبيعة استطاعت أن تخلق أجناساً مختلفة من مخلوق معين ، اذاً فاننا لا نستطيع أن ننكر أنها استطاعت أن تجعل نفس الاحتمال يعمل لمخلوق من أصل آخر ، لأن حدود الأجناس مستمرة) . ثم يستطرد (٢) حالما نبدأ نازلين في مسار التطور فانه من المستحيل أن نتوقف في وسط الطريق ، فأما كله أو لا شيء) . وهو يفرض أن التطور حقيقة ، ومن ثم فانه من الطبيعي أن ينتهي الى استنتاجه هذا . ولكن أليس هذا نفس الشيء الذي قلناه آنفاً عن البيئة التي يجب أن تكون ملائمة لانبثاق الحياة المستمر ؟ فاذا كان اقتراح (دي كايوكس) مقبولاً ، يجب ان يكون اقتراحنا مقبولاً أيضاً . ولذا بإمكاننا أن نطرح الرأي التالي بنفس اسلوب (دي كايوكس) وطريقة استنتاجه : « اذا اتفقنا أن الطبيعة خلقت خلية بدائية واحدة ، فماذا يوقفها من خلق خلايا اكثر؟ أما اننا نستمر مع هذا الاقتراح او لا ، لأنه من المستحيل التوقف في منتصف الطريق ، فأما كله أو لا شيء) . فماذا يكون الجواب على هذا الاقتراح ؟ ولكن (دي كايوكس) يتمسك بالتطور مهما كان الأمر ، ويشير الى أن الشيء المهم هو ليس كيف انبثقت الحياة ، ولكن

(١) انظر المصدر ٥ ، ٥٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٥٤ .

المهم هو (١) معرفة الاتجاه الذي تأخذه هذه الحركة الحيوية خلال الزمان والمكان وفهم قوانينها وتوجهاتها . فتراكيها عبارة عن وسائل أو ممثلين ، ولكن المهم هو بماذا يلعبون وليس ما هو كنههم) . ونحن لا نشك في أهمية معرفة الكيفية التي تعمل بواسطتها الحياة لأن ذلك يساعدنا في تحسين طرق معيشتنا وصحتنا وسعادتنا الخ . وقد لا نجادل في ماهية تراكيها . ولكن عندما تُعرض علينا نظرية بخصوص الموضوع وتُطرح على أنها تمثل الحقيقة التي تفسر الخليقة فان من حقنا أن نطلب برهاناً قطعياً على اثبات صحتها . و (دورثي بيتنت) تجلب الانتباه الى حقيقة انه (٢) عندما نتكلم عن التطور فاننا في الواقع نتكلم عن احتمالات وليس اشياءاً مؤكدة) . وهذا يرمي باقتراح (دي كايوكس) الأول في سلة المهملات ويجعل استنتاجه يستند على لا شيء وينهار . و (ستبنز) هو الآخر يبرر ايمانه بالتطور بواسطة رأي مجرد وليس برهاناً علمياً ، فهو يقول (٣) كل الأجناس والكائنات الحديثة كانت ولا زالت موجودة كأجناس ناجحة وتلائم بيئتها جيداً ، وكل الطفرات المحتمل أن تكون مفيدة لا بد وان حدثت على الأقل خلال تاريخ تطور السلالات) . ومرة اخرى ، لان الانسان يمتلك عينين (كما قد نضرب مثلاً) فلا بد وأنه يرى بواسطة كلا العينين . فلأن الكائنات الحية موجودة لا بد وأنها تطورت ، ولا بد وأن الطفرات المفيدة قد حدثت . يا له من استنتاج علمي !! ما هو الفرق بين استنتاج كهذا والاستنتاج بأنه لما كانت الكائنات موجودة فلا بد وأنها تطورت بعضها من بعض . ولا ننسى أن المكائن أيضاً مصممة على أسس متشابهة وتصنع بطرق وأساليب متشابهة ، وعلى سبيل المثال فان جميع السيارات والحافلات والشاحنات الخ تمتلك اشياءاً كثيرة مشتركة بينها مثل الماكينة وآلة القيادة والعجلات والمقاعد والمكابح الخ . واذا اتينا بـرجل

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٨٨ .

(٢) انظر المصدر ٩ ، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر ٢ ، ص ٢٤ .

من الغاية لم ير هذه الأشياء من قبل ، وبعد ان يلاحظ التشابه فانه سيمتلك نفس القوة التبريرية التي يمتلكها التطوريون بأن هذه الآلات تطور بعضها من بعض بطريقة الصدفة .

وبعضهم يبرر التطور بواسطة عامل الزمن . (اندري) يقول (١) لكي نفهم التطور ، كما قلت ، يجب أن نكتسب ، على الأقل ، احتراماً لضخامة الزمن . وعندما نكون قد احرزنا بعض الفهم المرتعش لتلك اللُجة من الزمن المسماة مليون سنة ، عندها نستطيع أن نفهم كيف أن المخلوق شبه - الانسان ، العديم الذقن والصغير الدماغ ، آخر الحيوانات ، استطاع أن يلقي بنفسه في تلك اللجة بكل قابلياته للركض والرمي والصيد والقتل ، وكل غرائز اللبائن التي ورثها للعلاقات الجنسية والاجتماعية ، ولتتملك والمجد ، وللاعداد والاصدقاء ، وكيف استطعنا أن نخرج من اللجة بدون الشيء الكثير الاضافي سوى ذقناً ودماغاً أكبر) . حقاً انه لمن العجيب كيف يطلب منا أن نحترم الزمن وليس عقولنا ، وانه لمن العجيب كيف أنه يعتبر الدماغ شيئاً تافهاً عندما يشير اليه بالعبارة « بدون الشيء الكثير الاضافي » . وسوف نناقش مسألة الدماغ في فصول قادمة ، ولكننا نود أن نشير هنا الى ما يستطيع الايمان الأعمى أن يفعل بصاحبه ، وكيف يجعله يفكر . والأكثر دهشة هو أن (اندري) نفسه يرجع ليسأل ، غير محترماً الزمن الذي يطلب منا أن نحترمه ، فيقول (٢) اذا كانت الطبيعة ، خلال نصف مليار سنة ، قد تمكنت من انتاج العالم الحي الذي نعرفه ، فلماذا لم تستطع في المليار سنة التي قبلها أن تنتج أكثر من الرغبة الموجودة على بركة فلاح ؟) . وللجواب على ذلك فانه ينحرف عن مشكلة الزمن ، مناقضاً نفسه ، ومعتمداً على أسباب اكثر غرابة فيقول (٣) ان الجواب ،

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٥ - ٢١٦ .

طبعاً ، سهل جداً . فالموت في الأزمان ما قبل العصر الكمبري(*) لم يكن معروفاً، وكانت الحياة موجودة ولكن ليس الموت وعالم الطحالب والاميبا والديدان البدائية عبارة عن حياة مستمرة الوجود ونعترف أنه قد يكون تبسيطاً أكثر من اللازم نوعاً ما اذا قلنا ان الحياة اخترعت الموت) . وفي الواقع أن هذا النوع من التفكير بركة لزجة لا يجب ان يقع فيها احد لأن الخروج منها شبه مستحيل . فالتبريرات المطلوبة لاثبات مسائل كهذه تكاد تكون لا نهائية . وواضح انه ليس بإمكاننا ان نتصور الى أي حد يذهب المؤمن بقضية ما لغرض تبرير ايمانه . فحتى الخرافات والتصورات الخيالية تصبح حقائق بموجب منطقته . ولا يمكننا أن نتحاجج عندما يُدفع العلم الى هذا الحد . أين البرهان العلمي ؟ وأين الحقائق التي تثبت آراءً كهذه ؟ لا يوجد أي منها . ولكنه يرجع ليعترف (١) يبدو انه لا يوجد سبب قوي لعدم تمكن الظرف الذي ساد لفترة مقدارها ثلثي عمر الحياة ان لا يستمر لفترة اضافية قصيرة اخرى أيُّ مُحْتَلِّين خائنين لوحول عصور ما قبل الكمبري اولئك الذين اصابوا بسلسلة من الصدف التي اجتمعت لتحرمهم من حياتهم الخالدة؟ اننا لا نعلم . وعندما ننظر الى الوراثة ، الى الاصل النهائي للقوة التي كانت في يوم ما ستصبح انساناً ، نصل الى نقطة افتراق قبل خمسمائة مليون سنة . في البداية ، قليل جداً ، فقط أبسط احتمالات الحياة الرئيسية «والتي يسميها علماء الأحياء الشُعْب» كانت موجودة ، ثم ، وبترتيب قصير جداً ، وبمضي الزمن التطوري ، فان البقية تظهر فجأة .

وجميع الحياة الحيوانية المتناهية في التنوع والتعقيد التي نعرفها اليوم حدثت خلال هذه الفترة ، وليس قبلها . . لماذا؟ ماذا حدث قبل خمسمائة مليون سنة لخلق بدايات العالم المتنوع الحيوي ؟) ، في الواقع ان هذه اسألة وجيهة . ولكنها ليست لنا لكي نجيب عليها ، فالتطوريون هم الذين يجب أن يجيبوا

(*) احد العصور الجيولوجية .

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢١٤ - ٢١٦ .

عليها . وعلى أي حال ، قد لا يكون من الصحيح القول انه في الفترة السابقة للخمسمائة مليون سنة الماضية كانت توجد احياء بدائية فقط . فهذا هو افتراض التطوريون وحدهم ، لانه لا توجد آثار تشير الى أن هذه الاحياء البدائية كانت موجودة فعلاً في ذلك الوقت .

ورجوعاً الى موضوع التبريرات ، فان بعض الناس يبررون التطور كما يلي . (برتراند رسل) يقول ^(١) ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبل الوصول الى العمر الذي يسمح له أن يترك نسلأ . فأنشى سمك القُد تضع حوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنة . فاذا وصل كل النسل الى البلوغ وانتج سمك قُد آخر ، فان البحر سيصبح صلدأ خلال بضعة سنين ، بينما ستغطفى اليابسة بطوفان جديد) . ومنها يستنتج ان هناك تنافساً مستمراً ضمن الجنس الواحد وبين الأجناس المختلفة ، والذي يقود الى الانتخاب والتطور (على حد زعمه) . ولكن الواقع ليس كذلك ، فهذا (دي كايوكس) يوضح انه ^(٢) اذا كان صحيحاً أن التطور ينتج من الطفرات العشوائية بمعدل ثابت خلال العصور الجيولوجية ، فاننا يجب أن تكون عندنا فرصة أكبر لملاحظة آثاره عندما تكون الفترة الزمنية بين الأجيال قصيرة . واذا كان التطور يبدأ بقرعة فعلاً ، واذا أخذنا بطاقة في كل مرة ، فان الجائزة الرئيسية يجب أن تُبرَح بتكرار أكثر كلما يصبح سحب البطاقات اكثر تكرار . وعلى أي حال ، فان السحب ، أو الأجيال الجديدة ، تحدث كل بضعة سنين بالنسبة للحصان والفيل . وبالنسبة للدياتوم^(*) فانه يحدث كل بضعة أيام . ولكن بالرغم من ذلك فان الجائزة الرئيسية ، وهي الجنس الجديد ، لا تظهر بتكرار أكثر في مسار العصور

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

(٢) انظر المصدر ٥ ، ص ٢٠٠ .

(*) الدياتوم هو طحلب مجهري .

الجيولوجية . فتوقعات الحياة هي نفسها في كلتا الحالتين .

وفي القرعة أو اليانصيب ، فاننا نمتلك حظاً لربح الجائزة الكبيرة اذا كانت مائة بطاقة موجودة اكثر مما لو كانت مائة ألف بطاقة موجودة . والحياة تزودنا بهذه التنوعات . وبعض الأجناس تمتلك بذوراً أو بيضاً قليلاً جداً ، ولكن بعضها يمتلك الكثير . فالوايستر^(**) تمتلك بضعة ملايين وكرة - النفاخ^(***) تمتلك بضعة مليارات . وانه صحيح أن كثيراً من هذه البذور تنفقد أو تؤكد عندما تكون في مرحلة البيض أو عندما لا تُحَصَّب ، ولكن كثيراً منها تصبح يرقات ايضاً ، ثم كائنات فتية ثم انها تتعرض للانتخاب مثلما أن البالغة تتعرض للانتخاب . ويجب أن نجد تطوراً أسرع عندما تكون هناك بيوض اكثر . ولكن صورة الحياة في الماضي تبين لنا لا شيء من هذا النوع . وتَحَار الماء العذب المسمى يونيو يضع مائتي الف بيضة في السنة . ولكن كائنات الملاريا الولادية تلد خمسين طفلاً فقط . وبالرغم من ذلك فانه خلال المراحل الجيولوجية كانت الملاريا هي التي تطورت اسرع من اليونيو . والجمل يلد طفلاً واحداً في السنة ، بينما الضفدع ينتج خمسة آلاف . خمسة آلاف دعموص تسبح في بركة مائية - انها لفرصة رائعة للانتخاب ! ولكن مع ذلك ، وخلال المراحل الجيولوجية ، فان الجمل هو الذي تطور بصورة أسرع) . ولذا فان هذا التوضيح يجعل تبرير (برتراند رسل) ينهار من الأساس .

والايمان بالتطور يرجع ببعض العلماء الى خرافات اليونانيين القدماء . وهؤلاء العلماء ، وبطريقة ما ، بدأوا يقنعون أنفسهم بأن فكرة التطور ليست حديثة ولكنها قديمة بقدّم تاريخ الانسان . وأصبح ذلك برهاناً آخر لصحتها . و (مور) تجبرنا بأن ^(١) الاغريق وضعوا ايديهم على أكثر من بريق قصير من

(**) الوايستر هو نوع من المحار .

(***) كرة - النفاخ هي نوع من الفُريّات

(١) انظر المصدر ١ ، ص ١٠ .

الحقيقة الأساسية للتطور . ثالث ، الذي عاش من سنة ٦٢٤ الى سنة ٥٤٨ ما قبل الميلاد ، نظر الى الحياة السابحة في بحر إيجه الازرق وأعلن ان الماء هو الأم التي خرجت منها كل الأشياء والتي بواسطتها توجد) . ونحن لا نعلم أين هي الاشارة الى فكرة التطور في هذا الكلام ؟ ان كل الأشياء الحية تحتاج الى الماء ، وهذه احدى حقائق الوجود ، وهي تقول هذه الحقيقة التي عرفها الانسان من ملاحظاته البسيطة على مر التاريخ ، سواءً قبل الاغريق أو بعدهم . (دي كايوكس) هو الآخر يقول (١) لقد رأينا سابقاً في بلاد الاغريق القديمة ان امبادوكلس حمل فكرة الوحدات المتفرقة - الأطراف ، والرؤوس ، والقرون ، والعيون - التائهة التي تتحد بالصدفة لتكوين الأشكال الوحشية ، والتي حُذِف كثير منها بعد ذلك بواسطة الحياة . وكان هذا أول اقتراح لفكرة الانتخاب الطبيعي ، الذي التُقِطَ مرة اخرى بعدئذ من قبل دارون) . يا لها من سفسطة وربط يائس بين الخرافة والعلم لتكوين النظرية !! فهنا تجتمع التصورات السفهية للأطراف والرؤوس والعيون التائهة في الوجود بخط واحد مع حقائق وصدف التطور . ولذا اذا كانت عندك فكرة في عقلك فانه يكفي لاثباتها أن تفتش بين الكتب القديمة والحديثة وتجد خرافة أو قصة أو شيء من ذلك ، ثم تستعمله كبرهان على صحة فكرتك . وستكون علمياً . ولم لا ؟ أليس هذا ما يفعله التطوريون كما رأينا ؟ ونحن نتساءل : اذا كانت خرافات الاغريق القدماء قد جعلت (دي كايوكس) يؤكد صحة التطور فلماذا لم يستطع بقية الاغريق وأوروبا كلها التي آمنت بالله أن يجعلوه يؤمن بوجود الصانع ؟

(مور) هي الأخرى تقول (٢) ان نظرية التطور لم تضعفها ردود الفعل الناتجة بسبب اخطاء الماضي والتصورات غير الصحيحة السابقة وفتح أبواب

(١) انظر المصدر ٥ ، ص ٨٤ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٨ .

المفاهيم الجديدة . بل على العكس من ذلك ، فان الحقائق الأساسية التي وضعها دارون والتطوريون العباقره الذين تلوه قد قويت . ويستطيع العلم ان يبدأ مرة أخرى للوصول الى غايته : الحقيقة التي لا يمكن الوصول اليها ، ولكنها التقريبية ، عن الانسان ، وأصله وتطوره) . وهنا نرى انها تسمى أدلة التطور بالحقائق . ولكننا رأينا سابقاً ان كل شيء لا يتعدى آراء العلماء العاملين في هذا الحقل ، وهي مختلفة ، وليست هناك حقائق . ثم تسميها الحقيقة التقريبية التي لا يمكن الوصول اليها ، والذي يجعل كل شيء بمثابة تبذير للوقت والجهود طالما اننا نعلم مسبقاً انه لا يمكن الوصول اليها . وهذا يجعلنا نأخذ احتمالين . الاول ان الفكرة بأكملها خاطئة ولذا لا يمكن الوصول الى نتيجة من ورائها . والثاني ان الموضوع يستحيل على الانسان الوصول الى نهايته أو معرفة حقيقته فبأي حق يعرضونه للناس على أنه حقيقة الخليفة ؟

ليس هناك انعكاس :

يقول علماء التطور ان عملية تطور الكائنات الحية تسير باتجاه واحد الى التحسن فقط ، وليس هناك انعكاس في هذه العملية . (بلييترو) يذكر انه ^(١) ليس هناك كائن حي ، ولا جنس ، ولا سلالة ترجع الى أي تركيب أو حالة سابقة بالضبط . وكمثال عام ، ولكنه قوي ، وهو ان الحيتان جاءت من الأسماك ، وقد رجعت الى الماء وتبنت حالتها السمكية مرة اخرى ولكنها لم تصبح سمكاً مرة اخرى . وكل نظام او عضو أو نسيج أو خلية للحيات متميزة بوضوح عن اعضاء أي سمك موجود الآن أو كان موجوداً في السابق والعمليات الجينية للتطور كلها قابلة للانعكاس ، ولكن انعكاسها كلها الى نفس الدرجة في التقارب وضمن اطار بيئي متشابه ومتغير مسألة غير محتملة الى درجة بحيث انها من غير الممكن أن تكون قد حدثت خلال مجرد بضعة مليارات من

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

السنين) . أليس هذا مدهش حقاً!! عندما تأتي المسألة الى كون الطفرات الوراثية عشوائية وانها أنتجت الانسان من خلية واحدة فانها ليست غريبة ، بل على العكس من ذلك انها ممكنة جداً . ولكن عندما يصل الموضوع الى انعكاس العملية فانها مسألة غير محتملة على الاطلاق . ونحن نسأل : أليس الطفرات عشوائية ؟ أليس هم يقولون أن ٩٩٪ منها تعمل عكس التحسن ؟ اذن أليس من المنطقي ، عندما نقارن الـ ١٪ الى الـ ٩٩٪ ، ان نفترض بأن التطور يجب ان يتجه باتجاه الـ ٩٩٪؟ أليس هذا الإتجاه هو الإتجاه الذي يجب أن يكون احتمال أكبر وليس اتجاه الـ ١٪؟ وعلى أي حال ، أين البرهان العلمي على أن الانعكاس لا يحدث ؟ وماذا عن الصدفة ، هل هي ممنوعة هنا ؟ أم ان الصدفة لها قوانينها التي تمنعها من عكس خصائص الأجناس ؟ وماذا لو أن الجنس رجع الى نفس الظروف السابقة تماماً ، وهو محتمل جداً لأن الظروف في مناطق الكرة الأرضية ثابتة تقريباً ؟ ونحن نلاحظ هنا انه عندما تصل المسألة الى التطور فان العلماء يتصرفون مثل السياسيين . اذا أرادوها كبيرة فهي كبيرة واذا أرادوها صغيرة فهي صغيرة . وفي هذا المجال يؤكد (كورتن) بالقول (١) ليس هناك رجوع الى الوراء ، فالتطور لا يعكس مساره) . ولكننا نسأل : لماذا ؟ أين الدليل أو البرهان أو القانون العلمي ؟ هل انه قانون بأن التطور لا ينعكس ؟ واذا كان كذلك فمن الذي وضع هذا القانون ؟ هل هو شيء آخر خارجي !! ام أن هذه صدفة عجيبة اخرى دائمة الوقوع باستمرار ؟

ان ما يثير السخرية في كيفية وضع التطوريون فلسفتهم وطريقة تفكيرهم يمكن ملاحظتها من المقطع التالي لـ (كورتن) عند وصفه للانسان (٢) بأنه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطويرية مستقبلية كامنة ، والوحيدة التي تستطيع

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

أن تعطي شيئاً جديداً حقيقياً . فالحصان والقط والخفاش الخ لا يمكنها ان تتطور الى أي شيء يختلف اختلافاً حقيقياً ، والانسان فقط يستطيع أن يفعل ذلك) . ولكننا نستطيع أن نحاجج هذا الرأي بالقول اذا كان التطور ممكناً فلماذا لا تستطيع هذه الحيوانات أن تتطور؟ أليس هذا رأي غريب من انسان يؤمن بالتطور؟ اننا نرى انه اذا كان التطور واقعاً فقصارى ما نستطيع أن نقوله هو أن الانسان يجب أن يكون أكثر استعداداً للتطور من غيره لانه يدرك بوعي وجود هذا المشروع العظيم بدون أن نلغي القدرة التطورية الكامنة التي يُفترض أن تحملها جميع الكائنات الحية الأخرى . في الواقع أن الفكرة بأكملها لا تبدو كعلم صلب . فهذا (سميث) يلخص الموضوع بالقول (١) اذا كان هذا التكيف يأتي نتيجة للانتخاب الطبيعي للمتغيرات التي هي في أصلها غير تكيفية ، فان العملية لا بد وان تتضمن عدداً كبيراً من الخطوات التي كثير منها صغيرة المقدار . كما ان انتاج تكيف مفصل بواسطة الطفرات ذات التأثيرات الكبيرة فقط - الطفرات العملاقة - سيجابه نفس الصعوبات التي يواجهها جراح مضطر للقيام بعملية باستعمال مشرط مسيطر عليه ميكانيكياً والذي يمكن تحريكه قدماً واحدة في كل خطوة . و « فشر » في حجة له يذكرها « لا ند » ذهب الى أبعد من ذلك ، فهو يجادل بالقول بما أن الكائنات الحية الموجودة متكيفة جيداً فان الطفرات الكبيرة مؤذية بالضرورة . ولكنني لست مقتنعاً كلياً بذلك . وأنا اتفق أن التكيف لا يمكن انتاجه بواسطة انتخاب الطفرات العملاقة فقط ولكنني لا أرى لماذا لا نقبل أن طفرات عملاقة عرضية يمكن أن تكون قد أُدججت بواسطة الانتخاب . والسؤال هو تجريبي في النهاية) . يتضح من هذا عدم وجود الحقائق لاثبات هذه الأشياء وليس هناك اتفاق على نظريات التطور . وكل ما في الأمر هو أن العلماء يحاولون موافقة نموذج أو نماذج مهزوزة على ظاهرة موجودة، خارج نطاق العلم . والقضية لا تتعلق بالعلم أو القوانين العلمية .

(١) انظر المصدر ٦ ، ص ١٢٥ .

والا لماذا تطور الخروف فامتلك دثار الصوف الثقيل بينما بقيت البقرة بجلد عار تقريباً بالرغم من ان كلاهما يعيشان نفس البيئة ؟ ولماذا تطورت الكائنات الحية فأصبحت مختلفة هذه الاختلاف الجذرية التي نراها بالرغم من أنها عاشت في نفس البيئة (على افتراض أنها كلها تطورت من خلية واحدة) ؟ ولماذا تطورت بحيث اننا اذا قطعنا عضواً مهماً من بعضها فان الكائن الحي يموت بينما بعضها اذا قطعنا معظمه لا يموت (كالنبات) ؟ وفي الواقع فان هناك ما لا نهاية له من الاسئلة التي يمكن أن نطرحها والتي تقف نظرية التطور أمامها عاجزة ومشلولة تماماً . و (اندري) يقول ^(١) قد نظن طبعاً أن الحياة نفسها جاءت الى الوجود قبل فترة قصيرة . ولكن الظن لا يكون حقيقة . فاننا لا زلنا لا نعرف عمر جُرْمِنَا(*) بالرغم من أن ما يقارب أربعة مليارات سنة يعتبر تخميناً لا بأس به على أي حال . ويسبب اننا لا نعرف عمر جرمنا فاننا لا نعرف وقت وظروف بدء الحياة . . . وسواءً حدث أول مزيج من المادة اللاعضوية وتبدل الى كائن حي بطريقة الصدفة أو بطريقة حتمية ، سواءاً لأنها « أي الحياة » لم أو لأنها كان عليها ، وسواءً انبثقت بواسطة العمليات الكيماوية أو النشاطات الاشعاعية ، أو شرود الذهن الالهي : كل هذه نقاط قابلة للمناقشة) . ومع ذلك فان الايمان ايماناً سواءً كان خطأً أو صحيحاً ، وأولئك الذين يؤمنون بالتطور يعرضونه علينا باعتبارهم حقائق علمية شرعية وعلينا أن نقبلها ، وهم يتمسكون به وكأنه اله .

انه تكيف فقط :

رأينا سابقاً انه لا توجد أدلة حقيقية بأن التطور قد وقع فعلاً . وليس هناك من يستطيع أن يثبت بطريقة لا جدال فيها ان سلالة معينة قد تطورت من سلالة اخرى (على الطريقة المتبعة في حقول العلم الأخرى) . وبدلاً من ذلك

(١) انظر المصدر ١٦ ، ص ٢١٤ .

(*) يقصد الكرة الأرضية .

توجد افتراضات كثيرة واختلافات كثيرة في الآراء . ولكن التطوريين يستمرون بأخبارنا أن التجارب تبين أن التطور لا بد وأنه قد حدث بسبب قابلية التكيف التي يمكن ملاحظتها في الكائنات الحية . فالى أي حد يذهب التكيف في إحداث التغيرات ؟ وهل انه يصل الى الحد الذي يتغير فيه الكائن كلياً الى كائن جديد ؟

(ستينز) يعترف بان (٢) الشيء الأكيد هو أنه في الواقع ليس هناك عالم من علماء الأحياء رأى أصل مجموعة رئيسية من الكائنات بواسطة التطور . ومع ذلك ، فان أجناساً وأنواعاً قد تم انتاجها في المختبر أو الجينية بواسطة استنساخ بعض العمليات التطورية المعروفة على أنها تحدث في الطبيعة) . ولكن ما هي هذه العمليات التطورية التي يتكلم عنها ستينز ؟ (برتراند رسل) نجبرنا بأن (٣) حيوانات أليفة قد تم تغييرها كثيراً بواسطة الانتخاب الاصطناعي : فخلال وساطة الانسان ، أصبحت الأبقار تنتج حليباً أكثر ، وخيل السباق تركض اسرع ، والغنم تنتج صوفاً أكثر . وحقائق كهذه أعطت أكثر الأدلة المتوفرة وضوحاً لدارون عن ما يستطيع أن يفعله التطور . وانه لحقيقة ان المرابين لا يستطيعون تحويل سمكة الى مارسوبيال(***)، أو مارسوبيال الى قرد ، ولكن تغيرات عظيمة كهذه قد نتوقعها تحدث خلال العصور العديدة التي يحتاجها الجيولوجيون) . ويتضح ان كل ما هو متوفر لا يتعدى التكيف والتحسين وليس تغير الجنس أو النوع . وعن الزمن المطلوب لتغيير الأنواع تحييب (مُور) بالقول (١) ان المعضلة حادة . هل استطاع الانسان الحديث أن يتطور من مرحلة الانسان - القرد الجنوب افريقي في الفترة الوجيهة التي مقدارها مليون سنة ؟ . . . الجواب يبدو كلا ، لأنه اذا كانت الفروق بين هؤلاء الأجداد (اي

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١ .

(٣) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٤ .

(**) مارسوبيال = حيوان يحمل طفله في كيس في جسمه .

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

انسان النياندرنال) وانسان اليوم قد أخذت بنظر الاعتبار بواسطة الانتخاب الطبيعي الذي يعمل بالاسلوب والسرعة التي افترضها دارون، فان المليون سنة لا يمكن أن تكون كافية) . لذا فان القول بأن التطور حدث بسبب الزمن ليس كافياً وليس هناك أدلة تشير اليه اطلاقاً ، وهو ليس سوى افتراض وتخمين لا أساس لهما من قبل أولئك الذين يؤمنون بالتطور ، وكانا هكذا دائماً .

ولكي نتوصل الى الخلفية الحقيقية التي انبثقت منها فكرة التطور وأين تقف الآن، فاننا نستشهد بقول (دورثي بيتنت) التي تقول (ان^(١)التطور يستمر حولنا كل يوم، كل دقيقة، بالرغم من انه بطيء جداً في العادة بحيث اننا لا نراه . . . وكثير من الكائنات المألوفة حولنا تعتبر أمثلة رائعة على التغير التطوري الحديث والذي لا زال مستمراً . فالدانديليون^(*) الموجود في حديقتك ، وسنونو الذار الذي يبني عشه تحت السقف ، والجراثيم التي تجعلك مريضاً - هذه الكائنات الاعتيادية تكيف نفسها باستمرار لتلائم التغيرات في العالم المحيط بها . . . ولكن بالضبط ماذا يعني العلماء بالتطور ؟ انه ، وبكل بساطة ، يمكن أن نعرفه على انه العملية التي بواسطتها تتغير الكائنات الحية خلال أجيال كثيرة . . . فالتطور هو تغير) . ولكن هذا ليس صحيحاً تماماً . فالتطور ليس مجرد تغير، وليس أي تغير . فما نفهمه هو أن التطور صنع انساناً من خلية بدائية . لذا فان وصفه بأنه مجرد تغير يعتبر سوء فهم كبير . والمسألة تصبح اسوأ عندما تقول (بيتنت) (^(٢) ان التطور ليس بالضرورة يعني التقدم) . ونحن نسأل : اذا كانت الحالة كذلك كيف يكون هناك بقاء وديمومة اذا ؟ وكيف تطورت الأنواع الراقية من الأنواع الدنيا ؟ دعنا نرى قولها التالي^(٣) ولكن

(١)، انظر المصدر ٩ ، ص ٩ - ١٠ .

(*) نوع من النبات .

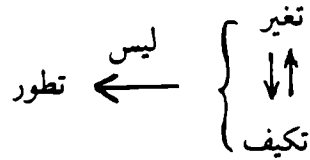
(٢) انظر المصدر السابق، ص ١٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ١٧ .

مقياس نجاح التطور في الواقع ليس كم معقد أو كم ذكي أو كم جميل يصبح الكائن الحي ، ولكن المهم هو هل سيكون قادراً على البقاء اليوم ويترك نسلأ غداً ام لا . والتغيرات التطورية تقود الى التكيف لبيئة معينة في زمن معين) . اذن فان التطور هو التكيف . ولكن هل هو كذلك ؟ اننا نرى خلطاً وتشويشاً كثيراً هنا . فنحن نفهم التطور ، كما يُعَرَض علينا بواسطة علماء التطور ، على انه شيء آخر ليس ما تقوله (بيتنت) اذا كانت الخلية البدائية قد أصبحت انساناً . والمتالية التي يتضمنها تصريحها يمكن تلخيصها كما يلي :

تغير ← تكيف ← تطور

ولكننا نفهم التطور والتكيف كما يلي (بموجب ما يُعَرَض علينا) .



ذلك لانه اذا كانت الخلية قد تطورت الى انسان فان التطور يخلق اشياءً جديدة أفضل من سابقتها بالضرورة . أي انه انتاج لظواهر جديدة لم تكن موجودة من قبل ، وهو تغير نحو انتاج خصائص اكثر تطوراً في الاتجاه الذي يساهم في تكوين سلالات جديدة متطورة ، أي مخلوقات أكثر تطوراً . فالتطور ، كما يقال ، حَوَّل خلية الى الانسان ، وبنظرية كهذه فانه ليس صحيحاً أن نساوي التطور مع التغير المجرد ، والذي يُستقرأ منه ان أي تغير في الكائن الحي يصبح تطوراً ، ثم يُستنتج ان قابلية الكائنات الحية على التكيف للمحيط هو تطور . لعمري ماذا حدث للفكر !! فلو كان التطور أي تغير مجرد فان الخلية لن يمكنها أن تصبح انساناً مطلقاً . ان التكيف يختلف عن التطور اختلافاً جذرياً . ويبدولنا ان المتالية الآتية تنطبق بصورة أفضل من المتالية السابقة :

التطور ← حدوث تغيرات جديدة تخلق شيئاً أكثر تطوراً لم يكن موجوداً من قبل .

بينما :

التغير ← التكيف .

لذا فان التطور ليس أي تغير . والتطوريون يتكلمون عن التكيف وكأنه تطور ، والعكس بالعكس ، والذي يقودهم الى اجراء تجاربهم عن التكيف ويعتبرونها تطوراً . وواضح أن هناك خلطاً وتشويشاً حول الموضوع . فمفهوما التطور والتكيف يُستعملان بأسلوب متبادل لاعطاء نفس المعنى . ولكن الحقيقة ان العمليتان ليستا نفس الشيء . لأن التكيف هو التغيرات التي تحدث للكائن الحي لتمكينه من مقاومة الظروف البيئية ولا يتغير الجنس الى نوع آخر ، بينما التطور هو التغير الذي يخلق كائناً جديداً . وفي الواقع ، فان فكرة التطور بأكملها تُنْتزَل الى التكيف . و (بيتنت) تجربنا بأن ^(١)التكيف الى بيئة معينة يجب أن يكون توافق وسطي . فالعنق الطويل عند الزرافة قد يعني أن الزرافة تستطيع أن تصل الى الغذاء غير المتوفر بالنسبة للآخرين ، لذا فانها تزيد من امدادات الغذاء لها ، ولكنها أيضاً تسبب مشاكل للزرافة . فقلبها يجب أن ينبض بقوة أعلى لكي تستطيع كمية كافية من الدم أن تصل الى دماغها ، وقد لا تستطيع أن تركض بالسرعة التي تركض بها قريباتها قصيرة - الأعناق . ولذا فانه من الأفضل الكلام عن البقاء للصالح وليس الأصلح ، لأن الأصلحية هي توافق وسطي دائماً ، وما يكون صالحاً اليوم قد يكون أقل أصلحية غداً) . ولكن اذا كان اكتساب شيء معناه خسارة شيء آخر فان الخلية لن يمكن لها أن تصبح انساناً . وعلى كل حال ، ان القول بأن الصالح يبقى وليس الأصلح معناه القول ان الأدنى يستطيع البقاء أفضل من الأرقى لأن الأصلح يتضمن

(١) انظر المصدر ٩ ، ص ٧ .

الصالح بالتعريف ويجب ان يكون أكثر تطوراً منه . وهو بمثابة القول بأنه ليس هناك تطور في الواقع .

وعندما نتكلم عن التكيف فمن الواضح انه لما كانت الظروف والمواد الغذائية متغيرة من منطقة الى اخرى على سطح الأرض فان التكيف ضروري بالنسبة للكائنات الحية مهما كان أصلها سواءً تطورت من خلية ام ان الله خلقها ، فهي في كلتا الحالتين تحتاج الى قابلية التكيف للظروف للاستمرار بالحياة . واذا كانت قد خلقها خالق فان هذا الخالق بالتأكيد سيضع قابلية التكيف فيها . ولا نحتاج أن نجري تجارب مختبرية لكي نرى هذا التكيف ، فنحن نستطيع رؤيته في انفسنا . وكل ما نحتاجه هو قليل من التمارين الرياضية لنرى كيف تنمو عضلاتنا أو نعرض أجسامنا الى الشمس لنرى كيف يتغير لون بشرتنا . أليس هذا تكيف للظروف والبيئة ؟ ولكن هل يمكن أن نسميه تطوراً ؟ والتكيف ليس عملية عشوائية لأن الكائن الحي اذا وضع تحت نفس الظروف فانه سيعاني من نفس التغيرات في كل مرة . فالجلد المعرض الى الشمس يصبح أغمق لوناً دائماً ، وقابلية التعرق تزداد دائماً في الأجواء الحارة . ولو كان التكيف عشوائياً لكانت التجارب مع الحيوانات والنباتات تعطي نتائج مختلفة في كل مرة ، ولما كان تحسين أي نوع من النباتات أو الحيوانات ممكناً . فان تحسين خصائص الحيوانات والنباتات لاعطاء انتاج أوفر لدليل صارخ على أن التكيف يتبع قوانين ثابتة .

ونحن لا ننكر أن نظرية التطور نبهت الانسان الى القابلية الموجودة في الكائن الحي للتحسين فيما لو تحسنت ظروف المعيشة والغذاء التي هي جزء من قابلية الكائن الحي على تحمل الظروف والتكيف للبيئة ، على ان ذلك كان نتيجة عرضية لم تقصدها النظرية ولكن استقرأها علم الاحياء من نظريتي التطور والوراثة ، واستعملها لتحسين نسل كثير من الحيوانات والنباتات مما ادى الى تحسين هذه الأنواع وانتاج المواد الغذائية بصورة أوفر . ولكن علماء الأحياء لم

يمكنوا من تبديل احدى هذه الحيوانات أو النباتات من نوع الى آخر لذا فان تحسينات كهذه للكائنات الحية لا تقودنا الى الاستسلام بأن النظرية صحيحة (وهي النقطة التي يحدث فيها الخلط بين التطور والتكيف) . وحتى بدون مساعدة نظرية التطور فان علم الاحياء بإمكانه أن يصل الى نفس النتيجة عن طريق آخر لأن خاصية التكيف موجودة في الكائن الحي مهمان كان أصله (كما قلنا) . ولا نحتاج الى نظرية تجربنا بذلك . فالفلاح الحافي القدمين تكون أقدامه عريضة ولكن أطفاله لا تكون أقدامهم عريضة ابداً اذا لم يعملوا في الأرض حافي القدمين . ولكن التطوريين ، ومنذ البدء ، يستعملون خاصية التكيف الموجودة في الكائن الحي لاجراء تجاربهم التي تثبت لهم في كل مرة اعتقادهم بالتطور ناسين بأن كل ذلك يمكن أن يفسر بتفاسير أخرى لا تقل منطقية عن تفسيرهم ان لم تكن أكثر منطقية .

استنتاج :

قمنا بدراسة وتمحيص لنظريات التطور المختلفة والآراء السائدة بين العلماء ، والمتعلقة بها ، فوصلنا الى استنتاج انه لا توجد نظرية واحدة يتفق عليها العلماء أنفسهم ، وليست هناك أدلة علمية كافية تسند أي من هذه النظريات . وبصورة عامة فان هذه النظريات ليست سوى آراء أولئك الذين يطرحونها . وجميع الأدلة التجريبية المتوفرة تخص تكيف الكائنات الحية للظروف والبيئة وليس تطورها من نوع الى آخر . وليس هناك أحد يستطيع أن يؤكد بدون شك ان التطور قد وقع فعلاً ، ولا يوجد من يستطيع أن يعطي اي برهان عليه .

وأحدث النظريات تجمع بين كل من الطفرات والانتخاب الطبيعي ، وتزعم أن كليهما مسؤولان سوية عن التطور . ولكن كلا من هاتين النظريتين تم البرهان على فشلها فيما لو أخذت لوحدها . ولذا فان جمعها معاً لا ينقذ فكرة التطور .

ويتضح ان العلماء يخلطون التكيف مع التطور ويعتبرون التكيف تطوراً ،
ولكنها في الواقع مسألتان مختلفتان . فالتكيف موجود في الكائنات الحية كوسيلة
دفاعية ضد الظروف القاهرة ولكنه لا يسبب تغير الكائن الحي من نوع الى
نوع آخر .

الفصل السابع

تحليل بعض المفاهيم الموجودة في نظرية التطور :

سوف نتطرق في هذا الفصل الى بعض الظواهر التي نلاحظها في حياتنا اليومية ، أو التي تزعمها نظرية التطور، ونحاول تحليلها في محاولة للوصول الى فهم أعمق لكيفية تطبيق مفاهيم التطور عليها ، وفيما اذا كان باستطاعة نظرية التطور اعطاء تفسير مقبول لها .

الغاية من التطور نحو الأرقى :

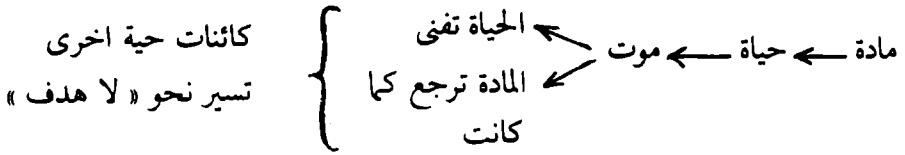
ان المنطق العقلي يميل علينا القول انه لكل عمل غاية وهدف اذا كان هذا العمل متوخياً نتيجة أفضل . واذا لم تكن هناك غاية فان ذلك العمل لا يتوخى نتيجة ويصبح عبثاً وتفريطاً في الوقت والامكانيات بدون فائدة . أي انه يمثل خسارة ، والخسارة نقصان . وهذا النوع من العمل ليس له وجود في هذا الكون . ذلك لانه اذا سمحت قوانين الكون لعمل عبث واحد فان ذلك معناه أن قوانينه تسمح بحدوث العمل العبث ، وهذا معناه امكانية حدوث اكثر من عمل عبث واحد . وفي هذه الحالة ، ليس هناك ما يمنع من حدوث اعمال عبثة بالعدد والنوعية التي تؤدي الى فناء الكون وتدميره . وهذا تناقض مع

وجود الكون وقوانينه الصارمة التي تحاول الحفاظ عليه وعلى وجوده . وهذه القوانين لا تسمح للخلل ان يتسلل الى أرجاء الكون ، بل تقضي عليه حال حدوثه ، والا لما بقي الكون في شكله هذا وتوازنه . وحدث العمل العايب يخل بعدالة الكون الذي يستند وجوده على القوانين العادلة التي تسبب توازنه وبقائه . فالتوازن هو العدالة ، ولو لم تكن عدالة لاختل الكون وانتهى ، أو لكان تحول الى شكل آخر متوازن تسود فيه العدالة أيضاً . لذا فحدث العمل العايب اخلال بهذه العدالة . والاخلال بالعدالة ظلم ، لأن الظلم هو كل خروج عن العدالة . ولكن اذا كانت العدالة هي التي تحكم فكيف يحدث الظلم !! فالظلم والعدالة متناقضان ، والمتناقضان لا يجتمعان في آن واحد ومكان واحد . وهذا قانون كوني نجده يسري على جميع ما في الكون ، وهو من بديهيات العقل الاساسية .

السؤال هنا هو أن المادة عندما تطورت نحو الاحسن فاكتملت الحياة بموجب نظرية التطور ، فما هي الغاية التي تنشدها المادة من هذا العمل الجبار؟ وما الفائدة التي جنتها؟

اننا نرى أن الكائن الحي يموت ويرجع مرة اخرى الى نفس المادة التي تكونت خلاياه منها ولا تتغير تلك المادة بالمرور خلال الكائن الحي . بل ترجع لما كانت حتى لو مرت خلال خلايا الكائن الحي وأصبحت جزءاً منها ما لا نهاية له من المرات ، فانها سوف ترجع الى ما كانت عليه قبل الحياة في كل مرة يموت فيها الكائن الحي ، مادة لا حراك فيها ولا تختلف اي اختلاف عن المادة التي لم تدخل الخلية الحية أو الكائن الحي اطلاقاً . والشئ الوحيد الذي يحدث هو أنها تُستعبد من قبل الكائن الحي كما نستعمل الحصان للركوب ، وهذا أبعد ما يكون من أن يسمى فائدة أو تطور . فتطور المادة الى الخلية الحية اذن لم يحولها الى أفضل مما كانت عليه قبل الحياة . ولا تتغير المادة الى أي شئ يختلف مثلها أن الوجود الأول ، وبعد الانفجار الكبير الذي أنتج الكون ، غير المادة من

الذرات البسيطة الى ذرات أثقل وأكثر تعقيداً (أو طَوْرَها ، وليس غَيْرَها ، كما يرغب التطوريون أن يقولوا لصياغة تشبيه وربط هذا التشبيه مع فكرة تطور الكائنات الحية وزعم أن الكون كان ولم يزل في تطور ، ناسين ان المادة توقفت عن التطور لسبب مجهول وليس هناك تطور مستمر ، بل اننا نرى العناصر الثقيلة كاليورانيوم يحدث له عكس ما يزعمون ، فهو يشع ويتحول الى عنصر أخف هو الرصاص) . وبدلاً من التطور فان المادة استُعِيدت وبقيت كما هي . ويبدو أن هذا العمل لا يمثل سوى ضياع في الجهد والوقت حيث تفنى الحياة التي هي الشيء الجديد وتنتهي وكأنها لم تكن ، وكل شيء يرجع الى ما كان عليه ، مادة ميتة . وباختصار ، فان الصورة العامة هي كالآتي :



ان هذا العمل يبدو عملاً عابثاً ، سواءً من ناحية المادة أو من ناحية الكائن الحي الذي يأتي الى الوجود فقط لكي ينقل الحياة الى كائن حي آخر ، بدون فائدة أو غاية . ويبدو أن المادة والكائن الحي عابثان ومبذران للوقت والجهد باللعب بهذه الطريقة . وهذا العمل العابث لا يمكن بأي صورة من الصور أن يوصف بأنه تطور ، بل الأجدر أن لا تكون له امكانية الحدوث وأن لا تسمح له قوانين الكون الصارمة وعدالته بالحدوث .

ولكن ، وبما أن الشيء حدث ، حيث أن الكائنات الحية موجودة . اذن لا بد وأن هناك تفسيراً آخر لهذه الظاهرة العظيمة . ولا يقبل العقل المنطقي أن عملاً عظيماً كهذا لا يستهدف غاية معينة ، خاصة مع وجود التعقيدات الكثيرة للأشياء المتداخلة فيه .

تناقض مبدأ التطور مع نفسه :

لو تصفحنا الوجود في جميع أبعاده ، سواء المادة ، أو الحياة ، أو العقل ، لرأينا ان كل شيء تحكمه قوانين صارمة وفي منتهى التعقيد . ولا شيء يحدث بدون الخضوع لهذه القوانين . والقانون هو نظام ، والنظام هو نتيجة لتنظيم ، والتنظيم نتيجة لتدبير ، والتدبير نتيجة لحسابات وأخذ ما يليق ورفض ما لا يليق . وهذا معناه اختيار والاختيار تفكير والتفكير ذكاء .

وإذا بحثنا عن أصل الانسان بموجب نظرية التطور فاننا سنصل الى المادة . أي أننا سنصل الى نتيجة تقول ان الانسان تطور مما هو أدنى منه . وهذه النتيجة واضحة . وبما أن الانسان يتكون من أجزاء معقدة ومنظمة ، وكل جزء من هذه الأجزاء عبارة عن نظام معقد يؤدي وظائفه وواجباته بموجب قوانين وإيعازات صارمة ، أي بما أن الانسان هو مجموعة قوانين (أي أنه نظام) ، فلا بد وأنه تنظم وتدبر واختير عن تفكير وذكاء . وذلك لأنه ، وكما قلنا ، سابقاً ان الاختيار عملية تتطلب ذكاءً . الا ان نظرية التطور تقول ان الانسان جاء مما هو أدنى منه ذكاءً وهو المادة . وبطبيعة الحال فان المادة لا تمتلك الذكاء ، ولا تستطيع أن تجري عملية التفكير المطلوبة لانتاج نظام كالانسان . وهنا نجد التناقض بين ما تقدم من بديهيات عقلية (والتي تُعتبر من نتاج التطور) وبين مبدأ التطور . فأيهما نأتمنه بأن يكون الطريق السليم المؤدي الى استنتاج أصل الانسان ، هل هو الذكاء ؟ أو ما هو أدنى ذكاءً من الانسان ، وهي المادة ؟ .

وللوصول الى الجواب الواضح ولكن بطريقة أقل وضوحاً ، نقول (وباستعمال لغة التطور نفسها) ان الانسان قد تطور الى الاحسن فامتلك العقل ، وهذا العقل يمتلك بديهيات مسلم بها ويعتمد عليها في جميع الاستقرارات العلمية التي أوصلت الانسان الى جميع أنواع المعرفة . ومن هذه البديهيات العقلية مبدأ عدم التناقض ، والذي معناه استحالة اجتماع المتناقضين

في شيء واحد وفي آن واحد . وهذه البديهية (او القانون العقلي) لا بد وان تكون أرقى ما وصل اليه العقل ، والا فليس هناك تطور ، حيث اننا اذا قبلنا مبدأ التطور فاننا نقبل ان ما هو موجود الآن يجب ان يكون أرقى شيء . اذن هذا القانون العقلي قانون راقٍ لأنه احد قوانين العقل الراقى . لذا نحن نستند على هذا العقل الراقى وقوانينه الراقية في اجراء الحكم على الأشياء (وبضمنها التطور نفسه) وحكمه أفضل الأحكام وأرقاها . ونحن تطورنا الى عدم قبول اجتماع المتناقضين ، ونحن لسنا سوى النتائج الأخير للتطور .

ماذا يقول لنا عقلنا الراقى عن مبدأ عدم التناقض ؟

انه يقول ان ما هو أدنى ذكاءاً لا يمكن أن يصنع أو يكتشف ، أو يخرج ، أو يفهم ، ما هو أذكى منه لأن في ذلك تناقض . فهو ان لم يكن الاذكى فسوف لن يعرف الاذكى (لذا فان المثل يقول : « انه يتطلب اثنان لفهم شيء واحد » ، حيث يجب أن يكون مثله على الأقل لكي يفهمه) ولذا سوف لن نستطيع ايجاده .

وأما اذا كان يعرفه فهو الاذكى ولا يمكن أن يكون ما يصنعه أذكى منه . وبكلمة اخرى ، اذا عرّف الأذكى فلا يمكن أن نقول انه أقل ذكاءاً لأن ذلك معناه اننا عرّفناه أولاً بأنه لا يملك قدرة معينة ، ثم استبعنا ذلك بالقول : ولكن مع ذلك انه يملكها ، أين انه يملكها ولكن لا يملكها في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله كما تقدم . لذا فان القول ان المادة انتجت الانسان الذي هو أرقى منها غير مقبول لانه تناقض . فنحن نقول ان المادة لا تمتلك قدرة الانسان لأنها أقل رقياً منه ولكن بنفس الوقت هي التي صنعتها . فهي لا تمتلك قدرة الانسان ولكنها تملكها ، أو تملك أكبر منها ، في الوقت ذاته ، وهذا تناقض لا يمكن قبوله . فاما أن تكون المادة لا تمتلك القدرة ، وفي تلك الحالة لا تستطيع ايجاد الانسان الذي هو أرقى منها . أو انها تمتلك القدرة ، وفي تلك

الحالة لا يصح القول ان الانسان أرقى من المادة وتطور منها . وهذا معناه ليس هناك تطور .

وهذا الاستنتاج ينطبق على القول بتطور اي كائن حي الى ما هو أرقى منه ، والذي معناه التناقض .

مبدأ عدم التناقض :

ان مبدأ عدم التناقض يجب ان يُقبل من قبل الذين يزعمون التطور لأنه ، وبموجب نظريتهم ، النتائج الأخير (لحد الآن) للتطور لأنه أحد قوانين العقل البشري الذي هو أرقى من غيره . وبما ان هذا القانون هو أفضل وأرقى ما توصل اليه التطور ، فان القول بإمكانية التطور الذي أدى الى ايجاده معناه القول بإمكانية تطوره من نقيضه لانه لا بد وانه تطور من شيء أدنى منه ، والشيء الوحيد الذي أدنى منه هو نقيضة ، لأن قانوناً أساسياً كهذا اما أن يكون صحيحاً أو خطأ . اي اما أنه هو صحيح واما أن نقيضه صحيح وليس هناك شيء بينهما . لذا يمكننا القول ان هذا القانون صحيح ، وهو ما يجب أن يكون حيث انه الأرقى ، في هذه الحالة فان ذلك معناه ان نقيضه وهو خطأ قد عاش لفترة من الزمن . ولما كان النقيض هو نتاج للتطور أيضاً فان ذلك معناه ان التطور انتج مبدأ خاطئاً ، ولا يمكن للخطأ أن يوصف بأنه تطور ، ولا يمكن أن يكون أرقى من أي شيء آخر (وهذا الشيء الآخر لا بد وأنه عاش قبله بموجب التطور) . وكذلك لا يمكن قبول ان الخطأ انتج الصحيح (فيما لو قيل ان هذا القانون الأساسي تطور مما هو أدنى منه) واذا كان مبدأ عدم التناقض خطأ فان التطور سوف لن يكون له أي معنى لأن انتاج الخطأ هو الرجوع الى الوراء وليس الى الامام . في جميع الحالات نستنتج انه ليس هناك عملية تطور نحو الأرقى ، واذا لا بد وان هناك تفسيراً آخر لحل التناقض .

ان مبدأ عدم التناقض قانون مهم جداً وهو الذي أوصل الانسان الى ما

لديه من معرفة ويجب قبوله ، وبموجبه نستنتج انه ليس هناك تطور . أما اذا رفضناه فيجب أن نرفض جميع أنواع المعرفة التي اعتمدت عليه . وفي هذه الحالة لا يمكن حتى التكلم عن نظرية التطور أو غيرها لأن نظرية المعرفة سوف تنهار بأكملها .

الصراع من أجل البقاء :

عندما قررت الخلية ارساء مبدأ الصراع من أجل البقاء كان هناك احتمالان . أما ان يؤدي هذا الصراع الى انهاء الحياة وفنائها ، أو يؤدي الى الحفاظ عليها . وكان بالامكان أن يؤدي هذا الصراع الى فناء الحياة . أي ان الكائن الحي (أو المادة) اختار هذا الطريق بالرغم من احتمال الفناء . وذلك معناه ان الكائن الحي قرر الدخول في مغامرة كان من الممكن أن تؤدي به الى الفناء . وبديهي ان هذا ليس أسلم الطرق للوصول الى الغاية المنشودة من عملية ايجاد الحياة وانبثاقها أو الحفاظ عليها . بل ان في هذا الطريق خطورة كبيرة جداً . فالكائن الحي سلك طريقاً ليس صحيحاً ولكن محفوفاً بالمخاطر . وهذا يناقض مبدأ السير في طريق التطور نحو الأرقى .

وإذا كان الكائن الحي على علم مسبق بأن العملية سوف تؤدي الى البقاء وليس الفناء ، فان ذلك ليس فقط عملاً واعياً وإنما يصحبه علم غيبي سابق للحوادث .

ولكن ، وتمشياً مع نظرية التطور والبقاء ، كان الأجدر أن يسود قانون التآخي للحفاظ على الحياة وليس قتل القوي للضعيف وسيادة القوي . لأن هذا الضعيف ربما ليس ضعيفاً ولكنه ضعيف بالنسبة للقوي وهذا لا يعني انه لا يحمل القوة في تركيبه ، كما ان ذلك لا يعني انه لا يستطيع انجاب النسل القوي القادر على خوض تجربة الحياة . وليس غريباً أن نرى أبوين ضعيفين أو قصيرين ينجبان نسلًا قوياً أو طويلاً . كما ان القصير قد يكون أكثر ذكاءً من الطويل ،

وبذلك فانه أصلح للبقاء . وهذا يبين زيف ادعاء النازية ، و (دارون) من قبلهم .

ونذكر هنا سوء الفهم عند بعض الناس عن ظاهرة انتاج بعض الكائنات الحية لاعداد كبيرة من النسل تفوق متطلبات البقاء . وقد رأينا سابقاً ان (رسل) يقول^(١) (ان جميع الكائنات الحية تتكاثر بسرعة كبيرة بحيث أن القسم الأكبر من كل جيل يجب أن يموت قبل الوصول الى العمر الذي يسمح له أن يترك نسلأ . فانشى سمكة القُد توضع حوالي ٩,٠٠٠,٠٠٠ بيضة في السنة . فاذا وصل كل النسل الى البلوغ وأنتج سمك قُد آخر ، فان البحر سيصبح صلباً خلال بضعة سنين ، بينما ستتغذى اليابسة بطوفان جديد ولكننا نرى ، في الحقيقة ، ان أجناس النباتات والحيوانات ، وكقانون ، ثابتة تقريباً ولذا يوجد ضمن كل جنس ، وبين الأجناس المختلفة ، تنافس مستمر ، وفيه تكون عقوبة الهزيمة هي الموت) . ونحن لا نفهم كيف تم التوصل الى هذا الاستنتاج من الملاحظات التي سردها (رسل) ، فهو يشير أولاً الى أن أكثر السمك يموت قبل البلوغ لانه يؤكل بواسطة الأسماك الأخرى عندما يكون صغير جداً أو لا زال بيضاً . ونحن لا نرى أين التنافس ، فليس هناك تنافس على الاطلاق . لأن بيضاً لسمك كبير قد يؤكل بواسطة سمك صغير ، فأين يكون استنتاج (رسل) ؟ ونحن نستطيع القول بكل ثقة ، وكما يتفق معنا كثير من الناس ، أن معظم هذه الأسماك الصغيرة والبيوض ، لو لم تؤكل لكبرت الى أسماك لا تختلف أي اختلاف عن تلك التي مجالفها الحظ في البقاء (لأنها لا تؤكل) . ونفس الشيء يمكن قوله عن شجرة الزيتون (على سبيل المثال) التي تنتج ملايين الزيتون خلال فترة حياتها ، والتي تستطيع أن تملأ الكرة الأرضية بأشجار الزيتون خلال بضعة سنين . فهل أن شجرة الزيتون تنتج

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ٧٣ .

الزيتون فقط للتنافس مع الأجناس الأخرى ؟ أم أنها تتجه كغذاء للآخرين ؟ وماذا عن أجناس النحل التي تعتمد على نحلة واحدة ، وهي الملكة ، للانتاج ، واذا ماتت هذه الملكة فان الملكة بأكملها تقترض ؟ ان هذه المسألة ، في الواقع ، وضعت التطورين في نهاية مسدودة . (بلييترو) يستنتج ان^(١) وضع الجنس بأكمله في وضعية حرجة وغير ملائمة كهذه في التنافس مع الأجناس الأخرى ، فان واقع أو أهمية احتمال ظاهرة كهذه ليسا مفهوميين بوضوح) . انها ليسا واضحين بالنسبة للتطورين ولكن ليس بالنسبة لغيرهم . وهذا ، وبمعية التصريح القائل ان اعداد الأجناس ثابتة ، والذي معناه انها في توازن ، يقودنا الى القول أن جميع الأجناس تزود بعضها بعضاً بالغذاء وبنفس الوقت تحافظ على التوازن . أي ان الكائنات الحية يتغذى بعضها على بعض وهي الطريقة الوحيدة لادامة الحياة والطبيعة . وبالنسبة للأجناس التي يكون نسلها في خطر (كالأسمك) ، لأن الأم لا توفر الحماية أو العناية لأطفالها ، فان الطريقة الوحيدة للحفاظ على الجنس من الانقراض هو وضع اعداد كبيرة من البيوض . والنبات يتغذى على الأرض ، أما الحيوانات فانها تتغذى على النباتات وعلى الحيوانات الأخرى . ولا يمكن تصور الكائنات الحية في الطبيعة بأجمعها ان تتغذى على الأرض فقط ، لأنها اذا كانت كذلك فان الطبيعة ستكون غير الطبيعة التي نعرفها . والطبيعة نظام دقيق وعجيب ، وتبدو وكأنها كائن حي واحد ، وتعمل بنظام معقد كالكائن الحي الواحد ، حيث فيها كل نوع من الأجناس يمتلك دوره الثابت الذي يؤديه كما تؤدي أجزاء الكائن الحي الواحد أدوارها المرسومة والثابتة .

الحلقات المفقودة :

لو نظرنا الى الاختلافات بين اثنين من الكائنات الحية التي تأخذ الترتيب

(١) انظر المصدر ١٤ ، ص ١٧ .

على سلم التطور لوجدناها كثيرة ، وليست اختلافاً واحداً . وأحياناً فان الاختلافات أكثر من التشابه . وبما ان احدهما تطور من الآخر ، أو انها تطوراً من نوع ثالث انقرض بعدئذ ، فالتوقع أن يكون الختلاف في نقطة واحدة لأن كل اختلاف يمثل طفرة . ولكن اذا كان الاختلاف بين هذين الكائنين يمثل عشرة اختلافات على سبيل المثال ، فان ذلك معناه ان عشر طفرات قد حدثت وفي كل طفرة جيل جديد قد انقرض لأسباب لم تتطرق نظرية التطور اليها ، ولا تجربتنا الى أين ذهب هذا العدد الهائل من الأجيال ، ولماذا لا توجد آثارها . (ل . س . ب . ليكي) يوضح هذه المسألة بالقول^(١) (وبدلاً من المفهوم الشائع لدى العلماء المشغولين بالبحث عن الحلقة المفقودة ، فان الحقيقة هي أن أطوالاً كاملة من السلسلة ما زالت مفقودة) . ومثال على ذلك ، الحصان والحمار اللذان ينتميان الى نفس الفصيلة ، فهناك اكثر من اختلاف واحد بينهما ، لذا فان الحلقة المفقودة بينهما ليست نوع واحد من الأجناس ، ولكن عدداً منها . الا أنه لا يوجد اثر لها لاي من هذه الأجناس .

أما اذا كانت هذه الطفرات كلها حدثت في آن واحد، كما يقترح بعض العلماء (وطبعاً هذه الطفرات حدثت بطريقة الصدفة بأجمعها) ، فان الوضع يصبح عسير التبرير على التطوريين وعسير البرهنة على وقوعه . وتطبيق نظرية الاحتمال يبين ان احتمال حدوث طفرات كهذه لكل نوع من أجناس الكائنات الحية ، أي انه اذا افترضنا حدوث الطفرات المتعددة في وقت واحد لكل جنسين متتاليين على سلم التطور على أنه مقبول واعتيادي (لأننا لا نجد الأجناس المفقودة التي تمثلها كل طفرة واحدة) ، فان قيمة الاحتمال ستتجه الى الصفر .

وإذا كانت تلك الأجيال قد انقرضت فان ذلك معناه انها لا تصلح للبقاء . وهذا تناقض مع كونها أصلح من سابقتها التي لا زالت باقية بيننا هي

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٥٨ .

انقرضت . لانه لو لم تكن سابقتها موجودة . فان ذلك معناه أن جميع الكائنات الحية يجب أن تكون منقرضة عدا الانسان (الذي هو النتاج الأخير) ، لأن الاحياء تطورت بعضها من بعض .

وقد يقول بعض العلماء ، كما رأينا في الفصل السادس ، ان الأصلح نسبياً هو الذي يبقى ، وليس الأصلح(*) . وقد رأينا كيف أن رأياً كهذا لا يمكن قبوله لأن الأصلح بالتعريف يجب أن يكون مجهزاً بخصال اكثر تمكنه من البقاء . ومثال على ذلك الانسان والأسد . فالانسان بالتأكيد ، لا يستطيع أن يعيش في البراري كما يعيش الأسد . ومع ذلك فانه الأصلح للبقاء بسبب عقله ، بالرغم من أن الأسد أصلح نسبياً من الانسان للعيش في القفر . وبدلاً من العيش في البراري فان الانسان يتحاشى الظروف غير الملائمة ويبقى .

ولا بد هنا من ذكر الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود التي يبحث عنها التطوريون منذ زمن (دارون) . حيث اعتقد العلماء ، ولفترة طويلة ، أن الحلقة المفقودة بين الانسان والقرود مجرد كائن حي واحد . وكانوا متحمسين جداً للفكرة . الا أنهم وبعد وقت طويل وجهود مضيئة اكتشفوا أن الحلقة المفقودة ليست كائناً حياً واحداً ، بل عدداً من الكائنات الحية . ولو كان احدهم قد انتبه الى الاختلافات بين الانسان والقرود ، وليس فقط التشابه ، لرأى ذلك وبكل بساطة .

والآن فانه من الواضح لكل فرد أن الاختلافات بين الانسان والقرود جلية في المظهر والهيكل العظمي والقابليات والعقل والنسل الخ . و (كلين ج . ستركلاند) يشير الى انه^(١) (ليس هناك جدال في انه توجد حوالي

(*) الاصلح نسبياً هو الذي يمتلك بعض الخصال الافضل ، اما الاصلح فهو الذي يمتلك كل الخصال الافضل .

(١) انظر المصدر ٣ ، ص ٢١ .

دزيتان(*) من الحلقات في سلسلة التطور بيننا وبين البروكونسول (**). ويزعم التطوريون الآن أن هناك عدداً قليلاً من الكائنات الحية بيننا وبين القرود . ولكن في الواقع توجد بيننا وبين القرود اختلافات أكثر مما يتضمنها هذا الادعاء ، لأنه توجد اختلافات كثيرة بين كل اثنين من هذه الكائنات المزعومة . ونظرية التطور لا تستطيع تفسير أسباب عدم وجود أي أثر لهذه الأحياء ، ولا تذكرها أو تتطرق إليها . والنظرية تتحداها صعوبة حقيقية في هذه المسألة . وقد بينت الأدلة الحديثة أن النظرية بأكملها خاطئة . وهذه الأدلة الجديدة تشير الى ان الانسان ظهر فجأة على الأرض . وهي شيء أقرب الى الحقيقة التي يتقبلها العقل بموجب الاستعدادات الكامنة فيه .

سلطان الزمن والتطور :

للزمن سلطان مطلق على الحياة الجديدة في الخلية . فالخلية تحيا ثم تموت بعد فترة زمنية معينة . ولم تفسر نظرية التطور هذا السر المجهول الذي جعل للزمن هذه القدرة على افناء الحياة الجديدة المنشودة . فالخلية تكبر وتموت وتنتهي وكأنها لم تكن ، لذا فانها تضع الحياة في المولود الجديد . ولكن لماذا ان العمر يجعل الكائن الحي غير قادر على الاستمرار بالحياة بينما يستطيع المولود الجديد أن يعيش لفترة أطول ؟ ان نظرية التطور لا تعطي تفسيراً مقنعاً . وهذه المسألة تصبح ذات أهمية اذا عرفنا أن نفس النوع من الأجناس يمر خلال أجيال عديدة ، تعيش ثم تموت ، قبل أن تحدث طفرة واحدة . وبعض هذه الأجناس تتكون من خلية واحدة . ولكن لماذا ان الشغل (أي الحياة) يُعجز الكائن الحي عن العيش بمرور الزمن ؟ ولماذا لم تتطور الخلية الاولى ، او الأحياء الأخرى ، لكي تستطيع مقاومة الزمن ؟ .

(*) الدزينة = اثنا عشر .

(**) يقصد القرود .

وطبعاً ان الخلية الام لا تُسَلَّم الحياة كلها للكائن الجديد لانها لا تموت حال انبثاق النسل الجديد . ولكنها تعطيه حياة اخرى من نفس النوع الذي تحمله ، وفي الحقيقة أنها صورة كاملة من الحياة التي تحملها ، فالنسل الجديد يحصل على نسخة من حياة امه . أي يحدث استنساخ وليس انتقال للحياة ، لان كمية الحياة ونوعيتها لا ينقصان في الأم عند مجيء النسل الجديد ، والعملية ليست انتقال كامل للحياة من الخلية الأم الى النسل الجديد .

الحياة في الخلية الأم تفتى عند موت الام ، ولكن الحياة في النسل الجديد تبقى الى وقت آخر . ويبدو وكأن الزمن والحياة متناقضان أو عدوان ، فحالما تولد الحياة الجديدة يبدأ تأثير الزمن عليها لقتلها . وهذه الظاهرة الملفتة للانتباه ، بسرها المجهول ، شيء لم يلتفت اليه التطوريون ولم يتتوا فيه .

ونرى أيضاً أن الحياة في هذه الخلية الجديدة (التي تمثل النسل الجديد) انبثقت الى الوجود من العدم^(*) (لأن الحياة فيها استنساخ وليس انتقال) ، نراها ولدت مهزومة ومستسلمة لسلطان الزمن الذي يقتلها لا محال . فلم لم تتطور باتجاه مجابهة الزمن وليس الاستسلام له والهروب امامه والاندحار؟ ففي كل مرة تنجب الخلية نسلأ جديداً يولد هذا النسل مهزوماً أيضاً من قبل سلطان الزمن . واذا قلنا أن الكائن الحي يتطور دائماً ، فان ذلك معناه ان هذا الكائن يتطور بنفس الوقت الذي هو مهزوم فيه .

والسؤال هنا ، ما هو هذا العداء الذي يناصبه الزمن للحياة ؟ وما هو سره وسببه ؟ ولم لا يؤثر على المادة فيفنيها ولكنه يؤثر على الحياة فيفنيها ؟

لقد قطعت الخلية الحية شوطاً كبيراً في تطورها (بموجب نظرية التطور) وفي مقاومتها للظروف والبيئة حتى وصلت الى الانسان ، ولكنها تركت موضوع

(*) ليس هناك عدم بموجب تفسيرنا ، (انظر الفصل الثاني عشر) .

التطور لمقاومة الزمن واستسلمت له بشكل منقطع النظير ، فما هو السر في ذلك ؟ .

هناك تفسيران لهذه الظاهرة :

الأول ، ان الحياة استسلمت لسultan الزمن الذي فرض وجوده على الكائن الحي ووضع نظاماً لقتله لسبب مجهول ، ولم تستطع المادة التي أوجدت الحياة أن تساعد تلك الحياة للتغلب على هذه المشكلة . عندئذ يجب أن يكون الزمن أرقى من المادة في سلم الوجود . ولكن الزمن يستمد وجوده من المادة لأن المادة عبارة عن طاقة متجمعة وتشع الضوء الذي هو طاقة ، والذي يعتمد عليه الزمن (**). اي ان الزمن أرقى من المادة التي يستمد وجوده منها والتي يفنى بفنائها . وهنا نصل الى تناقض كما هو واضح ، اذ كيف يكون الزمن أرقى من المادة وبنفس الوقت يعتمد وجوده عليها ؟

الثاني ، ان المادة هي التي فرضت هذا القانون على الكائن الحي حال انبثاقه فجعلته متأثراً بالزمن وفرضت عليه الموت كما فرضت عليه الحياة . وفي هذا تناقض مع الغاية المنشودة في البقاء والتطور . ولحل هذا التناقض لا بد من وجود تفسير آخر لظاهرة الحياة غير التفسير الذي تزعمه نظرية التطور .

النوم والموت :

من المعلوم أن النوم فقدان للوعي وتقليل للحركة والفعاليات الحياتية الى الحد الأدنى ، والنزول بالحياة الى أدنى مستوى . ويبدو أن هذا نوع من الموت المؤقت ، وخسارة للوقت . وكان على الخلية الحية أن تتطور لمنعه لا للاحتياج اليه . وكان على الكائن الحي أن يتطور لاستغلال هذا الوقت الضائع للحياة والتكاثر والتطور ما دام انه ولد ليحيا لا ليموت . لماذا كان على الكائنات الحية

(**) انظر الفصل العاشر .

أن تتوقف عن الوعي (ويعنى آخر عن العيش) الجزء لا يستهان به من عمرها؟ ألم تستطع أن تتطور للتخلص من هذه الظاهرة التي هي بمثابة موت مؤقت ؟

الملاحظ ان فترة النوم طويلة جداً وتقارب نصف عمر الكائن الحي في معظم الأجناس الحية . والنوم ليس من الحياة في شيء لأن الكائن الحي غير فعال خلاله ، وبالأحرى فانه أقرب الى الانقراض لأن فقدان الوعي يجعل الكائن الحي فريسة سهلة لأعدائه . واذا كان الكائن الحي وُجِدَ ليبقى ، لماذا ينام لفترات طويلة من الزمن ؟ ألا يصح القول بانه وُجِدَ لينام (اي يموت) بدلاً من أنه وجد ليحيا طالما أن فترة النوم مساوية تقريباً ، أو أطول أحياناً من فترة اليقظة والوعي ؟ وفي هذه الحالة تصبح الحياة ناتجاً عرضياً ، وتنهار نظرية التطور حيث لا يصبح هناك موضوع لها .

أما مسألة الموت فانها سر غريب . فاذا كانت الخلية وُجِدَت لتبقى وتحيا فلم الموت ؟ واذا كانت الخلية قد وجدت لتسير بمسار يوصلها الى شاطئ السلامة والرقى لا بد وأن تكون الخطوات التي تسير فيها كلها تؤدي نحو هذا الغرض ، ونحن لا نرى كيف يكون الموت من هذه الخطوات لأنه الفناء، وهو بالضبط عكس الغاية المنشودة نحو التطور والرقى . فماذا حدث لتأخذ الخلية هذا الانعطاف الانتحاري الذي يقوّض كل الغايات والجهود المُستثمرة في سبيلها ؟ ويا ترى لماذا سمحت المادة بهذا الانهيار الكامل والتحول العكسي عن الغاية ؟

التوازن في الطبيعة :

الكائنات الحية متوازنة في الطبيعة بطريقة دقيقة ومحكمة بحيث لو أن نوعاً واحداً اختفى لاختل التوازن ولأدى ذلك الى الاخلال بعملية التطور والحياة بطريقة أو بأخرى . وعلى سبيل المثال ، أما ان تموت بعض الأجناس لأنها تتغذى على النوع الذي اختفى ، أو ان أجناساً أخرى ستتكاثر وتطغى لأن

الجنس الذي كان يتغذى عليها اختفى . وظاهرة كهذه سوف تسبب سلسلة من التغيرات التي قد تولد وضعاً جديداً متوازناً ، وقد يكون التغير الكلي فيه الى الدرجة التي تنتج جنساً مهيمناً جديداً .

ان الكائنات الحية تبدوا في توازن عجيب جعلها كما هي عليه . وأكثر من ذلك انها تمتلك وسائل الدفاع عن نفسها على شكل تكيف وما شابه بحيث انها دائماً تحاول الحفاظ على أجناسها من الانقراض . وعلى أي حال ، فان بعض الكائنات موجودة منذ ملايين السنين بينما انقرض بعضها . وقد بينت الاكتشافات الجيولوجية ان الأجناس التي انقرضت لم تختف من نفسها ولكن كانت هناك عوامل خارجية مسؤولة عن فنائها . والسؤال هنا : هل ان هذا التوازن صدفة أيضاً ؟ هل أنه حظ ؟ أم أن هناك صانعاً يعين الأدوار لكل جنس من الأجناس للحفاظ على هذا التوازن كما هو ، او أن هذه الأجناس تتطور بأسلوب محدد سلفاً للحفاظ على التوازن الصحيح والظروف الملائمة للكائن الحي المهم الوحيد لكي يتطور الى أرقى مستوى ، وهو الانسان ؟

وقد يخطر على البال انه بالنسبة للطبيعة ، أو المادة لكي تعبد الطريق للانسان لكي يتطور الى شيء أرقى معناه ان المادة سخرت كل شيء لخدمة الانسان لكي تمضي عملية التطور الى الامام . ويتضح ، اذا كانت الحالة كذلك ، ان هناك اهتماماً واعياً بالانسان باعتباره الغاية المنشودة أو الحلقة الحاضرة نحو الغاية المنشودة . ويتضح كذلك أن المادة طورت وهيأت الظروف لخدمة كائن حي واحد ، بدلاً من تطوير كل ، أو بعض ، الأجناس الأخرى للاحتياط ، فاذا لم يكتب النجاح لاحداها فان الأخرى سوف تمضي بالأمانة وتحملها .

وقد تفقدنا ملاحظة التعقيد الذي تطورت اليه الكائنات الحية ، سواءاً بايولوجياً أو اجتماعياً ، وكيف أن الحفاظ على الحياة مهم (حيث في الواقع أن

فعاليات الكائن الحي متمركزة كلياً تقريباً على تحاشي الموت والحفاظ على الحياة) الى التساؤل عن السبب الذي جعل المادة تركز على كائن حي واحد . أم أنها كانت تعلم مسبقاً أن هذا الكائن سوف لن ينقرض !!

إذا كانت الكائنات الحية قد تطورت عشوائياً بدافع من ذاتها ، لماذا اذن وصل احدها فقط الى المستوى الاعلى (الانسان) ؟ أليس المفروض أن نرى أجناساً أخرى متطورة أيضاً كما تطور الانسان ، خاصة وانها تعيش في نفس بيئة وظروف الانسان ، أو بيئة وظروف مشابهة لها ، وليس هناك ما يمنعها من أن تفعل ما فعله الانسان ، ولكن ربما بطريقتها الخاصة ؟ فليس هناك ما يدل على أن الظروف كانت ملائمة للانسان فقط لكي يتطور . كما انه ليس هناك ما يبرر تطور الانسان وحده الى هذا المستوى المتقدم ، وليس هناك أيضاً ما يشير الى أن الانسان أوقف الاحياء الاخرى من التطور أو اعاق تطورها بشكل من الأشكال .

وراثه العلم والمعرفة :

ان العقل الواعي هو أعلى مستوى على سلم التطور . ويحتوي هذا العقل ، وبواسطة الاكتساب ، على معلومات كثيرة تسهل للانسان حياته الاجتماعية وطريقة معيشته وتعطيه أسباب الصحة والراحة . وقد تخطر على البال فكرة هي أن وراثه النسل الجديد لهذه المعرفة من الأم شيء جيد ومفيد . وبالتأكيد فانه يساهم كثيراً في دفع عملية التطور الى الامام وخدمة الانسانية . فلو تصورنا أن علم (نيوتن) او (اينشتاين) أو غيرهما من العلماء والفلاسفة والمفكرين تُوِّرث بواسطة ابنائهم ، كم كانت ستساهم في تقدم الانسان في الاتجاهات العلمية والفكرية المختلفة ؟ ولو كانت الحالة كذلك لكان عالمنا يختلف عن العالم الذي نعيشه الآن كلياً ، ولربما كنا قد وصلنا الى غزو الفضاء بصورة اكبر لفائدة الانسان الآن .

ان طفل الانسان يولد مع المعلومات الأساسية الغريزية فقط ، وفي كل مرة يقوم الانسان بتربية الطفل الصغير وتعليمه كل شيء . وفي ذلك ، وكما نشاهد ، خطورة كبيرة . حيث يتررب الأطفال وتتم برمجة عقولهم على أفكار متناقضة من معتقد لآخر ، أو من دولة لأخرى ، مما يسهل استعمارهم في الحروب والدمار ، بدلاً من أن يرثوا العلوم بصورة غريزية . ولو كان الانسان يرث العلوم كما يرث الغرائز لما تحولوا الى مجتمعات متحاربة ، بل لكانت النتيجة ، وبموجب نظرية التطور ، أن يتكون مجتمع انساني واحد كبير يسير نحو الغاية التطويرية المنشودة . ولقام النسل الجديد بطفرات جديدة في التطوير والاسراع في هذه العملية في كل مرة حيث يضيف معلومات جديدة الى المعلومات الموروثة ، بدلاً من أن يقضي حياته لتعلم ما انتج آباؤه وتبذير الوقت والجهد ، لانتاج القليل في النهاية . ولما كان العقل الواعي عند الانسان يستطيع ادراك هذه الحقيقة ، ألم يكن الأجدر به أن يسلك هذا السلوك تلقائياً كجزء من العملية التطويرية التي أنتجتة ؟ فلماذا لم يسلك هذا السلوك اذا كان هناك تطور واذا كان هو نتاج لهذا التطور ، حيث عليه حمل الأمانة واعطاؤها الى الحلقة التي تليه في السلم كما فعل أسلافه من قبل والذين أدوا الأمانة بكل اخلاص الى أن تم انتاجه ؟

وثمة مسألة اخرى تلك ان الانسان (والحيوان أيضاً) يرث العلوم والمعارف الغريزية ، ولكنه لا يرث العلوم والمعارف المكتسبة . وهذه العلوم المكتسبة انما سميت مكتسبة لأنه لا يرثها ، ونحن نرى انه اذا كان هناك تطور لكان سار في طريق تمكين الانسان من وراثه هذه العلوم أيضاً . ولا نرى من مانع في ذلك ، طالما أنه يرث المعارف الأخرى التي نسميها غريزية . بل بالعكس ان ذلك يسير بالضبط نحو الغاية المنشودة وفي طريق التطور . ولكن لم يحصل شيء من ذلك . وقد نتساءل لماذا ان المادة ، أو الحياة ، أو عملية التطور ، غفلت عن هذه الميزة المفيدة ؟

استنتاج :

نظرنا في هذا الفصل الى بعض المواضيع التي تخص الكائن الحي ، مثل غاية التطور وفكرة الصراع من أجل البقاء ، والنوم والموت ، وغيرها من الظواهر . فوصلنا الى النتائج التالية :

- ان نظرية التطور لا تستطيع تفسير هذه الظواهر تفسيراً مقبولاً ومعقولاً .

- ليست هناك أي فائدة ايجابية حصلت عليها المادة من عملية التطور ، ووجدنا ان المادة لم تكتسب شيئاً من هذه العملية بل أن الشيء الوحيد هو أنها استُعِدَّت .

- ان مفهوم الصراع من أجل البقاء يناقض نفسه بنفسه ولا يمكن قبوله من وجهة النظر الفلسفية .

- ان مفهوم التطور نفسه يحمل نقيضه فيه ويناقض بديهيات العقل الأساسية ولذا لا يمكن قبوله كمفهوم لتفسير ظاهرة الحياة العجيبة .

الفصل الثامن

الانسان والتطور :

لقد اعتقد (دارون) ان الانسان تطور تدريجياً كما تطورت الحيوانات الأخرى . وظهرت عدة نظريات زعمت أن أسلافنا كانوا كالقردة . وقادت نظرية التطور كثيراً من العلماء الى الاعتقاد بأن الانسان ليس سوى حيواناً آخر من فصيلة القروود العليا ، ولكنه اكثر تطوراً منها . وظهرت تعابير مثل « الانسان حيوان ناطق » نتيجة لذلك . ولكن الأدلة الحديثة بينت أن هذه الأفكار كانت قد طرحت على عجل نوعاً ما وبدون ترو .

وكان الاعتقاد بحيوانية الانسان مسألة لا جدال فيها بالنسبة لبعض الناس . (ديزموند موريس) يقول انه (١) «لن الواضح انه قرد من نوع ما ، ولكنه من نوع غريب فمجموعة القروود التي ينتمي اليها قردنا العاري(*) ظهرت في الأصل من خزين اللبائن التي كانت من نوع آكلات

(١) انظر المصدر ١١ ، ١٥ - ١٦ .

(*) يقصد الانسان لانه ليس على جسمه شعر كثيف كبقية القروود .

الحشرات البدائية . وهذه اللبائن الاولى كانت مخلوقات صغيرة وغير مهمة وتتقَفَّرُ بعصبية في أمان الغابات وفي الزمن الغابر قبل ما بين خمس وعشرين الى ثلاثين مليون سنة ، كانت الحيوانات ما قبل القروود قد بدأت تتطور الى القروود الفعلية وبمرور الزمن أصبحت هذه الشبه - قروود اكبر وأضخم . وبدلاً من الركض والتقفز المرح فانها تبدلت الى المشي باستقامة ، هازة يداً فوق يد على طول جانبيها ، وقد انقرضت أذيالها) . يا لها من قصة أشبه بقصص الأطفال . فالى هذا الحد وصل بعض الناس في خيالهم بدون أي أدلة علمية تسند تصوراتهم هذه . ويؤكد (ديزموند موريس) مرة اخرى على حيوانية الانسان ، وان طريقة معيشتنا جاءت خلال التغيرات البيولوجية وليس الثقافية ، فيقول (١) غاية ما يحتاجه الفرد لكي يرى انها هكذا (***) هو النظر الى سلوك جنسنا في الوقت الحاضر . والتطور الثقافي اعطانا تقدماً تكنولوجياً مدهشاً أكثر فاكثر ، ولكن كلما تعارض هذا مع خصائصنا البيولوجية الأساسية فانه يلاقى مقاومة قوية . ونحن نحني رؤوسنا بتكرار أمام طبيعتنا الحيوانية ، وضمنياً نعترف بوجود وحش معقد يضطرب في داخلنا) . وبطبيعة الحال فاننا لا نتفق مع هذه الملاحظات كلياً ، ونعتقد بوجود تفسير آخر لها . وهي تحدث في المجتمعات الأوربية ولكن لا تحدث في المجتمعات غير الأوربية كلها ، وهي تخص غرائز الانسان فقط . و (ستينز) يؤكد ان (٢) مقارنات حديثة تم اجراؤها بين التراكيب الكيميائية لبروتينات الانسان والبروتينات المناظرة لها في القروود . وهذه المقارنات بينت ان الانسان والشمبانزي والغول تحمل تشابهاً قريباً من بعضها بعضاً بالنسبة لهذه المواد الكيميائية الأساسية للجسم وهذه الأدلة تسند بقوة النظرية القائلة انه في مرحلة ما من

(١) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(**) اي حيوانية .

(٢) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

تطورهم كان اسلاف الانسان حيوانات تشبه القروذ وهذه النظرية توافق تماماً أدلة المتحجرات الحديثة) . وهكذا فان العلماء يصنعون نظريات عملاقة كهذه ، بالرغم من قلة أدلة المتحجرات ، فقط لكي يقوم البرهان على خطئها بعد وقت قصير . و (ستر كلاند) يقول (١) ولكن نِتْف (*) الحقائق في حقل علم طبائع البشر وحدها من التفاهة بمكان بحيث لا يمكن جمعها لاعطاء أي فكرة عن الصورة الكبيرة مهما دورنا هذه النِتْف أو مططناها) و (ل . س . ب . ليكي) يشير الى أنه (٢) توجد مدرسة فكرية واحدة تعتقد أن الانسان ، وخلال مسار تطوره ، مر خلال مرحلة كانت فيها أيديه طويلة ، كتلك التي تلاحظ في الشمبانزي والغول ، ولكن الأدلة التي تسند هذا الرأي بدأت بالانهيار .

الأدلة الحديثة الآن تبين أن التطور التدريجي لم يحدث ابداً . فالأنواع تظهر على شكل سلالات كاملة وليس ككائنات حية منفردة تتطور ، وأسلافنا لم يكونوا قرودة أو ما شابه ذلك . ولم يستطع العلماء أن يجدوا أي أدلة تسند الرأي القائل أنهم كانوا قرودة . وقد ذكرنا سابقاً (ان (روث مور) تعترف ان (٣) كل واحد من هذه المجموعات (اي مجموعات الأجناس) تختلف عن جميع بقية المجموعات . وتوجد لا استمرارية ، أو فجوة ، بين حتى أقرب التجمعات) . و (كودمان) يقول (٤) من ناحية الانسان الحديث ، فان تغيرات جذرية كهذه تفتح الطريق أمام نظريات أخرى لأصل الانسان ، ضمن اطار التطور أو غيره . . . والتخلليون (***) يقولون ان الانتخاب الطبيعي لا يلعب أي

(١) انظر المصدر ٣ ، ص ٩ .

(*) جمع نِتْف ومعناها الشيء القليل .

(٢) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٢١٩ .

(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٧ و ١٥٠ .

(**) قسم من العلماء الذين يقولون ان التطور يتكون من ظهور الاجناس الذي تتخلله فترات طويلة بلا تطور .

دور في أصل الأنواع ولكنه يدخل في مرحلة لاحقة للتأثير على نجاحها البيئي . وبكلمة أخرى فان ضغط المحيط ينتخب جنساً بأكمله لكي يموت أو يتعش ، وليس كائنات حية منفردة كما أكد « داروين » . وفي هذا الرأي ، فان الانتخاب الطبيعي للأفراد يُنظر اليه على انه يسبب تغيرات تطورية صغيرة فقط ضمن الجنس « تطورات مجهرية » ، وليس التغيرات الكلية التي تسبب بروز جنس جديد «تطورات عملاقة» .

وفي الوقت الحاضر فان على العلماء أن يتعاملوا مع مشكلات أخرى لنظرية التطور كانوا قد ورثوها من سابقهم . (كلين ج . ستركلاند) يعترف (١) بأننا اليوم لسنا متقدمين كثيراً . فنحن عندنا أسلاف شبه - قرود في جانب واحد من الفجوة وعندنا أنفسنا في الجانب الآخر . وهذه الفجوة مقدارها عشرون مليون سنة) . و (بيجورن كرتن) يشير الى ان (٢) بقايا الكائنات التي شبه الانسان - القرد قليلة ، وبصورة عامة فانها متأخرة أيضاً من ناحية الزمن الجيولوجي) . وبسبب هذه الحالة من ندرة أدلة المتحجرات ، وبسبب ايمان العلماء بتطور الانسان من القروود فقد ظهرت نظريات عديدة ، ثم تبين أنها كانت كلها خاطئة . وقد بينت أدلة المتحجرات أن الانسان الحديث ظهر على الأرض منذ ما يقارب الـ ٣٥٠٠٠ - ٤٠٠٠٠ سنة فقط . وقد شكل ذلك مشكلة حقيقية بالنسبة للتطوريين ، ولذا فقد غير كثير منهم آراءهم . و (رُوث) تشير الى أنه (٣) حتى في المراحل الاولى فان الطريقة الجديدة في اختبار التاريخ «بواسطة الكاربون ١٤ او الاشعاع الكاربوني» اشارت أيضاً الى

(١) انظر المصدر ٣ ، ص ٨ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ٤ .

(*) الأدلة الحديثة جداً تبين أن الانسان موجود على الأرض لفترة اكثر من ذلك (حوالي ١٥٠٠٠٠ الى ٢٠٠٠٠٠ سنة) .

(٣) انظر المصدر ١ ، ص ٨ .

أن الانسان أحدث مما تجرأ العلم على أن يتصوره وقد أشارت التجارب الفذة ان الانسان قد يكون تغير بسرعة اكبر مما اعتقد دارون) . ومن ثم فانها تعطي صورة التطور بوضوح كما يلي : ^(١) إذا كان الانسان موجوداً لفترة قصيرة ، فهل كان باستطاعته أن يتغير بالمقدار الكبير الذي تبينه المتحجرات ؟ هذا السؤال أساسي ، وفي النهاية فان نظرية التطور أما أن تقف او تنهار بالاجابة عليه . فأما أن يكون التطور ممكناً في الوقت الذي استغرقه ، أو أنه مستحيل) . و (بيجون كورتن) يجيب على سؤال كهذا بالقول ^(٢) ان ظهور الانسان الحديث في أوروبا قبل حوالي ٣٥٠٠٠ سنة كان فجائياً ، وليس هناك انتقال معروف من انسان النياندرتال الى أولئك الذين هم أناس حديثو - الهيئة) . ولذا يتضح أنه ليس هناك تطور . و (ستركلاند) يؤكد أنه ^(٣) بسبب الطريقة التي يعمل بها التطور فان تطور جنسنا بالمقدار الذي تطورناه عبارة عن قضية مستحيلة من الناحية الجسمية اذا كان خط أسلافنا المباشر قد عاش في ظروف اعتيادية . وهذه الحقيقة يجب أن تكون قضية لا جدال فيها ، وان رفض قبول هذه الحقيقة كان سبب التشويش الكثير الذي اكتنف عصورنا التي ما قبل التاريخ) . و (مور) تستشهد بالدكتور (شيرود ل . واشبورن) بالقول ^(٤) ان هذا الوضع الجديد قد أطلق عليه اسم التفاهة الرياضية والاحصائية . لانه اذا كان كل واحد من الاختلافات بيننا وبين الانسان - القرد مبنية على أساس عنصر منفصل من التركيب الجيني للفرد فانه في الواقع سيكون من المستحيل تغير الانسان - القرد الى الانسان الحديث في الزمن الذي تشير اليه السجلات الفعلية) . ومع طرح هذا النص ، وليس لسبب علمي ولكن لمجرد

(١) نفس المصدر ، ص ٢١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢١ .

(٣) انظر المصدر ٣ ، ص ٢٢ .

(٤) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٣ .

الايان بالتطور ، فان (مور) ، وكباقي العلماء ، متمسك باعتقادها بانه كان باستطاعة الانسان ان يتطور خلال ٤٠٠٠٠ الى ٥٠٠٠٠ سنة فقط ، والذي هو وقت قصير جداً في الواقع ، فنقول (١) اذا كانت هناك فعلاً تغيرات جينية قليلة ضرورية ، واذا كان التطور قد تحرك بسرعة احياناً ، فان التقدم من الانسان - القرد الى الانسان ليس غريباً أن يكون قد وقع خلال مليون سنة ، وليس غريباً أن تكون الترتيبات النهائية قد حصلت خلال الخمسين الف سنة الماضية) . ولكن المشكلة هي أن التغيرات الجينية ليست قليلة ، فالفروق بين القرد والانسان فروق أساسية وجذرية . ولكن مع ذلك فان العلماء يؤمنون بالتطور ، لأنه بدون التطور فانهم سيفقدون في نهاية مسدودة . ولذا فان الأمور يجب تبريرها ، ولكن سواءً كان هذا التبرير صحيحاً أم خطأ فانها مسألة أخرى . و (مور) تقول (٢) ولذا فان واشبورن اقترح طريقة للخروج من مازق الزمن . فتغيرات جينية قليلة نسبياً مع الانتخاب الطبيعي بامكانها تحويل الانسان القرد ذي الخطوات الحرة والدماغ الصغير ، الى أناس اليوم الحُرِّي الخطوات أيضاً ولكن بأدمغة أكبر . وبهذه الطريقة كان انجاز التطور خلال فترة أقل مما يسمح به الحساب الجديد للزمن ممكناً) . وبطبيعة الحال فانها ليست متأكدة من ان التطور قد حصل فعلاً . ولا يمكنها أن تكون متأكدة على أي حال . والمسألة ليست مسألة دماغ كبير فقط ، لانها ليست مسألة أكوام من الخلايا الحية . فالفيل أضخم من الانسان ولكن مع ذلك فان الانسان اكثر تطوراً من الفيل . ان المسألة هي مسألة القابلية ، ومسألة العقل كعضو فعال ، وليس كمية أكثر أو أقل من اللحم . وكما سنرى قريباً ، فان (كودمان) يلفت الانتباه الى أن الذي يصنع الانسان ليس حجم الدماغ . ولكنها القابليات العقلية .

(١) انظر المصدر السابق ص ٤١٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤١٢ .

(و (كورتين) يجلب الانتباه الى حقيقة معاكسة لرأي (مور) . فهو يقول (١) في تلك الحالة يجب أن يكون الانسان القديم شبيهاً بالقرود أكثر فأكثر عند رجوعنا بالزمن الى الوراء . ولكن لدهشتنا انه لم يكن كذلك . وفي الحقيقة فان مصطلح « الانسان - القرد » خادع لتصوراتنا عن الانسان القديم وفي الواقع نحن نشك بأن هيئة أسلافنا كانت على شكل ما يطلق عليه القرد على الاطلاق وأمامنا الخطوط العريضة لمشكلة رئيسية . ففي كل مكان تقريباً نجد انسان النياندرتال والانسان القديم كلاهما استُبدلا فجأة بالانسان الحديث . والأكثر من ذلك ، فان هؤلاء الغزاة الجدد يمتلكون خصلات نوعية مختلفة ، والتي لا بد وأنها استغرقت وقتاً ليس بالقصير لكي تتطور . ولكن اين بدأ أصل الانسان الحديث ؟) . وتعترف (رُوث مور) انه (٢) على ضوء الفهم الجديد هذا ، فان كثيراً مما كان يُدرّس عن زمن الانسان وتطوره يجب أن يتغير الآن . فالكتب الجديدة يجب أن تكتب والمناهج الدراسية يجب أن تراجع) . ومرة أخرى تنهار نظرية التطور . ولذا فقد ظهرت نظريات جديدة بينما تم التخلي عن النظريات القديمة . و (ليكي) يقول (٣) انني شخصياً ، بالاشتراك مع الكثيرين من الآخرين ، لدي اعتقاد قوي ان الانسان ربما تطور مباشرة من كائن ذي أربع سيقان الى كائن ذي ساقين بدون تطوير ايدي اضافية طويلة) . ولكن (كورتين) لا يتفق مع ذلك ، فهو يقول (٤) احدى النظريات تقترح ان الانسان الحديث تطور محلياً من انسان النياندرتال في الشمال ، ومن انسان السولووتل - بروكن في الشمال . وقد يمكن وضع نظرية لذلك ، ولكنني لا اجد

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٤ و ١٢٧ .

(٢) انظر المصدر ١ ، ص ٤٢٧ .

(*) يقصد الانسان الذي غزا سهول الأرض .

(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٧١ .

(٤) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٢٧ .

بُداً من الاعتراف بأنني لا أرى ذلك مقنعاً . فالتغير كبير جداً والزمن قصير جداً وليس هناك ما يشبهه في الأزمان الغابرة أو في ترتيب سلالات التطور .

لقد وقع العلماء بأخطاء جمة بسبب اسراعهم في طرح نظرياتهم التي تبين مرة اخرى ، وأخرى ، انها خاطئة . وقد اخطأوا حتى في التعرف على المتحجرات . و (واشبورن) يذكر ان انسان النياندرتال نفسه قد لا يكون سوى غولاً أو قرداً . و (مور) تذكر ان الدكتور واشبورن بنى تخيمه في منطقة القروود لدراسة العضلات والعظام في القروود ، فوجد أن (١) بعض الجماجم مخددة بحافات عظيمة عبر الجبهة ، وهذه كانت حافات عظيمة حول العيون ، وأنف عريض ومسطح جداً . ولكن بعضها كان يمتلك منحنيًا ناعماً . « ولو ان هذه الجماجم كانت قد وجدت كمتحجرات » ، يقول واشبورن ، « لكانت مغرية للفرد لان يسمي الأولى رجل بكين - القرد والثانية انسان حديث . ولكنهما في الواقع كانتا من نفس الجنس وعاشتتا في نفس الوقت تماماً) . و (ليكي) يقول (٢) لو نفحص ونقارن عدداً من الجماجم التي تعود الى بعض أجناس الانسان الحية المعروفة أكثر من غيرها فاننا سوف نندهش في الحال للاختلافات العظيمة بينها ، سواءً نظرنا اليها من الجوانب أو من الامام أو من الاعلى . ويمكن ملاحظة ان حُجرة الدماغ أو القحف تتغير تغيراً معتبراً بين أمثلة نموذجية من جنسين مختلفين ، بينما يوجد اختلاف بدرجة أقل بين جماجم الأفراد الذين ينتمون الى نفس الجنس الواحد) . و (كرتن) يؤكد على ان (٣) الانسان لم يرتق من القروود) . وكذلك يقول (كودمان) (٤) يوجد تداخل معتبر في المدى الجمجمي بين انسان النياندرتال والانسان الحديث وفي الحقيقة بعض أدمغة

(١) انظر المصدر ١ ، ص ٤٠٩ .

(٢) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٦٣ .

(٣) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٥٩ .

(٤) انظر المصدر ١٠ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

النياندرتال كانت أكبر من دماغ الانسان الحديث والقفزة النوعية في قابليات الانسان الحديث بالمقارنة مع انسان النياندرتال تبين ان الشيء الذي يصنع الانسان ليس فقط حجم الدماغ ولكنه تركيب الدماغ . ونحن نرى ، وبتكرار ، ان حجم الدماغ والذكاء لا يرتبطان بالضرورة ، فها هم مفكرونا العظام يأتون من كلا الطرفين لمدى الحجم الجمجمي (١٠٠٠ الى ٢٠٠٠ سم) . و (كرتن) يذكر أن (١) المنظمين الزيولوجيين اصبحوا الآن واعين تماماً وحذرين من زيادة تعقيد قائمة مجموعة المصطلحات الرسمية بأسماء جديدة على أساس غير كاف) . والجماجم التي كان يُعتقد أنها تطورت بعضها من بعض تبين أنها عاشت خلال نفس الفترة ، ولذا كان هناك كثير من التناقض والغموض حول أصل الانسان ، وقد وضعت النظريات ، وتلتها أخرى ، بنوع من العجل اليائس ، أو بنوع من الخيال الضارب لبعض الناس حيث أصبح التطور نوعاً من الموضة ومن لا يعتقد به فهو ليس مثقفاً أو علمياً ، فالاعتقاد بالله والخليقة أصبح دليل التأخر . وبالرغم من أن العلماء صوروا لنا العلاقة بين القرود والانسان على أنها حقيقة ، فان الواقع كان دائماً يشير الى انه لم يكن أحد من اولئك العلماء متأكداً من مزاعمه ، ولم يكن أحد منهم يعرف الجواب . ولم يكن الموضوع سوى اعتقاد غير مبني على العلم . ولم يفعل العلماء سوى عرض اعتقاداتهم علينا بطريقة خادعة ومملوءة بالغش ، فقد بينت الأدلة ان الانسان ظهر فجأة على الأرض ، وان الانسان القديم الذي كانوا يعتقدونه قرداً لم يكن سوى انساناً آخر لا يقل ذكاءاً عن الانسان الحديث ، وقد عاش في مجتمعات تشبه مجتمعاتنا ، وقد استعمل الرياضيات وعلم الفلك وحياسة الأقمشة وغيرها . أي انه لم تكن هناك قرود تشبه الانسان ، او انساناً يشبه القرود كما زعموا . وقد عاش الانسان القديم وانقرض قبل ظهورنا على الأرض بزمان طويل . وهذه الاكتشافات الجديدة

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ٦ .

جعلت بعض العلماء يغيروا آراءهم في بعض المزايم التي كانت مقبولة لفترة طويلة (أو ما كان يعتقد أنها حقائق) ، وظهرت نظريات جديدة لتفسير أصل الانسان بعيداً عن التطور ، مثل نظرية التدخل الخارجي . فلم يحصل تطور للانسان ولم يجدوا له أدلة . ولذا فان هذا العصر هو عصر الحيرة بالنسبة لعلماء التطور . وقد تكون فكرة آدم وحواء هي الحقيقة التي ستفرض نفسها مرة أخرى بعد الجهود الجهدية لأكثر من قرن من الزمان قضاه العلماء بالبحث والتحقيق .

فردية الانسان :

تساهم خصائص عديدة في تكوين فردية الانسان مثل قامته المستقيمة وجلده العاري (الذي لا يكسوه الشعر بالمقارنة مع الحيوانات الأخرى) وسمات وجهه الخ . الا ان اهم ما يميزه هو عقله . وهذه الوجدانية (بين المخلوقات) قد أهملها التطوريون بدون مبرر منطقي عندما نظروا الى الانسان على أنه حيوان آخر في سلم التطور . وقد رأينا سابقاً كيف أن (دزموند موريس) يؤكد على حيوانية الانسان ويضرب عرض الحائط جميع المسائل الثقافية ، وهي القضايا المتعلقة بالعقل .

و (ستينز) أيضاً يؤكد ان (١) الانسان ، وبدون أي جدال ، حيوان في أصله وخصائصه البيولوجية) . ومعنى هذا التصريح ليس واضحاً ، فهل أنه يصف حقيقة جسمية ، كتلك التي نراها على شكل جسم أم أنه يقصد أن الانسان ليس سوى حيواناً كبقية أجناس الحيوانات . والظاهر أن هناك خليطاً من كليهما موجود في المعنى . فالحقيقة الجسمية قد استخدمت لتأكيد إيمان مسبق بأن الانسان قد تطور من أسلاف أقل رقياً . ولكن ، وكبقية المثقفين العارفين ، فان (ستينز) لا ينكر فردية الانسان . فهو يقول (٢) ولكن مع ذلك فان

(١) انظر المصدر ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

الانسان أكثر من مجرد حيوان بيولوجي . فعند النظر الى جنسنا من أكثر وجهات النظر موضوعية نستطيع أن ندرك سلوكنا في النوعية الفريدة . . . حيث لا يستطيع أي جنس آخر أن يتحكم في قدره الى المدى الذي نستطيعه ، بواسطة قابلياتنا على التذكر والاستفادة من الماضي ، وكذلك النظر الى الامام وتصور المستقبل ، والتكلم بعضنا مع بعض والعمل معاً لتوفير حياة أفضل) .
(ج . برونوسكي) يقول (١) الانسان مخلوق فريد . فهو يمتلك مجموعة من المواهب تجعله فريداً بين الحيوانات ، بحيث انه ، وخلافاً لها ، ليس مجرد رقم على سهول الأرض - ولكنه صانع لسهول الأرض . وهو ، بجسمه وعقله ، المستكشف للطبيعة والحيوان الذي يظهر في كل مكان والذي لم يجد وطنه ولكنه صنعه في كل قارة) . و (بيجور كورتن) يؤكد بأن (٢) فردية الانسان تمتلك تفسيراً تاريخياً بكل تأكيد) .

وفي الواقع فان كل جنس من أجناس المخلوقات فريد بطريقته الخاصة ، وكل الحيوانات تمتلك أدمغة . والفرق الوحيد بينها وبين الانسان هو أن الانسان يمتلك الارادة والسوعي ، ولكن التطوريين غير مكترئين كثيراً بتطور أدمغة الحيوانات، فهم يعتبرونها مجرد خطوة أخرى في عملية التطور . والحقيقة انها ليست كذلك . لأن العقل مهما كان بسيطاً هو نوع آخر من الوجود يختلف عن الحياة المجردة .

العقل :

العقل (او الفكر) هو الحلقة الاخيرة لحد الآن في سلم التطور (بموجب نظرية التطور نحو الأرقى) . والعقل يختلف عن الحياة والمادة . فهو يمتلك الارادة والاختيار والتميز . كما يمتلك التفكير الارادي ، أي القدرة على اشغال

(١) انظر المصدر ١٧ ، ص ١٩ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

نفسه في التفكير الارادي أو ايقاف نفسه عنه . وهذه الاختلافات تضعه في موقع مميز عن المادة ، وعن الحياة بشكلها البسيط . فالمادة نوع من الوجود ، والحياة نوع آخر من الوجود ، وكذلك العقل فانه نوع ثالث من الوجود . ويشير (بيتر رسل) الى ذلك بالقول ان (١) الوعي يختلف عن مجرد مجموعة من خلايا الدماغ مثلما أن الحياة تختلف عن مجرد مجموعة من الذرات) . فعملية انبثاق العقل ليست عملية اتساقية لتطور الكائن الحي (فيما لو كان التطور قد وقع فعلاً) كما يزعم التطوريون بل هو انعطاف في الوجود لا يقل أهمية عن انبثاق الحياة الى الوجود . وهو ظاهرة جديدة مضافة الى الحياة وليس مجرد مرحلة أخرى من مراحل التطور . ولكن كيف يفسر التطوريون ولادة العقل بقابلياته الواسعة التي لا يمكن لأحد أن يحصيها ؟ فهل كان صدفة أيضاً ؟ لعمري أي صدفة هذه ؟ أم أنها كانت الظروف التي لعبت الدور الأساسي ؟ وفي هذه الحالة أي نوع من الظروف تلك التي جعلت الانسان الكائن الوحيد الذي يحتاج الى العقل ؟ وهل كانت ظروفأ كيميائية تشبه الظروف التي أنتجت الحياة (الخلية الاولى) عن طريق الصدفة ؟ ام انها كانت ظروفأ نفسية ؟ واذا كانت ظروفأ نفسية كيف يمكن تفسيرها بايولوجيا بموجب التطور ؟ ام انها كانت من هذا وذاك معاً ؟ وفي هذه الحالة ما هي نسبة كل منهما ؟ وهل أن ظروفأ كهذه أنتجت العقل عند الانسان فقط ؟ وهل كان الانسان هو المخلوق الوحيد الذي احتاج الى العقل ؟ وأين الأدلة العلمية التي تثبت أن الكائنات الحية الأخرى لم تحتاج الى العقل لتطوير حياتها والدفاع عن نفسها ضد المخاطر ؟ انني متأكد أن الغزال الذي يقف ساكناً ويتلقى رصاصة الصياد التي تقتله ، لو كان يمتلك عقلاً لاستفاد منه في معرفة ما يجري ولانقاذ حياته من الموت المحقق . اننا نلاحظ أن العقل موجود عند كائنات حية كثيرة بنسب متفاوتة من الذكاء ، وقد تطور عند الانسان ولكنه بقي في تلك الكائنات على مستويات أدنى بكثير بحيث أن الفكر الارادي يوجد

(١) انظر المصدر ١٣ ، ص ٥٥ .

عند الانسان فقط ، وهو الفكر الواعي ، علماً أن الانسان يعيش تحت نفس ظروف تلك الكائنات من طبيعة ومناخ وغذاء .

وإذا قيل أن الحيوانات الأخرى طورت شيئاً آخر كالأغزال مثلاً تطورت عنده سرعة الركض والاسد تطورت عنده القوة العضلية الخ ، فالسؤال هنا لم هذه الاختلافات الشاسعة علماً أن الجميع عاشوا ولا زالوا يعيشون في ظروف متشابهة من الطبيعة والجو والغذاء فأصبح بعضهم طعاماً للآخر ؟

ويلاحظ أيضاً أن بعض الحيوانات طورت (أو تمتلك) نفس الخصائص كغيرها مثل الركض السريع والقوة العضلية والطيران ، فهذه الخصائص تمتلكها حيوانات كثيرة وليس نوعاً واحداً من الأجناس ، ولكن العقل يمتلكه الانسان فقط ، لماذا ؟ ولماذا تطور هذا العقل الى اكثر مما يحتاجه الانسان للبقاء ؟ ان الاكتشافات العلمية بينت ان الانسان يستعمل ١٠ ٪ فقط من قابلياته العقلية ، واذا كان الانسان قد تطور من مخلوق أدنى منه ، فان ذلك معناه أن العقل قد تطور اكثر مما يحتاجه الانسان . وهذا لا يتوافق مع الادعاء الذي يزعم أن الأجزاء التي لا تستعمل تضمحل بمرور الزمن ، ولا نعلم كيف ان الـ ٩٠ ٪ المتبقية لم تضمحل ولا كيف أنها تطورت في المجال الاول . و (كودمان) يذكر بأنه (١) وكما سأل والاس ، كيف يستطيع الانتخاب الطبيعي ان يزود الانسان بعقل يفوق احتياجاته ؟) . اذ ان النظرية تقول ان التطور يتم بموجب حاجة المخلوق للبقاء وان هذه الحاجة هي التي تقرر المتطلبات ، فمن اين أتت المتطلبات الاضافية التي جعلت الانسان يمتلك القابليات الاضافية .

النتيجة الواضحة التي يمكن استنتاجها مما تقدم أعلاه هي أن عقل الانسان لم يتطور . و (كودمان) يشير الى انه (٢) حال ظهور عقل الانسان على

(١) انظر المصدر ١٠ ، ص ٢٦٨ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٤٢ .

مسرح الوجود فان الانتخاب الطبيعي لم يعد بإمكانه العمل على الانسان) .
 ومشيراً الى (والاس) . عالم الاحياء المشهور ، فان (كودمان) يقول (١) انه
 شعر أنه من المستحيل تصور ان تطور الانسان كمخلوق روحي جاء نتيجة
 للانتخاب الطبيعي) . و (كودمان) يسأل بكل صواب (٢) هل ان كل شيء
 نتعلمه عن وظيفة العقل يتلائم مع المادية الصرفة وتطور دارون ؟) . ثم يجيب
 (بالعكس ، ان البحوث الجديدة تبين ، وبتكرار ، ان نظام الدماغ ككل
 يستطيع بكيفية ما أن يعمل بطرق تتعدى القابليات الفيزيائية لخلاياه
 العصبية البالغ عددها حوالي عشرة مليارات) . وفيما يخص أصل الانسان فان
 العلم الآن يقف على حافة منعطف مهم . فالتطور لا يبدو قادراً على اعطاء
 الجواب ، وأحدث نظريات التطور لا تكفي . ويتضح أن نظريات التطور في
 خطر حقيقي . فاذا لم يكن الانسان قد تطور مما هو أدنى منه ، فلا بد وأنه قد
 خُلِقَ ، وبذلك فان تبرير كون الكائنات الحية الأخرى قد جاءت عن طريق
 الخليقة أيضاً لن يكون عسيراً . و (كودمان) يقول (٢) باختصار ، فان الانسان
 الحديث يمثل رزمة جسمية وعقلية جديدة كلياً ، واحدة مكوناتها المختلفة تبدو
 متكاملة بدقة لاتمام بعضها بعضاً) .

الجلد :

يمتلك الانسان جلداً متميزاً عن باقي الحيوانات من ناحية كونه غير مغطى
 بالشعر ، عدا بعض المناطق . وهذه الظاهرة كانت ولا زالت لغزاً محيراً بالنسبة
 لمدعي التطور . كيف أصبح الجلد عارياً هكذا ؟ وما هو التفسير لذلك بموجب
 نظرية التطور التي تقضي بأن الحاجة للبقاء هي سبب التغيرات ؟ في الواقع أن
 المشكلة مستعصية ، وقد ظهرت نظريات كثيرة لتفسير هذه الظاهرة . وبعض

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٥ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

هذه النظريات رُفضت مباشرة تقريباً من قبل الآخرين العاملين في هذا الحقل . ولا توجد لحد الآن أي نظرية تعطي جواباً مقبولاً . فالسؤال هو اذا كان الانسان قد تطور مما هو أدنى منه فلا بد وأنه فقد شعره بسبب احتياجات التطور التي تساعده على البقاء بصورة أفضل مما لو كان مغطى بالشعر . ولما كانت هذه الحالة تمثل نهاية مسدودة ، فان بعض الناس ذهبوا الى الحد الذي نكروا فيه أن الانسان هو أقل الحيوانات شعراً . و (ديزمونند موريس) يذكر ذلك بالقول (١) ان أحد الاختصاصيين المشهورين ذهب بعيداً الى القول ان الرأي القائل بأننا « الأقل شعراً من بين جميع اللبائن بعيد كل البعد من أن يكون صحيحاً . والنظريات الغربية المتعددة التي وضعت لأخذ فقدان الشعر الخيالي بنظر الاعتبار ليس هناك حاجة لها . وواضح ان هذا هراء . وهو يشبه القول بأن الانسان الأعمى ، ولانه يمتلك عينين ، فانه ليس اعمى) .

وقد ظهرت نظريات عديدة لتفسير ظاهرة فقدان الشعر . وبعضها سفيهة الى درجة بحيث انها مضحكة ، ويمكن للفرد إدراك ان اليأس والاحباط كانا وراء ظهور هذه النظريات باسم العلم .

ويخبرنا (ديزمونند موريس) ان (٢) أحد التفسيرات هو انه عندما تخلى الفرد الصياد عن ماضيه البدوي (*) واستقر في قواعد ثابتة ، تمثل وطناً له ، فان عرينه اصبح مملوءاً بالطفيليات الجلدية الكثيرة . ويُعتَقَد ان استعمال نفس الأماكن للنوم ليلة بعد ليلة قد اعطى أرضية خصبة لتكاثر مختلف أنواع القراد والعثة والبرغوث والبق الى النقطة التي أصبح الوضع فيها يمثل خطورة شديدة للتعرض للأمراض . وبواسطة نزاع معطفه المشعر ، فان ساكن العرين أصبح

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(*) يقصد الرجال (كثير الارتمال) .

يجابه المشكلة بصورة أفضل) . ولكن اذا كانت هذه هي الحالة فقد نتساءل لماذا لم تفعل الحيوانات الأخرى التي تسكن المغارات ذلك ؟ لماذا كان الانسان الوحيد الذي فعل ذلك ؟ ولماذا جميع الأجناس البشرية ، خاصة أولئك الذين عاشوا في المناطق الباردة كالمناطق الجبلية مثلاً ، حيث أن وجود الطفيليات أقل احتمالاً ؟

وتوجد نظرية أخرى تقول ان الانسان ، وبعد اكتشاف النار ، أصبح غير محتاج للشعر لتدفئته ، ولذا فانه فقدته . وقد نتساءل هنا أيضاً انه اذا كان سبب وجود الشعر هو مقاومة البرد فلماذا تمتلكه الحيوانات الاستوائية ، وأحياناً بكثرة ؟ من الواضح أن هذه نظرية تافهة .

نظرية أخرى تقول ان عملية التغذية عند الانسان كانت وسخة نوعاً ما ، خاصة عند أكل اللحوم ، والتي كانت تسبب الأمراض . ولتحاشي الأمراض فان الانسان فقد شعره . وهذه النظرية تضرب لنا طير الباشق (أو العقاب) الذي لا يمتلك ريشاً على عنقه مثلاً وتزعم أن هذا الطائر فقد ريش عنقه بسبب طريقة تغذيته الوسخة . وللرد على هذه النظرية لا نحتاج الى اكثر من القول انه اذا كان هذا هو السبب ، فقد كان على الانسان أن يفقد الشعر الذي على وجهه ، وليس الشعر الذي على جسمه تاركاً الشعر على وجهه في الرجال ، وهو المهم في الموضوع ، بهذه الكثافة . بالاضافة الى ذلك فان طريقة أكل الانسان ليست وسخة كطريقة اكل الباشق . وماذا عن الحيوانات الأخرى كالصقور والنسور والأسود والنمور الخ ، لماذا لم تفقد ريشها أو شعرها ؟ وفي الواقع بإمكاننا أن نجد مثلاً في الطبيعة لأي شيء ، ولأي نظرية تُطرح ، ولكن تبريراً كهذا لا يمكن اعتباره اسلوباً علمياً أو منطقياً . ذلك لأن النظرية ، ولكي تصحح مقبولة ، يجب ان تبرر نفسها علمياً وبواسطة أسباب منطقية ، وأحياناً ، بالتجربة أيضاً .

وهناك نظرية أخرى تقول انه في فترة زمنية ما ، ذهب الانسان ليعيش قرب البحر بسبب وجود الغذاء بكثرة فيه . وكان عليه أن ينزل الى الأعماق

ليصطاد الأسماك وما شابه ، ونتيجة لذلك فانه فقد شعره بسبب الماء . ولكن هذه النظرية لا تفسر سبب بقاء الشعر على الرأس والوجه وهما أول ما يكون بتماس مع الماء عندما يعوم الانسان أو يغوص في الماء . كذلك لما كان الذكور هم الذين يقومون بالأعمال عادة (وهو الصيد هنا) لماذا فقدت الأنثى الشعر من وجوههن بينما لم يحصل ذلك للذكور ؟ ثم لو أن الانسان كان فعلاً قد عام لفترات طويلة بحيث انه فقد شعره لماذا لم يطور جهازاً تنفسياً يستطيع التنفس بواسطته داخل الماء فيبقى فترة أطول ويحصل على غذاء أوفر ؟ أليس هذه هي الحاجة التي يزعمها التطوريون للبقاء ؟ ولماذا لم يتطور بحيث أن أطفاله يستطيعون العوم تلقائياً وبدون الحاجة الى التعلم ؟

وهناك نظرية أخرى تسمى نظرية الصيد . وتزعم هذه النظرية ان الانسان عندما نزل من الأشجار (لانه كان كالقروذ) وأصبح صياداً (لاحظ ان القروذ لا تأكل اللحوم) فانه احتاج أن يطارد فريسته . وهذا معناه انه احتاج لأن يفقد الحرارة التي تولدت في جسمه من جراء الركض . ولكن الشعر كان بمثابة معطف ثقيل يمنع فقدان الحرارة ، ولذا كان عليه أن يتخلص منه . (ديزموند موريس) يزعم انه ^(١)بواسطة فقدان معطف الشعر الثقيل وبواسطة زيادة عدد غدد التعرق على سطح جسمه فقد استطاع الانسان أن يحصل على تبرير كثير- وهذا التبرير ليس لغرض الحياة اليومية الاعتيادية ولكن للحظات المطاردة العنيفة - سوية مع انتاج الطبقة الرقيقة السخية من السائل المتبخر على أطرافه وجذعه الفعال والمعرض للهواء) . وهذه النظرية تعتمد على النظرية القائلة أن أسلافنا تركوا الأشجار بسبب ندرة الغذاء . ولكن الأدلة على ذلك لم يتم الحصول عليها مطلقاً . وعلى العكس فان (كورتن) يقول ^(٢)ان أسلافنا لم يجبروا على ترك الأشجار بسبب نوع من الأزمات ، مثل موت الغابات

(١) انظر المصدر ١١ ، ص ٣٧ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٥ .

بسبب الجفاف ، ولكنهم نزلوا الى الأرض لغزو مناطق جديدة مفضلة) . وهذا يبين ان الانسان لم يكن مجبراً على مطاردة فريسته لأن الغذاء كان متوفراً في هذه المناطق الجديدة (فيما لو كان التطور هو ما حصل فعلاً) . وعلى أي حال ، اذا كانت المطاردة هي سبب فقدان الانسان لشعره ، فلماذا لم تفقد الحيوانات المفترسة الأخرى ، مثل الاسود ، شعرها ؟ ولماذا فقدت انثى الانسان شعراً أكثر من الرجل بالرغم من أن الرجل هو الذي يقوم بالمطاردة ؟ وعلى أي حال ، لم تستطع أي من النظريات أن تفسر سبب عدم فقدان الانسان الشعر من وجهه (بالنسبة للذكر) وتحت الابط وحول اعضائه التناسلية . ولماذا ان الشعر على وجه الذكر يتركز على اللحية والشارب وليس على الجبهة أو الأنف أو الحدود أو حول العيون عدا الحاجبين .

ويبدو أن النظريات المطروحة ليست سوى محاولات لملائمة نماذج ناقصة على ظاهرة موجودة . ولا يوجد أي منها قرب التفسير الصحيح أو الملائم للظاهرة المطلوب دراستها .

الانسان يخون التطور :

يقول التطوريون ان الانسان يمثل المرحلة الأخيرة في سلم التطور لحد الآن ، ولذا فانه أرقى الكائنات الحية (وهذا مما لا شك فيه) . ونستنتج من ذلك انه يجب أن يكون أكثر هذه الكائنات استعداداً للتطور ، وقد يكون هذا هو ما يعترف به (كورتن) عندما يقول ^(١) انه السلالة الوحيدة التي تمتلك قوة تطورية مستقبلية) . ولما كان الانسان ذكياً وواعياً فقد نتصور انه كان يجب عليه أن يحاول التطور بصورة واعية لكي يختصر الزمن ويسرع في هذا المشروع العظيم الذي بدأته المادة . خاصة الآن ومع ولادة العقل الواعي في الانسان

(١) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٧٢ .

والذي يفهم الغاية من إيجاده وإيجاد الحياة وعملية التطور ، لذا فقد نعتقد انه كان عليه أن يؤدي الأمانة التي علقتها عليه المادة وأتمتها فيه . ولا بد وأن نتذكر هنا أن الكائنات الحية غير المفكرة والأقل تطوراً من الانسان قد حرصت على هذه الأمانة قبله ونجحت في أداء واجبها بخصوص التطور حتى وصلت اليه (اي الى الانسان) ، فعليه أن يكون جديراً أيضاً بحمل هذه الأمانة والحفاظ عليها ، فهو أرقى ما وصلت اليه الحياة في سلم التطور ومزود بإمكانيات أفضل من الكائنات الحية التي كانت قبله لانجاز مهمته . ولكن ماذا نرى ؟ وبأي شيء منهنك هذا الانسان ؟ هل انه مشغول بحفظ الأمانة وتطوير نفسه وتطوير الكائنات الحية الأخرى معه ؟ ام أننا نرى العكس من ذلك ؟

في الواقع أننا نرى الانسان مشغولاً بتدمير نفسه وقتل بعضه بعضاً سواءً ضمن المجتمع الواحد أو بين الأمم المختلفة ، والتاريخ مليء بالحروب التي تشهد بذلك . وواضح أن هذا تبذير عظيم للطاقات التي يمكن استعمالها في دفع عملية التطور الى الامام . وما يقوم به الانسان الآن من صناعة السلاح الذري لتدمير جميع الكائنات الحية على الأرض ، وليس نفسه فقط ، ليس تطوراً ولكنه تناقض صارخ مع مبدأ التطور نحو الأرقى . فماذا حدث لعملية التطور ؟ هل أنها ، ولسبب مجهول ، انعكست ؟ وهل قرر الانسان ، الذي هو نتاج الجهود العظيمة ، أن يعتبر هذا العمل الضخم تافهاً ولذا فانه يتحرد عليه ؟

ان امتلاك العقل هو الذي ساعد الكائن الحي على اختراع ما يدمر به نفسه . فهل كان امتلاك هذا العقل غلطة ؟ أم انه هو المنشود ؟ فاذا كان غلطة فانه تناقض واضح مع مبدأ التطور ، واذا كان هو المنشود فلماذا يحاول الانسان تدمير نفسه ؟ وهو مشغول جداً بايجاد طرق جديدة للدمار ويصرف جهوداً عظيمة وأموالاً طائلة في سبيل ذلك بدلاً من صرفها على تطوير نفسه ، وكأنه وُجدَ لهذه الغاية التدميرية لا لكي يكون الحلقة الجديدة في التطور . وقد يقال ان الانسان هو آخر كائن متطور تنشده المادة . فاذا كانت هذه هي الحالة فان

الأجدر به اذن أن يكون على أحسن حال للبقاء والتكاثر لا ان يفني نفسه وجميع الحياة حوله . ان الانسان مشغول جداً في صناعة مجاده ، والأجناد بالنسبة له هي العظيمة واجبار الآخرين على الركوع امامه باستعمال القوة والقتل والفتك بالناس وحياسة الدسائس والمؤامرات .

واذا كان الانسان آخر حلقة في التطور فان ذلك معناه أن الغاية قد انتهت وأن حصيلة هذا الجهد الطويل الذي استغرق مليارات السنين كان للوصول الى الانسان الذي يحاول انهاء كل شيء الآن . ويتضح أن العقل ، الذي هو آخر مرحلة في التطور ، يتمرد الآن على سيده المادة التي تريد له عكس ذلك . وهو بذلك يعمل ضد الغاية المنشودة للمادة بعد أن استسلمت الحياة ، التي هي الحلقة الوسطى في سلم التطور ، لهذه الغاية .

نستنتج من ذلك أن تمخض التطور وولادته للانسان كان غلطة لم تكن المادة عالمة بنتيجتها ، وهذا بدوره يمثل تناقضاً مع عملية السعي نحو الأرقى . واذا كانت المادة تعلم فان هذا الانعطاف نحو الدمار غير واضح الأسباب ويتناقض مع الغاية الأولى ، ولا يمكن تفسيره على أنه تطور ، بل الأفضل وصفه بالانحراف عن التطور وعن الوصول الى الغاية النهائية . وفي الواقع فان الانسان يحاول الرجوع الى البداية - الى المادة الميتة .

واذا كانت المادة قد انعطفت عن مسار التطور هذه المرة ، فليس هناك ما يمنع من الاعتقاد بأنها قد تكون انحرفت عن التطور في أوقات أخرى ما دام الانحراف ممكناً . وفي هذه الحالة لن يبقى هناك مبرر للاعتقاد بالتطور ما دامت امكانية حدوث الانحرافات موجودة ، وبذلك ينهار مبدأ الاعتقاد بالتطور نحو الأرقى كلياً . وتوجد أمثلة كثيرة من هذه الانحرافات في الانسان منها الكره والسادية .

وقد يبرر بعض الناس هذه الانحرافات بالقول أنها طفرات وراثية في

الاتجاه المعاكس . الا أن هذا بحد ذاته اعترافاً بضعف الفكرة بأكملها وبرهاننا ساطعاً على وجود اكثر من انحراف واحد عن مسار التطور ، خاصة اذا اعترفنا باحتمال حدوث الطفرات بالاتجاه المعاكس (وهو ما يعترفون به على أي حال) . وأخيراً نرى أنه كان من الواجب أن يحمل العقل البشري (لو كان فعلاً حصيلة التطور) في طياته ، وكجزء من تركيبه ، مبدأ التطور نحو الأرقى بصورة واعية (ولكن ليس على طريقة نيتشة والنازية) ، والذي كان سيسهل عملية التطور ويسرع بها الى الغاية المنشودة بطريق سليم . تُرى هل أخفقت المادة في وعي هذه الحقيقة بعد أن انجزت هذا العمل العظيم ؟

الكره والسادية :

يتحسس الانسان الكره الذي يظهر على شكل عداء مدمر وحقد لا مثيل له عند بعض الناس . ويشهد التاريخ بالحروب والدمار والقضاء على حضارات كاملة بسبب الكره والحقد بين الملوك والايديولوجيات المختلفة . ولعل احراق نيرون لروما عاصمة مملكته في ليلة سوداء بينما كان الناس نائمين من الأمثلة الصارخة لما يمكن لهذا الكره والحقد أن يفعل .

ويظهر الكره بين بني البشر بصور مختلفة ، وأبرز ظاهرة في عصرنا الحاضر للحقد هو التمييز العنصري بسبب اللون . فها هو الانسان الأبيض الذي يحمل راية التقدم التكنولوجي في أوج عظمتها حتى انه نزل على القمر برجليه، نراه، وخلافاً لما تصبوا اليه فكرة التطور نحو الأرقى ، مملوءاً الى اذنيه باحتقار الأجناس الأخرى لا لشيء إلا لأن الوان جلودهم تختلف عن لون جلده . ولا يمكن أن نعتبر ذلك من التطور في شيء . ولعل أبرز ورقة في يد الدول الكبرى لاشعال الحروب بين الناس في عصرنا هذا هو اشارة الأحقاد والضغائن على أساس القومية والعرقية . فيتطاحن الناس ويقتل بعضهم بعضاً وهو خلاف لمفهوم التطور . والمجتمع الانساني مملوء بالمآسي بسبب الحقد والكراهية ، فأين هذا من التطور نحو الأحسن ؟

والكراهة لا يمكنه أن يولد أي خير في الإنسان . وهو ليس أحسن من أي شيء آخر ، ولا يمكن وصفه بشيء غير الشر . ولذا لا يمكن أن يكون قد تطور من شيء أسوأ منه ، وبهذا لا يمكن وصفه على أنه تطور نحو الأحسن بأي مقياس من المقاييس العقلية . وعلى العكس من ذلك فإنه بالتأكيد يمكن وصفه على أنه انحراف عن مسار التطور لأنه لا يمكن أن ينتج إلا الدمار . وكان على الإنسان أن يحمل الحب ونزعة التأخي فقط إذا كان فعلاً قد تطور من شيء أدنى منه . ونحن لا نرى كيف أن أسلاف الإنسان وأجداده (إذا كان هناك أسلاف) احتاجوا إلى شيء كالكره ، لأن كلاً منهم (بمفهوم نظرية التطور) قد تطور من شيء آخر . وإذا كان التطور سارياً خلال جميع المراحل فكيف احتاجت الكائنات الحية التي في تطور مستمر إلى الحقد الذي لا يقود إلا إلى الدمار . وبطبيعة الحال فإن الدمار هو عكس التطور والمفروض في الكائنات أنها لم تحتج في أي مرحلة من مراحل تطورها .

أما السادية فإنها مرض عقلي واسع الانتشار يتلذذ صاحبه بإيذاء الآخرين أو قتلهم . ولا يمكن اعتبار الحصول على سعادة من الألم تطوراً لأن الألم يقود إلى الموت وليس إلى الحياة . وكان على التطور ، إذا أردنا أن نسميه هكذا ، أن لا ينتج انحرافات كهذه أو على الأقل يقضي عليها بحيث لا يبقى إلا الأصلح ، تمشياً مع مبدأ التطور .

وهذه الظواهر في الواقع يمكن تفسيرها بواسطة نظريات أخرى لتفسير الوجود والخلقية كما سنرى .

استنتاج :

لقد تم تمحيص وتحليل النظريات التي تزعم أن الإنسان قد تطور من القرد ، فوصلنا إلى الاستنتاج بأن هذه النظريات لم تعتمد على سند قوي أبداً ولم تتوفر الأدلة العلمية القطعية لاسنادها . بل أن الأدلة الحديثة تبين أن الإنسان

قد ظهر فجأة على الأرض . ولا تستطيع نظريات التطور أن تعطي تفسيراً مقبولاً لقابليات العقل ووظائفه العظيمة ، ولا لأسباب فقدان الشعر من جسم الانسان ، كما أنها لا تستطيع تفسير بعض الظواهر التي تعتبر انحرافات عن التطور مثل الكراهية والسادية .

ويبدو كذلك ان الانسان يتمرد ضد التطور بواسطة البحث عن وسائل لتدمير الذات . وأن نظرية التطور غير قادرة على اعطاء تفسير مقبول لأصل الحياة والانسان . وليس هناك قاعدة فلسفية أو أدلة علمية كافية لتبريرها .

الفصل التاسع

الخلق :

ربما كان باستطاعة نظرية التطور ان يكتب لها النجاح لولا فشلها في اعطاء تفسير مقبول لاصل الانسان والذي اوصلها الى نهاية مسدودة . وفي الواقع فان النظرية لم تعط أي تفسير مُرضٍ لاصل أي من الأجناس ، أو لاصل الحياة نفسها . ولكنها فقط زعمت أن ما يقرب مما لا نهاية له من الصدف قد حدثت في آن واحد لانبثاق الحياة ، ثم أن اعداداً أكبر من ذلك من الصدف الأخرى استمرت بالوقوع لانتاج الكائنات الحية التي نعرفها اليوم . وعند التأمل في هذه الافتراضات نجدها شيئاً من الهذيان والجنون الحقيقي باسم العلم . كيف يمكن لهذا العدد الهائل من الصدف ان يحدث بهذه الطريقة العجيبة والمحكمة ؟ ان العلم لم يعرف نظرية واهية كهذه في أي فرع من فروعهِ . ولم يستعمل العلم مفهوم الصدفة لتفسير أي من نظرياته عدا التطور . وفي الواقع ، فان العلم تم تشييده على مفهوم العلة والسببية للأشياء واستحالة الصدفة وأن هناك سبب لكل حادثة ، وأن العلاقات بين الأشياء لا يمكن أن تكون قضية صدفة . لان القول بصدفة العلاقات والأسباب التي تربط بين الحوادث يجعل وضع القوانين

العلمية قضية مستحيلة ، ويقود الى رفض جميع نظريات المعرفة التي بُنيت على استحالة وقوع الصدفة .

لقد اعتمدت نظرية التطور على أدلة مادية فقط ، وهي العظام والمتحجرات ، ولم تأخذ بنظر الاعتبار أي من القضايا الميتافيزيقية ، حيث لم يفكر أحد ، أو يولي اهتماماً لشعور وأحاسيس الحيوانات والنباتات (والتي بينت البحوث العلمية الحديثة التي أجريت على النباتات أنها تمتلك شعوراً واحساساً وخصائص أخرى كالتمييز والتخاطر^(*)) ولكن عندما وصلت النظرية الى الانسان لم تستطع تجاهل مسألة الامكانيات العقلية التي يمتلكها ، وشكلت هذه القضية عقبة حقيقية أمام نظرية التطور التي وقفت عاجزة عندها . ويبدو ان التطور لم يأخذ هذه المسألة بنظر الاعتبار ، ولم يستطع التطوريون أن يجدوا أدلة لها . و (كودمان) يستشهد بالدكتور (ستيفن م . ستانلي) بقوله^(١) (ومن حيث لا نعلم ، يظهر ذقننا الحاد وحاجبنا الخفيف وجبهتنا البارزة في سجلات المتحجرات . وهذه السمات الخاصة لا يمكن التنبؤ بها اطلاقاً بموجب الأسس التي سبقتها) . ويستمر بالقول^(٢) (ومن وجهة النظر الجسمية ، فان ذقنه الحاد ، وحاجبه الخفيف وجدران جمجمته الرقيقة وجبهته البارزة وجهازه الصوتي المتمكن من الكلام كلياً يظهر من حيث لا يُعلم) . وهذا جعله يؤكد أن^(٣) (هذه النظريات لا تعطي تفسيراً ملائماً للظهور الفجائي للخصال الجسمية والعقلية في الانسان الحديث والتي تبدو متممة ومعززة لبعضها البعض وكأنها صُنعت هكذا بواسطة صانع) . وفي الواقع ، عند النظر الى أي كائن حي فانه

(*) التخاطر هو اتصال عقل بعقل آخر بطريقة ما خارجة عن نطاق العادي ، وتسمى التلاباتي .

(١) انظر المصدر ١٥ ، ص ١٨٣ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٧ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٣ .

ليس من العسير ملاحظة كيفية تكامل هذا الكائن الكلي بواسطة الصنع . فهذه الأنظمة العجيبة للنمل ، وبعض أنواع الطيور ، والنحل ، وكثير من الأجناس الأخرى اكبر دليل على ذلك . كيف تطورت هذه الأجناس لتساعد بعضها بعضاً بحيث أن كل فرد من المجموعة له دوره المحدد ، وهذه الأدوار تكمل بعضها بعضاً بحيث تتمكن المجموعة من العيش والبقاء وكأنها كائن حي واحد يمتلك روحاً واحدة وعقلاً واحداً ؟ ومع ذلك فإن التطوريين لم يتطرقوا الى هذه المسائل . ولكن عندما اعترضتهم ظاهرة مساعدة الانسان لأخيه الضعيف أو المجرّوح لم يستطيعوا تجاهلها ، بالرغم من أن نفس السؤال كان يجب أن يطرح عن النمل والنحل وغيرها .

و (كودمان) يشير الى أن^(١) (الفجوة بين الانسان الحديث وأسلافه أساسية الى درجة كبيرة بحيث أن شيئاً أكثر من جريان الجينات العشوائي ومبدأ الانتقاء الطبيعي قد يكون له علاقة بالموضوع . كيف يمكن لخصائص الانسان المتعددة والمنسقة تنسيقاً عالياً أن تجتمع بصورة عشوائية ؟ ان الغرابة تفوق التصور) .

ويشير (كودمان) الى أننا اذا فرضنا ان الانسان قد تطور من مخلوقات أدنى ، فاننا سنجد ان الانسان الحديث كان عليه أن يتطور في أربع أماكن متفرقة على الأرض (بموجب الأدلة المتوفرة) : اوراسيا* و امريكا و افريقيا و استراليا . أي انه بموجب أدلة العظام التي تم اكتشافها يبدو ان الانسان الحديث قد تطور في نفس الوقت على أربع مناطق من الكرة الأرضية ، والذي معناه ان الانسان تطور من الانسان القديم الى الانسان الحديث أربع مرات . وهذا قاد (كودمان) الى أن يسأل^(٢) (كيف استطاعت أربعة أجناس محلية من

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٨ .

(*) المنطقة الآسيوية القريبة من أوروبا .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

الانسان القديم أن تتطور عشوائياً الى مستوى الانسان الحديث وبنفس الوقت تحافظ على الانسجام الجيني العالي الذي يمكن ملاحظته في الأجناس الرئيسية المصنفة على الأساس الجيولوجي للعالم؟).

وعلى أي حال فان الانسان يختلف عن النحل والنمل من ناحية انه يمتلك قابليات أكثر مما يحتاجه للبقاء بكثير . ولذلك فان (ترنس دكسون) و (مارتن لوكاس) يشيران الى^(١) ان حاجتنا وقابليتنا على تنظيم وترتيب ومعالجة العالم يوجهانا الى انشاء الثقافة وعالم الرموز والمعاني الانسانية الفريدة ، والتي هي أكثر من احتياجاتنا لغرض البقاء) . وكورتن يؤكد^(٢) ان وظائف عقولنا تتعدى كثيراً أي شيء معقول تتطلبه هذه العقول في البيئة التي تطورت فيها) .

ان الأسئلة كثيرة وعميقة ولا يمكن للمادية الضحلة أو نظرية لم يقم البرهان على صحتها، كالتطور التي وقفت مشلولة أمامها ، أن تقدم الأجوبة لها . لماذا كان الانسان الكائن الحي الوحيد الذي امتلك العقل ؟ ولماذا يمتلك قابليات بهذه الكثرة التي تفوق احتياجاته التي يتطلبها لغرض البقاء ؟ ولماذا وكيف ظهر فجأة على الأرض ؟ لقد استمر البحث في عدة حقول : الاحياء وعلم النفس والفيزياء والأثار وغيرها . ويلخص (كودمان) المأزق كما يلي^(٣) (ان المادية التقليدية تبدو ناقصة نقصاً جدياً كتفسير للمدى العظيم من الظواهر التي يظهر بعضها كمركبات أساسية للطبيعة الانسانية) . لذا لا بد من التوجه الى اللامادية للحصول على الأجوبة . انها الطريقة الوحيدة بعد الجهود الطويلة والمضنية التي عاناها الباحثون . فالمادية وحدها لا تكفي . ويبدو أن العلماء ، وبعد ركوب الطريق الوعرة ، وصلوا الى الاستنتاجات الواضحة . وهذه اشارة

(١) انظر المصدر ١٨ ، ص ١٦ .

(٢) انظر المصدر ١٢ ، ص ١٣٧ .

(٣) انظر المصدر ١٥ ، ص ٢٦٧ .

الى البحوث العلمية المعقدة التي أجراها العلماء قرون للتوصل الى النظرية النسبية ، والتي بعدها عرف الانسان أن المادة تتحول الى طاقة . ولكن المادة كانت دائماً تتحول الى طاقة في جسم الانسان في كل لحظة ، وفي كل شيء فعَله ، إلا انه لم يكن يعلم . ولم يعلم الانسان أن كل حركة من حركاته كانت في الواقع تحويل المادة الى طاقة . فتحريكه ليد ، وتفوهه بكل كلمة يقولها ، وقهقهته ، وبكاؤه ، وتفكيره المجرد ، كلها تحويل المادة الى طاقة . اي انه لم يعلم أنه هو نفسه (جسمه) ليس الامفاعل يحول المادة الى طاقة باستمرار .

ان التطور كان ، ولا يزال ، هاجساً يستحوذ على العلماء ، ودافعاً قوياً ذي اتجاه واحد . وهم ماضون في هذا الاتجاه وكأنَّ على عيونهم غشاوة أو غمامة تمنعهم من رؤية الاتجاهات والاحتمالات الأخرى . وقد آن الأوان ، بعد الاكتشافات الحديثة ، أن يزيل هؤلاء الباحثون الغشاوة عن أعينهم ويأخذون بنظر الاعتبار الآراء الأخرى المطروحة والبعيدة عن فكرة التطور ، فقد يكون الجواب هناك ، وفي الواقع فان الجواب هناك .

ان مفهوم الروح بدأ يعود مرة اخرى الى المسرح . و (كودمان) يتكلم عن اكتشافات علمية جديدة عن الانسان وروحه ، فيقول^(١) (ان السَّرْجون اكلز ، الحائز على جائزة نوبل في الطب والتشريح والسَّرْ كارل بوبر ، فيلسوف العلم العالمي الأول ، يؤمنان بالنظام المزدوج للعقل والدماغ . فهما يقولان أن الانسان يمتلك روحاً أو (عقلاً) غير ملموس يسيطر على « حلقة الارتباط(*)الدماغ » مثلما يقود السائق السيارة أو كما يوجه المبرمج الحاسبة . . . ويرى اكلز مصدراً خارجياً ، وذكاءً مبدعاً ، لأصل ازدواجيته هذه . ويوجين وايز ، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء ، وعند تحليله لتعقيدات ميكانيكا الكَم

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٠ .

(*) يقصد أن الدماغ هو حلقة الوصل بين العقل والجسم .

يعتقد ان الانسان يمتلك عقلاً لا مادياً يستطيع أن يؤثر في المادة) . والأدلة الحديثة تؤكد ازدواجية وجود الانسان ، حيث يقول كودمان^(١) (ان الفيزيائي البارز السّرّ جيمس جينز ذهب الى أبعد من ذلك : « العقل » ، كما كتب ، لا يبدو بعد الآن دخيلاً فجائياً الى عالم المادة ، فقد بدأنا نشك بأننا يجب علينا ، بالأحرى ، ان نصفه كخالق وحاكم لعالم المادة) . و (كودمان) يذكر ايضاً ان^(٢) (اكلز . . . يقفز قفزة ايمان ليفسر ظاهرة الانسان : اذا قلت ان وحدانية النفس الانسانية غير مُستَمدة من الرمز الجيني ، وليست مُستَمدة من الخبرات ، فمن أين هي مُستَمدة اذن : وجوابي هو : من الابداع الالهي . كل نفس عبارة عن خلق الهى) .

وفي الواقع فان (والاس) ، الذي عاصر (دارون) وكان زميله وأحد مؤسسي علم التطور في الاحياء ، وقف عاجزاً أمام مسألة الانسان . وقد تصور ان هناك ذكاءً خارقاً قاد تطور الانسان . ولما كان يؤمن بالتطور ، فلم يكن لديه طريق آخر للخروج من المأزق عدا التصريح بهذا الرأي الذي كانت غايته انقاذ فكرة التطور من الانهيار في مهدها . ولكن الى أي شيء يقودنا هذا الرأي ؟ أليس الى الخالق !! واذا كان الخالق موجوداً ، فلم التطور ؟ ان التطوريين ساروا على خطى (دارون) ولم يتجهوا الى كلمات (والاس) ، وبعد أكثر من قرن من الزمان رجعوا للبحث عن وثائقه التي خلفها من بعده وواراها الغبار .

و (كودمان) يذكر ان (اينشتاين) ، العالم الفيزيائي الذي وضع النظرية النسبية ونظرية القنبلة الذرية ، يقول^(٣) (ان اي فرد منهمك في متابعة العلم بصورة جدية يصبح مقتنعاً ان روحاً تنجلي في قوانين الكون . روحاً متفوقة على

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٦ .

(٢) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٤ .

(٣) انظر المصدر السابق ، ص ٢٦٢ .

روح الانسان تفوقاً كبيراً ، وواحدة علينا أن نشعر أمامها بالتواضع بقدراتنا البسيطة) .

وبالنسبة للعلماء والمفكرين في الغرب ، فان المأزق حقيقي . كيف يمكنهم أن يقبلوا فكرة الخالق بينما لا يستطيعون أن يقبلوا الانجيل ومفاهيمه المتناقضة ؟ لانه اذا كان الخالق موجوداً لماذا يناقض الانجيل العلم ؟ ولكن هناك حل للمشكلة لم يأخذه الغربيون بنظر الاعتبار لحد الآن ، وهو ان الخالق موجود والانجيل فيه خطأ وهناك كتاب الهي آخر لا يتناقض مع العلم ويفسر مسألة الخليقة بكل تفصيل ومعقولة . والغربيون يقبلون الشطرين الأول والثاني من هذا الحل ولكن ليس الشطر الثالث . والأسباب ليست من اختصاص هذا الكتاب لمناقشتها . وهذا الوضع قاد عقولهم للتفتق عن نظرية جديدة ، وهذه النظرية مبهمة اكثر من نظرية التطور ، وتسمى نظرية التدخل .

و (كودمان) يعطينا وصفاً يفني بالغرض لهذه النظرية بالقول^(١) (ان نظرية التدخل تعطي الانسان أصلاً مزدوجاً . فهي تزعم تطور الحيوانات حتى الوصول الى الانسان القديم ، ثم يتبعها تدخل بواسطة ذكاء متفوق لتفسير ظهور الانسان الحديث ، ووحدايته وازدواجيته الروحية ان نموذج التدخل يزعم ان ما خلقت هذه الروح المتفوقة كان صورة لنفسها ولكن ليس بالهيئة الجسمية بل بالقابليات العقلية . . . وبواسطة تكييف أفضل هيئة جسمية موجودة ، وهي الانسان القديم ، فانها خلقت سماتها الشخصية ، كل من خلال طريق الى الواقع غير المرئي الذي وُلدت منه . . . وقد يستعمل الانسان امكانياته الخلاقة أحياناً من خلال أحلامه وفنه ولحظاته العلمية الصافية والشامانية(*) لكي يدخل الى الواقع الذي تسكنه هذه الروح المتفوقة) . ويجبرنا

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٤ .

(*) دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوربا يعتقد بوجود عالم محجوب ويؤمن بوجود الآلهة والشياطين وأرواح السلف .

(كودمان) عن عدة نظريات عن ماهية هذه الروح المتدخلة . ومعظم هذه النظريات أقرب الى الخيال من العلم . فاحداها تقول أنها روح أتت الى الأرض بواسطة سفينة فضائية من جرم آخر . واخرى تقول ان^(١) (المتدخل عبارة عن أرواح من واقع آخر زارت الأرض لتجرب خواص الأرض الاستثنائية . وعلى حد زعم هذه النظرية فان هذه الأرواح اتخذت لها مركباً خلال الناس القدماء الموجودين للتمتع بالملذات الجسدية كالخمر والنساء والغناء . وبعد ليال عديدة من الصخب والعريضة الكثيرة وجدت هذه الأرواح نفسها محبوسة في مركبتها المادية . والتحرير الوحيد لها كان خلال الموت ، ولكن لأنها أصبحت مدمنة ، فان كثيراً منها أصر على الرجوع بواسطة التناسخ^(**) لركبة واحدة فقط ثم اخرى ، ثم اخرى . وبعد ان أحست انه ليس هناك مفر بالنسبة لها من هذه الحلقة المفرغة ، قررت بعض هذه الأرواح أن تبدأ بالعمل لتغيير مضيفها الانساني لايجاد مركبات جسمية أفضل تستطيع من خلالها أن تتخلص في النهاية من الانجذاب المغري للملاحظات الأرضية . وهذا قد يفسر لماذا ان الانسان الحديث ، ومع خصائصه العالية ، يبدو لا زال ممزقاً بين الواقعيين) . ونحن نسأل : أي علم هذا ؟ وهل هو علم أم خيال أقرب الى الجنون في تفسير الحياة والعقل ، هذه الظواهر العظيمة ؟

ان هذه النظرية (وهي مستمدة من نظرية افلاطون في الروح) تعاني من نقاط ضعف لا تحصى ، وتترك الكثير الذي بحاجة الى تفسير . ويمكن للفرد أن يسأل اسئلة كثيرة ، من أين أتت هذه الأرواح ؟ ولماذا توقفت عن المجيء ؟ وكيف تمكنت من تطوير جسم الانسان ؟ وكيف دخلت الى جسمه ؟ ولماذا لا تستطيع الخروج حتى الموت ؟ فهي تستطيع أن تخرج كما دخلت !! وكيف تتكاثر

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٧٩ .

(**) يقصد تناسخ الأرواح ، أي احلالها في اجسام جديدة .

بعدد تكاثر الناس ؟ ومن خلقها في المقام الأول ؟ ولماذا تغريها الم لذات والشهوات ؟ وهل كان الانسان القديم يعرف الخمر والنساء والموسيقى ، أم أن هذا تصور من الواقع الغربي معكوساً على الماضي ، وكان الانسان الغربي يتصور العالم كله على أساس نفسه وملذاته ، وان الناس كلهم يعيشون مثله ويفكرون بشهوانية مثله ؟ ان مشكلات الناس غير المؤمنين بالخالق عظيمة . فهم يصدقون خرافات كهذه ، ولكنهم لا يؤمنون بالحقيقة المنطقية الوحيدة التي تحل جميع المشاكل ، وهي ان الله هو الخالق . و (كودمان) يعبر عن حيرة العلماء وضلالهم بكل وضوح عندما يقول^(١) (واعتماداً على المعلومات الجديدة القادمة من عدة حقول علمية مختلفة ، فان نظرية التدخل الآن معقولة بقدر نظرية التطور لتفسير أصل الانسان الحديث وظهوره المفاجيء . وبسبب عدم وجود أدلة مباشرة لأي من النظريتين ، فان الاعتقاد بأي منها يتطلب مقداراً معيناً من الايمان) . اذن ، وفي النهاية ، نصل الى الحقيقة التي أخفاها علماء التطور على الناس لأكثر من قرن من الزمان ، وهي أن المسألة لا علاقة لها بالعلم أو بالحقائق العلمية ، وإنما هي مسألة ايمان بقضية معينة بالرغم من عدم توفر الأدلة لتبرير هذا الايمان . وفي هذه الحالة فانه من الواضح اننا لسنا ملزمين بقبولها . وتحت هذه الظروف فاننا نسأل : ما هو الفرق بين الايمان بالتطور بهذه الطريقة ونظرية الكنيسة القائلة أن الله لا يمكن أن يعرفه العقل ، ولكنه نور يُلقى في القلب ؟ وبالنسبة لأولئك الذين تخلّوا عن الايمان بالله ، بماذا يؤمنون ؟ انهم يؤمنون بنظرية التدخل ويعتبرونها معقولة !!! ولكن من خلق الروح المتدخلة ؟ واذا كانت هذه الروح بالذكاء الخارق الذي يصفونه لماذا تعبت هكذا بدون غاية ؟ ولماذا تجعل الناس يقتل بعضهم بعضاً في الحروب ؟ ولماذا ان هذه الروح الفائقة الذكاء اذا بقيت بدون تعليم تصبح جاهلة كالحيوانات وتنكص الى جهل تام تقريباً ؟ وما هو اختلاف اسلوب ايمان العلماء بالتطور عن اسلوب

(١) انظر المصدر السابق، ص ٢٨٠ .

إيمان الكنيسة بالله ؟ كلاهما يؤمن بدون استخدام الأدلة العقلية . وهذا يبين بوضوح التخطيط الفكري الذي يعيشه الانسان الغربي بالرغم من تقدمه التكنولوجي ، وأنها لحقيقة رهيبة لا يعلمها الآخرون ، خاصة المسلمون الذين يمتلكون أعظم فكر على وجه الأرض ومع ذلك فانهم مهوورون بهذا الانسان الأبيض الجاهل ، الذي كان جاهلاً على مر التاريخ عدا بأمور الدس والخداع والتآمر على الناس والرذيلة والجرائم الجماعية بحق البشرية .

ويستمر (كودمان) بالقول^(١) (لقد بدد العلم اكثر من قرن من الزمان متابعاً نظرية تطور الانسان ، وكلما تجمعت معلومات اكثر كلما أصبحت النظرية أقل اقناعاً . ولا يمكن للفرد الا ان يتساءل : ماذا ستكون النتيجة اذا تواصل البحث الآن عن نظرية التدخل ؟) وجوابنا على ذلك هو الآتي : أن العلماء يبذلون مزيداً من الوقت والجهود كما فعلوا مع نظرية التطور ثم ينتهون الى مأزق ونهاية مسدودة مشابهين لذالكما اللذين انتهوا بهما مع التطور . ونحن نرى أن المشكلة الرئيسية التي تواجه العلماء اليوم هي المعتقدات غير المتناسكة للانجيل . ولكن اذا استطعنا أن نشير الى حل هذه العضلات (بالنسبة للغرب) فان فكرة (الله الخالق) تصبح الفكرة الوحيدة المقبولة .

(١) انظر المصدر السابق ، ص ٢٨٠ .

الباب الثالث

وجود الروح والخالق

الفصل العاشر

الزمن والسؤال :

لقد رأينا في الفصول السابقة أن نظرية التطور لا تقف على قاعدة صلبة ، وأن الأدلة العلمية الحديثة تشير الى أن الحياة جاءت نتيجة للخليقة . وهنا فان القضية بالنسبة للمفكر الأوربي والمفكر المادي ترجع الى نفس المشكلة التي صادفها غيره قبل بضعة قرون ، والذين عندما لم يستطيعوا حلها تركوا فكرة الله والتجأوا الى فكرة التطور لعلهم يجدون الجواب هناك .

وتطرح الاسئلة القديمة نفسها مرة اخرى ، منها : من الذي خلق الله ، وهل يستطيع الله أن يبيت نفسه ، وما معنى أن الله على كل شيء قدير ، وما هي الروح ، وكيف تعمل وغير ذلك من الاسئلة .

في الفصول القادمة ، سوف نحاول الدخول في عمق هذه الاسئلة ، وأسئلة أخرى ، للاجابة عليها والانتهاؤ برسم صورة أوضح عن الحقائق التي تخص الروح ، والحياة بعد الموت ، والله الخالق للكون . وسنحاول الدخول في موضوع الزمن والمكان ومعناها بصورة مختصرة في هذا الفصل في محاولة لتوضيح حقيقة أن الزمن ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، ويستمد وجوده من وجود

المادة . وهذا سيفتح الطريق أمامنا للإجابة على الأسئلة التي طالما كانت مستعصية على كثير من المفكرين .

الزمن والمكان :

كثيراً ما نسمع ان (اينشتاين) اكتشف واحداً من قوانين الفيزياء المعقدة في هذا القرن ، وهذا القانون ينص على أن الزمن متغير ، وهو البعد الرابع . فماذا يعني ذلك ؟

في الواقع ان هذا الموضوع لا يفهمه سوى قليل من الناس المتبحرين في علم الفيزياء بسبب صعوبته وصعوبة تصوره . وسنتطرق هنا الى هذا الموضوع باختصار ، وبعيداً عن الرياضيات المعقدة ، في محاولة لتوضيح معنى الزمن وكيف يتغير .

الزمن عبارة عن ظاهرة يمكن أخذها بنظر الاعتبار من زاويتين . الأولى هي الزمن المقاس بواسطة المشاهد الساكن بالنسبة لحادثة ما ، أي المشاهد الذي يسير بنفس سرعة الحادثة واتجاهها ، فهو ساكن بالنسبة لها (والحادثة هي أي حدث مثل لقاء شخصين او اصطدام سيارتين أو انسان يقرأ أو حشرة تطير الخ والمشاهد هو الذي يشاهد ذلك) . ومثال على هذا النوع من الزمن اذا حدثت حادثة على الأرض وسجلنا وقت حدوثها والزمن الذي استغرقته الحادثة فيكون هذا الزمن مسجل من قبل المشاهد (الذي هو نحن) والذي يسير في نفس اتجاه وسرعة الحادثة ، فكلانا على الكرة الأرضية . الثانية هي الزمن المقاس من قبل المشاهد المتحرك بالنسبة للحادثة . فالحادثة اعلاه اذا سجلت من قبل مشاهد يسير بسرعة عالية ويمر قرب الكرة الأرضية ، فان وقت حدوثها والزمن الذي تستغرقه الحادثة يختلفان عن الزمن الذي يُسجل من قبل المشاهد الساكن بالنسبة للحادثة . ومثال ذلك اذا كنت تدخن سيجارة واستغرقت خمس دقائق في ساعتك لتدخينها بأكملها ، فان المشاهد المتحرك بالنسبة لك والذي يسير مبتعداً

عنك سوف يرى ان السيجارة استغرقت زمناً أطول (على سبيل المثال سبع دقائق ، الا أن هذا الزمن في الحقيقة يعتمد على سرعة المشاهد بالنسبة لك) في ساعته لكي تحترق بأكملها . وكلاهما صحيح وليس هناك خطأ في أي من الساعتين ، بل كلاهما صحيحتان . واذا عشت خمسين سنة ، فبالنسبة الى مشاهدنا هذا فان عمرك سبعون سنة ، أي أنك في رأيه عشت سبعين سنة وليس خمسين سنة ، وهو صحيح وأنت صحيح أيضاً لاعتقادك أنك عشت خمسين سنة وليس هناك خطأ ، فكيف يحدث ذلك ؟

ان الجواب على هذا السؤال ليس معقداً جداً ، ذلك ان الزمن يعتمد على سرعة الضوء . ولكن ماذا يعني ذلك ؟ في الواقع ان أسهل طريقة لفهم هذا الموضوع هي الآتية . ان المشاهد يسجل الحادثة عندما يراها ، أي عندما يصله الضوء . فاذا كان يبتعد عنك بسرعة كبيرة فان الضوء الصادر منك سوف يأخذ وقتاً أطول للوصول اليه كلما ابتعد ، وهكذا فانه لا يرى الحادثة التي تحدث عندك الا بعد فترة من الزمن ، وهذه الفترة تكبر كلما ابتعد عنك وذلك لأن الضوء يأخذ وقتاً أطول للوصول اليه ، أي انه لا يرى الحادثة في وقت حدوثها ولكنه يراها بعد فترة من الزمن تعتمد على مكانه الآني بالنسبة لك وسرعته التي يبتعد بها عنك . لذا فانه اذا سجل بداية تدخينك لسيجارتك عندما يمر قربك ، فانه سوف لن يراها في اللحظة التي تنتهي فيها لأنه في تلك اللحظة سيكون في مكان يختلف بالنسبة لك وفي حالة ابتعاد عنك ، وبسبب سرعته فان الضوء يستغرق زمناً أطول لكي يصله ، و فقط بعد ان يصله الضوء فانه سيرى ان السيجارة انتهت . وهنا فاننا نرى ان حادثة معينة استغرقت زمناً معيناً بالنسبة لمشاهد ، وزمناً آخر بالنسبة لمشاهد آخر . وبذلك فان الزمن قد تغير .

ولتوضيح تأثير الضوء على الزمن نذكر المثال التالي : نفرض أن هناك جرمًا سماوياً يبعد عنا مسافة كبيرة جداً ، ولنفرض أنها تسعاً وأربعين سنة ضوئية . أي انه على مسافة بعيدة جداً بحيث ان الضوء الصادر منا يستغرق

تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصله ، وكذلك فإن الضوء الصادر منه يستغرق تسعاً وأربعين سنة ضوئية لكي يصلنا . فاذا كان هناك شخص جالس في هذا الجرم وينظر الى الأرض بتلسكوب فانه لا يرى الحوادث التي تحدث على الأرض الا بعد تسع وأربعين سنة . ولذا فان هذا المشاهد اذا كان ينظر اليها فانه سيرى حرباً تدور على الأرض ، وهي الحرب العالمية الثانية . وليس هناك ما يدل له على أن هذه الحرب انتهت لأن الضوء الذي صدر عن الكرة الأرضية والذي يدل على أن الحرب قد انتهت لم يصله بعد . لذا فهو لم ير شيئاً منه بعد .

ولنتطرق الآن الى موضوع آخر يساء فهمه من قبل معظم الناس ، وهو المكان . فانت اذا كنت جالساً في الزاوية اليمنى من الغرفة فانك تشغل ذلك الحيز من الفضاء الموجود في الزاوية اليمنى من الغرفة . فاذا قمت وجلست في الزاوية اليسرى من الغرفة فانك قد غيرت الفضاء الذي يشغله جسمك ، أو هكذا يبدو لك لأن جدران الغرفة وزواياها والكراسي والدار والشوارع الخ كلها بنفس المكان الذي كانت فيه دائماً . ولكن الحقيقة هي أنها كلها في مكانها بالنسبة لك ، وبالنسبة لبعضها بعضاً ، إلا أنها كلها في حركة دائمية في الفضاء لأنها كلها على الأرض والأرض تدور في الفضاء . لذا فان الفراغ الذي يشغله الدار والشوارع الخ بتغير مستمر ، والذي معناه ان الفراغ الذي يشغله جسمك في تغير مستمر أيضاً ، وليس هناك سكون . وبالنسبة لك فان اعتقادك انك تتحكم في الفراغ الذي يشغله جسمك عندما تتحرك من احدى زوايا الغرفة الى زاوية اخرى ليس سوى وهماً وسوء ادراك للحقائق . فليس هناك من يستطيع التحكم بالفراغ الذي يشغله جسمه مثلما انه ليس هناك من يستطيع أن يسيطر على الزمن ، فكلاهما متغيران ويمران عبرنا دون سيطرة لنا عليهما . وقد بينت علوم الفيزياء الحديثة ان الزمان والمكان شيء واحد ومظهريهما المختلفين يعتمدان على المشاهد .

والسبب في اعتقادنا بأننا نستطيع أن نتحكم في الفراغ هو لأننا ساكنون

نسبة الى الكرة الأرضية ، وعندما نتحرك من زاوية الى اخرى ثم نتوقف فاننا نتوقف نسبة الى الكرة الأرضية والأشياء التي عليها .

ان اجسامنا تشغل فضاءً معيناً في زمن معين . وكلاهما متغير باستمرار . فنحن وما حولنا عبارة عن موجودات تشغل مكاناً معيناً في وقت معين . أو بكلمة أخرى كل شيء عبارة عن حوادث تحدث في اماكن معينة في أوقات معينة . فوجود الشيء عبارة عن حدوثه في مكان معين في زمان معين . والمكان والزمان يختلفان بالنسبة للمشاهد اعتماداً على مكانه وزمن تسجيله للحادثة . اي اعتماداً على احداثيات المكان والزمان له . وهذا ما يسمى بنظرية الزمكان .

لذا لا يمكن تحديد شيء معين دون تعيين الوقت ايضاً من جانب المشاهد وتعيين الاحداثيات للمشاهد الذي يقيس مكان وزمن ذلك الشيء بالنسبة الى هذه الاحداثيات . فاختلاف المشاهد معناه اختلاف كل شيء . فنقول ان القمر في مكان كذا في وقت كذا بالنسبة لنا على الأرض ، ولا يمكن القول ان القمر في مكان كذا فقط . واذا قيل ذلك فانه مغالطة لا يقبلها الفيزيائيون وعلماء الفلك . فالمكان وحده غير كافٍ لتعيين حادثة معينة . وهذه الحقيقة موجودة حتى في حياتنا الاعتيادية ، فنقول كنتُ في مكان كذا في الساعة كذا ، ولا يمكنك القول كنتُ في مكان كذا فقط لان السامع يريد معرفة وقت وجودك في ذلك المكان .

ولتسهيل حساب تتابع الحوادث اتخذ الانسان بعض المقاييس لقياس الزمن هي الأيام والسنين والساعات الخ كما اتخذ مقاييساً لقياس الفراغ (الطول والعرض والارتفاع) هي الامتار والكيلومترات الخ . ولتثبيت الحوادث لدينا نعطيها احداثيات المكان والزمان ، وهي احداثيات بالنسبة لنا ولمحورنا لأن مشاهدنا آخر يسير بسرعة اخرى سوف يعطي احداثيات زمان ومكان اخرى مختلفة لنفس الحوادث ، وكلاهما على صواب . ويستطيع الانسان ان يتصور تغير المكان أو الفراغ ولكن تغير الزمن ، كأن يكون اسرع أو ابطأ ، فان تصوره

يصعب عليه بسبب تَعُوده على عدم مقدرته السيطرة على الزمن كما يسيطر على المكان . وسبب ذلك سرعتنا البطيئة بالنسبة لسرعة الضوء .

لفز التوأمان المتناقض :

نفرض أن توأمين يولدا ، وفي لحظة ولادتهما يترك احدهما على الأرض ويوضع الآخر في مركبة فضائية تتحرك بسرعة متسارعة (أي ذات تعجيل) قريبة من سرعة الضوء . وبعد سنة من زمننا ترجع المركبة الفضائية الى الأرض . فهل سيكون التوأمان بنفس العمر ؟ سؤال يبدو غريباً !! لأننا نتوقعهما أن يكونا بنفس العمر طبعاً ، ولكن الحقيقة ليست كذلك لأن احدهما سيكون أكبر عمراً من الآخر . فكيف يحدث ذلك ؟ الجواب على هذا السؤال معقد جداً ، ولكننا سندخل في محاولة مبسطة لشرح الموضوع وملابساته .

عندما تترك المركبة الفضائية الأرض فان الأرض لا تبقى في مكانها لأنها في حركة مستمرة في الفضاء . لذا فان ما عندنا هو الآتي : الأرض والمركبة الفضائية تلتقيان في المكان (أ) ، ثم تفترقان ، ثم تلتقيان مرة أخرى في المكان (ب) . ولما كان الزمن يعتمد على المشاهد ، وكما ذكرنا سابقاً فانه ليس من الصحيح تعيين المكان فقط بل علينا أن نعين المكان والزمان ، ولذا يجب أن نقول أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية التقتا في المكان (أ) في زمن معين ، ثم مرة أخرى في المكان (ب) في زمن آخر . أي انهما التقتا في الحادثة (أ) ثم في الحادثة (ب) على محور الزمان - مكان (المسمى محور الزمكان) لاحظ ان الحادثة توصف بواسطة مكان وزمان .

نفرض الآن اننا نأخذ خطين (أو مسارين) بين نقطتين على الأرض (التي هي كروية) ، وعلى سبيل المثال القاهرة وطوكيو . وسؤالنا هو أي المسارين أقصر ؟ الجواب يمكن ايجاده بتقسيم كل مسار الى مقاطع متتابعة تتكون من خطوط مستقيمة قصيرة ، ثم نجمع أطوال جميع هذه المقاطع للحصول على

الطول الكلي للمسار . والمسار الذي يمتلك طولاً أقصر هو المسار الأقصر . ومثال التوأمين يمكن تحليله بطريقة مشابهة بواسطة تقسيم مسار الأرض في محاور الزمكان ومسار المركبة الفضائية في محاور الزمكان أيضاً الى أقسام متتابعة تتكون من مقاطع مستقيمة (لاحظ ان التقطيع ليس في الفراغ ولكن في محاور الزمكان ، فتخيل) ، ثم نستعمل « متري » الزمكان لحساب الزمن المستغرق الكلي الذي يقترن مع كل من المسارين . وكما أن المسارين على الكرة يمتلكان أطوالاً مختلفة فان الحركات المختلفة بين حادثتين (تقعان على محاور الزمكان) تستغرق أوقاتاً مختلفة . وهذا معناه أن الكرة الأرضية والمركبة الفضائية تستغرقان زمنين مختلفين للتحرك من (أ) الى (ب) . اي أن الأرض سوف تستغرق زمناً معيناً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) ، بينما المركبة الفضائية تستغرق زمناً مختلفاً (نسبة الى قياساتها للزمن) للانتقال من (أ) الى (ب) . لذا فان التوأمين سيمتلكان عمريين مختلفين . وللتعرف على ذلك ندخل في الموضوع التالي :

يُعرف « متري » الزمكان بانه معادلة الزمكان للفترة بين حادثتين قريبتين . وتعرف فترة الزمكان كما يلي : اذا كانت حادثتان قريبتان (اي أنها حادثتان تحدثان قرب بعضهما بعضاً في الفراغ واحدهما تلي (تتبع) الأخرى بعد زمن قصير جداً) تفصل بينهما مسافة صغيرة جداً (م) في الفراغ ، واحدهما تحدث بعد الأخرى بزمن قصير جداً (ز) ، فان الفترة الزمكانية تعرف على أنها ($z^2 - \frac{m^2}{c^2}$) حيث $c = \frac{m}{s}$ ، س = سرعة الضوء . والفترة الزمكانية ليس لها دور في حياتنا الاعتيادية ولكنها مهمة عند التعامل مع الفيزياء النووية .

في الزمكان ، ليس هناك مفهوم مثل « بنفس الوقت » أي ان مفهوم التعاصر لا يوجد . وبدلاً من ذلك تستعمل مفاهيم مثل « شبه الزمان » و « شبه المكان » Spacelike (أو شبه الضوء)

Null (or Light like)

فالحوادث في الزمكان التي يمكن ربطها بعضها ببعض (اي أنها بإمكانها أن تصل الى بعضها بعضاً) تسمى حوادث « شبه الزمان » . وهذا معناه انه باستطاعة مشاهد غير متسارع (أي لا يسير بتعجيل ، فأما أن يكون ساكناً أو متحركاً بسرعة ثابتة) ان يكون حاضراً في كلتا الحادثتين المتتاليتين (وفي قياساتنا العادية تسمى الحوادث غير المتعاصرة) .

والحوادث التي لا يمكن ربطها بعضها ببعض تسمى حوادث « شبه المكان » . وهذا معناه انه بالإمكان إيجاد مشاهدٍ ما ليس باستطاعته أن يكون في كلتا الحادثتين المتتاليتين . (وفي قياساتنا الاعتيادية تسمى الحادثتان متعاصرتين) .

والحوادث التي يمكن ربطها بعضها ببعض بواسطة اشارة ضوئية (أي انه بالإمكان ارسال إشارة ضوئية من احدهما الى الأخرى) تسمى حوادث « شبه الضوء » . وهذا معناه أن الفترة الزمكانية تساوي صفراً .

والتعريف الأساسية صحيحة لأن هناك سرعة قصوى لا يستطيع الجسم المادي أن يصلها (وهي أقل من سرعة الضوء دائماً) .

التعريف الآخر المهم يسمى « الجيوديسي » وهو الخط الذي يمتلك أقل تحدب . لذا فان اقصر مسار بين نقطتين على الكرة هو الجيوديسي .
والآن نتطرق الى الموضوع المهم .

ان مسار الضوء في الزمكان يوصف بواسطة جيوديسي الصفر (أي جيوديسي شبه - الضوء) . والمشاهدون غير المتسارعين هم اولائك المشاهدين الذين يسرون على جيوديسات شبه - الزمان على متري الزمكان (انظر تعريف المتري) . وهذا معناه أن اكثر الحركات استقامة بالنسبة لمشاهد في الزمكان هي الحركة غير - المتسارعة .

وفي الزمكان ، فان المسار الذي يمتلك أطول زمن بين حوادث مرتبطة

شبه - زمانية هو جيوديسي شبه - زمان . وهذا يوصف على أنه الكسل الزمكاني ، أو كسل الزمكان . أي ان الحوادث غير - المتسارعة تتحرك ببطء شديد . فهي تأخذ أسهل المسارات في الزمكان والتي تستغرق أطول الأوقات . من ذلك يتضح أن التوأم الذي يوضع في المركبة الفضائية سيكون أصغر سناً من التوأم الذي يترك على الأرض لأن الأرض ، وكأي جرم سماوي ، تتحرك بحركة غير متسارعة ، لذا فانها تستغرق وقتاً أطول للذهاب من (أ) الى (ب) .

عودة الى الزمن :

يتضح لنا مما جاء سابقاً ان الزمن متغير ، وبالامكان أن يكون طويلاً أو قصيراً اعتماداً على سرعة المشاهد . ونظرياً ، اذا تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فاننا نستطيع أن نتحكم بالزمن . ولكن وجد انه ليس بإمكان أي جسم مادي أن يصل الى سرعة الضوء مهما كان عِظَم القوة التي تدفعه . وهذا هو أحد قوانين كوننا . ولكن هذا القانون لا يسري داخل الأجرام السماوية المسمات « الثقوب السوداء » . فقوانين الفيزياء التي نعرفها لا تستطيع أن تصف لنا ما يحدث داخل هذه الأجرام .

ان الأوقات التي نقيسها تعتمد على سرع المشاهد والحادثة المقاسة والضوء . والضوء عبارة عن طاقة على شكل جسيمات صغيرة تسمى الفوتونات . وهذه الفوتونات تسير بسرعة هائلة (٣٠٠,٠٠٠ كم / الثانية) بحيث لا يوجد هناك جسيم آخر في كوننا يسير بهذه السرعة . فهذه السرعة هي حدود حركة المادة في كوننا . لذا فان الحد هو أحد حدود المادة الموجودة في كوننا . وهذا الحد لا ينطبق على ما هو (لامادي) .

وتمتلك الفوتونات خواص المادة والموجات معاً . ويمكن النظر إليها على أنها جسيمات مادية تمتلك كتلة مكافئة معينة ، أو موجات بأطوال مكافئة معينة . وفي الوقت الحاضر فاننا نعرف انه بالامكان تحويل المادة الى طاقة

وبالعكس ، وأن الهيئة المادية للذرة هي في الحقيقة عدد كبير من الجسيمات الأصغر التي تظهر وتختفي بالتحول من شكل الى آخر . كذلك فان الالكترونات والبروتونات والنيوترونات لم تعد تعتبر أصغر مكونات الذرة . فكل واحد من هذه المكونات عبارة عن عالم بحد ذاته يتكون من مكونات أصغر وهي في تغير وتحول مستمر ، وهذه المكونات تظهر وتختفي على شكل حوادث ولا يمكن تحسسها اكثر من ذلك . ولا يزال البحث مستمراً لمعرفة المزيد عن هذه الجسيمات . وقد تكون كل واحدة من هذه الجسيمات عالماً بحد ذاته ، اذ كيف يتم التحول فيها من شكل الى آخر !! وبامكاننا أن نذهب أصغر فأصغر حتى نصل الى الوجود اللامادي ، وهو شيء لا يمكننا تصوره بطبيعة الحال ، ولكن بامكاننا أن نفرض ، وبطمئنية ، انه يشكل مكونات الطاقة . أي أننا نتعمق أصغر فأصغر في الحجم والنوعية من المادة الى الطاقة الى اللامادة (وقد لا يكون هذا التصور صحيحاً ، فلا أحد يعرف ماهية الشيء اللامادي) .

وعندما نصل الى عالم الجسيمات الصغيرة والمكونات الأساسية فان باستطاعتنا أن نتكلم فقط عن حوادث تقع في أماكن معينة في أوقات معينة . والمكان الذي لا يحدث فيه الحوادث في زمن معين يسمى الفراغ . والفراغ لا يعني انه لا يوجد شيء (اي لا يعني العدم) لأن الفراغ يمتلك مكوناته الخاصة التي تجعله فراغاً وجزءاً من الوجود (وليس عدماً) . والحادثة عبارة عن تأثير معين في مكان ووقت محددين . وهذا ينطبق على الفوتونات بطبيعة الحال ، أي على الضوء . لذا فان الضوء جزء من الوجود المادي لأنه ينشأ في داخله وينبعث منه . لذا نستنتج انه لو لم يكن الوجود المادي موجوداً لما كانت هناك فوتونات ، ولما كان هناك ضوء ، ولما كان هناك قياس للزمان أو المكان ، ولما كان هناك شيء (لا زمان ولا مكان) .

ما هو الزمن اذن ؟

ليس من السهل الإجابة على هذا السؤال ولكننا بطبيعة الحال نستطيع أن

نفرض انه نوع من الوجود ، وقانون مخلوق ، ويتغير مقداره مع تغير سرعة المشاهد . وكذلك فانه يعتمد على سرعة الضوء التي تعتبر ثابتة بالنسبة لجميع المشاهدين سواء كانوا متسارعين أو غير متسارعين . وقد يبدو هذا صعب التصور (وهو فعلاً كذلك) ولكن الفروق بين سرع المشاهدين المختلفين يعوض عنها باختلافهم في تحديد التعاصر (لحدوث الحوادث) بحيث أن سرعة الضوء تبدو دائماً نفسها بالنسبة لجميع المشاهدين مهما كانت كيفية حركتهم .

الزمن اذن ليس شيئاً أزلياً كما قد يظن بعض الناس . فعندما لم تكن المادة موجودة لم يكن الضوء موجوداً ولم يكن الزمن موجوداً أيضاً . والضوء عبارة عن طاقة ، لذا فانه تأثير معين في الوجود . والزمن عبارة عن متغير يعتمد على سرعتي الضوء والمشاهد . لذا فان الزمن ليس سوى تأثيراً آخر في عالم المادة والطاقة . وبصورة أكثر أساسية فانه نوع من الوجود . وهو ليس شيئاً أزلياً . ولو فني الوجود وأصبح عدماً فان الزمان والمكان ينعدمان أيضاً . وقد يكون تصور انعدام المكان أكثر سهولة (لأننا نستطيع أن نتصوره ينكمش الى نقطة صغيرة) ولكن تصور انعدام الزمن أكثر صعوبة .

وتقول لنا النظرية النسبية أن الزمان والمكان ليسا سوى شيئاً واحداً ، وشعورنا بمقدار كل واحد منهما يعتمد على سرعة حركتنا بالمقارنة مع سرعة الضوء . ولو تحركنا بسرعة أعلى من سرعة الضوء فاننا سوف نستطيع أن نرى الماضي والمستقبل . وسبب ذلك أن المستقبل مستقبل لأن الضوء لم يصلنا منه بعد ولذا فليس باستطاعتنا معرفته بعد ، والماضي ماضي لأن الضوء منه كان قد وصلنا ولذا فاننا علمناه . فاذا استطعنا أن نتحرك أسرع من الضوء سيكون باستطاعتنا أن نذهب الى الامام (من ناحية الزمن) لكي نرى الحوادث التي لا زالت لم تصلنا بعد لأننا لسنا مجبرين على انتظارها حتى تصلنا ، بل نحن نذهب اليها . أي أننا نستطيع أن نرى المستقبل نسبة الى حالتنا . ولنأخذ مثلاً حادثتين (أ) و (ب) (لاحظ أننا هنا نتكلم عن الحوادث في محاور

الزمكان) . نفرض أن الحادثة (أ) تمتلك محاور زمكان وتحدث قبل الحادثة (ب) من ناحية الزمن . فإذا بقينا في الحادثة (ب) فإن الحادثة (أ) ستكون المستقبل بالنسبة لنا لأننا يجب أن نتظرها حتى تصلنا . ولكن إذا كان باستطاعتنا أن نتحرك بسرعة أعلى من سرعة الضوء سيكون بإمكاننا الوصول إليها في لحظة حدوثها ، أي أننا سنستطيع رؤية المستقبل . ولما كانت الحوادث متتالية الواحدة بعد الأخرى من ناحية الزمن ، فإذا استطعنا أن نتحرك بالسرعة الكافية (في الزمكان) فإننا سوف نتمكن من رؤية الحوادث قبل أن تحدث ، وأثناء انتظارها في طابور الزمن (كما قد يمكننا أن نتصور) . وكذلك بإمكاننا أن نرجع إلى الوراء في الزمن لرؤية الحوادث الماضية لأنها مخزونة في طابور الزمن بعد حدوثها . وفي الواقع يمكننا أن نتصور أنفسنا والحوادث كما يلي من ناحية الزمن : أما أننا ساكنون والحوادث تمر علينا (أي أن الزمن يمر علينا وهو ما يحدث لنا في حياتنا الاعتيادية) وذلك عندما تكون سرعتنا أبطأ من سرعة الضوء ، أو أن الحوادث تنتظر (أو مخزونة) في طابور ونحن نمر عليها ذهاباً وإياباً (من ناحية الزمن) وذلك عندما تكون سرعتنا أعلى من سرعة الضوء .

وكل هذا يحدث إذا كان الكون موجوداً (أو بكلمة أخرى إذا كان الوجود الذي نعرفه موجوداً) . فإذا لم يكن كوننا موجوداً فإن الزمن سوف لن يكون موجوداً أيضاً . فالزمن لم يكن موجوداً قبل وجود الكون . وأي شيء موجود قبل انبثاق الكون ، أي قبل انبثاق الزمن لا يخضع لعامل الزمن . ونحن نستعمل كلمة قبل لا لتعني التسلسل في الحوادث لأن ذلك يتضمن زمناً . ولكن المقصود أن أي شيء موجود في عالم خارج عالم الزمن فإنه لا يخضع لعامل الزمن . كذلك أن أي شيء موجود في عالم خارج عالمنا وكوننا (أي أنه خارج الكون بلا مكان) فإنه لا يخضع لقوانينه من ناحية التكوين أو الفراغ ، لأن الفراغ نوع من الوجود الذي يخص عالمنا وما هو موجود خارج هذا الكون لا يخضع له ، أي ليس هناك وجوب بأن يكون على هيئة معينة تشغل فراغاً يشبه الفراغ الموجود في

عالمنا . وعندما نقول خارج هذا الكون فاننا لا نعني أنه خارج هذا الكون من ناحية الوجود المادي أو الفراغي أو الحجمي أو الجسمي ، فهذا التعبير سببه قصور اللغة التي يستعملها الانسان والتي كان قد طورها للتعبير عن حاجاته التي حوله ، ولكننا نقصد أنه نوع من الوجود ليس ضرورياً أن يحتاج لأن يشغل حيزاً ، لأن الحيز من صفات هذا الكون ، وذلك الشيء موجود بدون هذا الكون (وهو المقصود بتعبير لا مكان) ، لذا فهو لا يحتاج أن يتصف بصفاته أو يخضع لقوانينه ما دام وجوده غير محتاج للكون وفراغه وزمانه . فهو نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع للزمن ولا للفراغ لأنه ليس بحاجة اليهما ما دام انه موجود سواء كان كوننا موجوداً أم لا . اي انه موجود سواء كان الزمن والفراغ موجودين أم لم يكونا موجودين . ولذا فهو أيضاً لا يخضع لقوانين الكون الأخرى ولا يتأثر بتأثيراتها . فلا تؤثر فيه الحرارة ولا الجاذبية ولا الأشعة ولا الطاقة ولا أي شيء لأن هذه الأشياء كلها من كوننا ووجدت بوجوده .

والآن يمكننا أن نلخص ما جاء ذكره بالنقاط التالية :

- الزمان والمكان جزء من وجودنا وكوننا وهما متغيران .

- هناك نوع واحد من الوجود الذي يظهر على شكل زمان ومكان .
والزمان والمكان ليسا سوى وجهين من وجوه هذا الوجود . وقد بينت النظرية النسبية أن الزمان والمكان هما شيء واحد في الحقيقة ، ويسمى وحدة - الزمكان . وعندما نلاحظ الوجود فان هذه الوحدة تنقسم ، ويدرك المشاهدون المختلفون كميات مختلفة من أجزاء هذه الوحدة (على شكل زمان ومكان) وهذا معناه أن سرعة حركة المشاهد لها أثرها في كيفية ادراك وتحسس الواقع وكميات الزمان والمكان .

- اي شيء موجود بدون الحاجة الى عالمنا لا يحتاج الى زمان ، ومكان ولا يؤثران عليه . ولذا فانه خالد من وجهة نظرنا .

السؤال :

يملك الانسان عقلاً مفكراً ، وهذا العقل فضولي الطبع وفيه رغبة جامحة لمعرفة ما يحيط به وما يراه حوله . وتنقسم المعرفة التي يحصل عليها العقل الى نوعين بصورة عامة . المعرفة الأولية أو الأساسية ، وهي المعرفة التي يتلقاها الانسان خلال أحاسيسه كتحسس الحرارة وشم الروائح الخ . والمعرفة الثانوية ، وهي المعرفة التي يركبها العقل باستعمال المعارف الأولية . ويولد العقل مفاهيم جديدة تقع خارج عالم الأحاسيس بالرغم من أنها قد تكون مستقاة من المعاني التي تجلبها اليه هذه الأحاسيس . وكمثال على ذلك ، اذا سخنا الماء الى (١٠٠) درجة مئوية فان الماء سيفلي . وقد نتحسس هاتين الظاهرتين (التسخين والغليان) بتكرار كثير ولكن أحاسيسنا لن تستطيع معرفة أن التسخين هو سبب الغليان ، وإنما العقل هو الذي يستنتج ذلك . ولكي يحصل على هذه العلاقة السببية فان العقل يجب أن يسأل فيما اذا كانت هناك علاقة بين التسخين والغليان أولاً . فيسأل : لماذا تتبع هاتان الظاهرتان احدهما الأخرى في كل مرة ؟ أو قد يسأل : هل هناك علاقة بين الظاهرتين ؟ وما نريد توضيحه هنا هو أنه بم عزل عن المعلومات الأولية التي نحصل عليها بواسطة حواسنا فان جميع المعلومات الأخرى يركبها العقل بواسطة الاسئلة . وقد يقول البعض ان العقل سيعرف أن سبب الغليان هو التسخين لانه سيرى ان الظاهرتين تتبع احدهما الأخرى . والجواب على ذلك هو أن العقل في هذه الحالة سيتمكن من رؤية ظاهرتين منفصلتين تتبع احدهما الأخرى ، ولكنه لا يتمكن من استنتاج ان احدهما ستسبب الأخرى دائماً . لذا فانه سوف لن يستنتج أن الغليان سيتبع التسخين دائماً . ولكنه يستطيع استنتاج ذلك بعد أن يسأل نفسه : لماذا يتبع الغليان التسخين ؟ ما هي العلاقة بينها ؟ وقد لا يسأل العقل هذه الأسئلة جهرة ، ولكنه يسألها بصمت أو بمفهوم ادراكي .

فالعقل يسأل ولذا نقول انه فضولي ، ثم يجمع المعلومات الأولية أو

السابقة ويربط بينها للحصول على جواب السؤال . وبهذه الطريقة بنى الانسان نظرية المعرفة ووصل الى ما وصل اليه من العلوم والتكنولوجية . والحديث الذي يظهر وكأنه ليس جواباً على سؤال هو في الحقيقة جواب على سؤال ضمني . فنقول أن عمراً يجبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يجبر زيداً بموضوع كذا بالرغم من أن زيداً لم يسأل عمراً عن الموضوع . ولكن عمراً يجبر زيداً لكي يكون الموضوع معلوماً عند زيد فيما لو أراد زيد أن يعرف ، أي فيما لو سأل ، لأن رغبته او احتياجه لمعرفة الموضوع هو السؤال . ووضع معرفة الموضوع عند زيد عبارة عن خزن المعلومات في ذهنه لكي يكون بإمكانه استخراجها والاستفادة منها عند الحاجة أو الرغبة ، أي عند السؤال .

لذا يتضح أن معظم ، ان لم تكن كل ، المعرفة الثانوية يتم الحصول عليها فقط بعد طلبها ، أي السؤال عنها ، ثم معرفة الجواب على السؤال . والجواب قد يكون كلمة واحدة أو كتاباً كاملاً من الشرح والتفصيل . فالسؤال هو الرغبة في الحصول على المعرفة والجواب هو الحصول على المعرفة المبتغاة .

انواع الجواب :

للحصول على المعلومات المعقدة التي نتعامل معها في حياتنا الاعتيادية ، هناك ثلاثة أنواع من الأجوبة الممكنة ، ونوع الجواب المطلوب يعتمد على نوع السؤال الذي يُطرح . وهذه الأنواع هي :

١ - الجواب المباشر ، أي اثبات الشيء المطلوب مباشرة ، أو معرفة المجهول بصورة مباشرة ، كأن تسأل شخصاً عن اسمه فيخبرك .

٢ - اثبات صحة أو خطأ العكس أو النقيض وعندها نحصل على النتيجة أو الجواب لسؤالنا بأنه خطأ أو صحيح تبعاً لصحة أو خطأ العكس أو النقيض . مثال ذلك انك اذا أردت أن تبرهن أن زوايا المثلث تساوي ١٨٠ درجة فانك

نفرض أنها ليست ١٨٠ درجة ، وهو العكس ، فتصل الى نتيجة خاطئة لا يمكن تصحيحها الا بفرض أنها ١٨٠ درجة .

والمنطق يجمع بين (١) و(٢) اعلاه لأنه سلسلة من الاحتمالات وكل احتمال سؤال وجواب . كما أن عملية الاستقراء التي يقوم بها الذهن وعملية قبول الاحتمالات أو رفضها عبارة عن سلسلة من الأسئلة والأجوبة .

٣ - النوع الثالث من الجواب هو اثبات أن السؤال خطأ ، أو ان فيه خطأ منطقياً أو ضمناً كأن يحمل نقيضه فيه أو يحمل في طياته افتراضات غير مقبولة أو غير مسلم بها ، أو افتراضات تعارض جوهر وتعريف الموضوع المسؤول عنه . ولذا فليس هناك جواب على سؤال كهذا لأنه ليس هناك سؤال . وذلك لأننا عندما نسأل سؤالاً ونتوخى جواباً يجب أن يكون هذا السؤال سؤالاً مقبولاً ومنطقياً ولا يتعارض مع التعريف للموضوع الذي تحت البحث ، والا فانه ليس سؤالاً لأنه سوف ينافي قاعدة طلب المعرفة ويصبح تذييراً للوقت والجهود ويصبح عبثاً وهذا مرفوض .

فالجواب تفسير لشيء مبهم يطرح في السؤال ، واذا لم يكن هناك سؤال فليس هناك جواب . ومثال ذلك اننا اذا عرفنا البقرة بأنها حيوان لا يتكلم ، ثم سأل سائل هل البقرة الفلانية تتكلم اللغة العربية ، فليس هناك جواب على هذا السؤال ، لأن السؤال خطأ منطقي بموجب التعريف ويحمل في طياته افتراض أن هناك احتمالاً بأن البقرة تتكلم وهو ما يعارض التعريف حيث أن البقرة لا تتكلم أصلاً . ولو تصورنا أننا نضع المعلومات التي تخص تعريف البقرة في حاسبة الكترونية ، وضمن هذه المعلومات نضع أن البقرة حيوان لا يتكلم ، فماذا سيكون جواب الحاسبة للسؤال السابق ؟ لا بد وانه سيكون جملة موضوعة في برامج الحاسبة مثل « السؤال غير منطقي » ، لأنها سوف لن تجد ما تجيب به على السؤال . واذا ادعى السائل بأنه لا يتضمن في ذهنه هذه الفرضية متعمداً ، فنقول أن السؤال يحمل هذه الفرضية سواءً عرف السائل ذلك أم لم يعرف ،

وان حمل السؤال لهذه الفرضية الضمنية يجعله في قائمة الأخطاء المنطقية التي لا يمكن قبولها من قبل العقل السليم . ومثاله كمشال السؤال بأي سرعة تطير السلحفاة في حين أن السلحفاة لا تطير أصلاً فأبي سرعة يمكن توقعها كجواب لهذا السؤال ؟ أما اذا قال قائل ولكن الجواب على هذا السؤال هو أن السلحفاة لا تطير ، فنقول ان هذا الجواب ليس جواباً للسؤال أعلاه . وانما هو جواب للسؤال التالي : هل ان السلحفاة تطير؟ عندئذ يكون الجواب أن السلحفاة لا تطير . أما السؤال بأي سرعة تطير السلحفاة فانه خطأ منطقي بموجب تعريف السلحفاة .

هذا التفصيل لانواع السؤال والجواب يفيدنا في الفصل القادم في اثبات عدم منطقية الاسئلة التي تطرح بخصوص كينونة الله تعالى .

الفصل الحادي عشر

الصفات الالهية :

كانت مسألة الله والروح ، ولا زالت ، موضوعاً طال الجدل فيه بين المدارس الفكرية المختلفة . وهذا الجدل سببه سوء الفهم لبعض المسائل المتعلقة بمفاهيم الوجود العميقة . والنقطة الأساسية في الاختلاف هي العلاقة بين الروح والمادة .

في هذا الفصل سوف نحاول توضيح هذه المسائل ، خاصة واننا الآن نعرف أن الزمن متغير ، وأنه مجرد جزء آخر من عالمنا .

تعريف الله تعالى :

عندما نتكلم عن تعريف الله تعالى لا يمكننا أن نعرف ماهيته ، فهذا شيء لا يمكن لأي شيء أن يصل اليه سواه . وما نستطيع أن نتكلم عنه هو صفات الله وكونه خالق كل شيء والمالك لهذا الكون . فنقول أنه خلق كل شيء وأنه مطلق الكمال ، وبدون نقص أيأ كان نوع هذا النقص ، وأنه لا يحتاج الى أي شيء لأن من يحتاج الى شيء خارجي ليس الهاً ذلك لأن الحاجة هي السعي نحو

تعويض خسارة أو شيء مفقود ، والخسارة نقص ، ولكن الله كامل . ويوصف الله تعالى بصفات عديدة مثل العظمة والعدالة والجمال والرحمة والعلم . الخ وبالقول انه مصدر الخير ، وليس فيه شر لانه ليس بحاجة الى الشر حيث انه خلق كل شيء وقادر على أن يفعل كل شيء ، وهو موجود بدون الأشياء كلها . وهو الخالق الوحيد ، وكل الأشياء الأخرى مخلوقة .

ولكن هناك من يعترض على القول ان صفات الجمال والعظمة والعدالة والرحمة . . الخ كلها موجودة في الانسان وهو الذي ينسبها الى الله . وهنا يمكننا القول بثلاثة أشياء . الأول ، ان الانسان لا يمكنه أن يصف الله باستعمال مفاهيم لا يعرفها (هو نفسه) . الثاني ، ان الانسان لا يستطيع استعمال أوصاف لا توجد في عالمه لوصف الله تعالى لانه لا يعي هذه المفاهيم ولا يمكن للآخرين أن يفهموها . الثالث ، بما أن الله خلق الانسان على درجة كافية من الذكاء فانه بالامكان ايداع مفاهيم هذه الصفات عنده لكي يستطيع أن يتعرف على الخالق ، وبخلاف ذلك فان الانسان لن يكون قادراً على التعرف على خالقه . وعلى أي حال ، قد يمتلك الله صفاتاً أخرى لا نعرفها لأننا لسنا بحاجة لمعرفةا ، وليس مهماً أن نعرفها لانه ليس من المتوقع أن نعرف كل شيء وليس هناك ما يدعو الى ذلك . وحتى لو عرفناها فاننا سوف لن نفهمها لأن مفاهيم كتلك لا توجد في عالمنا أو في تصوراتنا . ولتوضيح النقطة الأخيرة نضرب مثلاً بسيطاً هو محاولة شرح النظرية النسبية لشخص امي لا يمتلك المعرفة أو الخلفية العلمية التي تؤهله لفهمها . وعلى أي حال ، يمكننا هنا التأكيد على أن صفات الله تعالى التي ذكرناها هي بعض صفاته لأنها لا تناقض ما خلق من الأشياء . وهو الذي وضع بعضها فيما خلق . ولما كان الانسان مخلوقاً واعياً وذكياً فقد استطاع أن يدركها .

هل ان الله مخلوق ؟

من أهم الأسئلة التي تطرح دائماً هو السؤال التالي : اذا كان الله قد خلق

كل شيء فمن خلق الله ؟ و (برتراند رسل) فيلسوف الانكليز وفخرهم هو الآخر سأل هذا السؤال الذي سألته العاقل والجاهل من قدامى الوثنيين من قبله . ولما كان الجواب لهذا السؤال مستحيلاً فان الماديين يتخذون ذلك تبريراً معقولاً للاستنتاج الذي يتتهون اليه بأن الله ليس موجوداً . ولكن تبريرهم هذا ليس معقولاً أبداً لانه في حالة استحالة معرفة الجواب لهذا السؤال فان ذلك بحد ذاته ليس برهاناً على عدم وجود الله . وكل ما يعنيه هو أننا لا نعرف الجواب . وعدم معرفة الجواب لأي سؤال كان لا يقود الى استنتاج شيء آخر . بالاضافة الى ذلك أن الايمان بعدم وجود الله يجب أن يكون نتيجة لبرهان عدم وجوده ، وليس فقد عدم المقدرة على برهان وجوده .

ونحن هنا سوف نحاول أن نبحث في تعقيدات هذا السؤال التي لا يعيها الماديون بالرغم من ادعائهم العلمية . ولكي نفعل ذلك نرجع الى أنواع الأجوبة الممكنة للاستئلة التي تطرح ، والتي ذكرناها في الفصل السابق . فالجواب المباشر غير ممكناً لهذا السؤال لاننا لا نعرف كنه الله تعالى وليس هناك من طريق للرجوع بالزمن الى ما قبل خلق الكون لتتعرف على ما كان يحدث قبل خلق الزمان والمكان (ان كان هناك زمان قبل زمننا) ، ولا نستطيع الخروج من هذا الكون لنرى ما يوجد خارجه (ان كان هناك ما يشبه المكان الذي نعرفه) . النوع الثاني من الجواب هو فرض العكس او النقيض وايجاد حل له ثم استنتاج الجواب لسؤالنا . وواضح أن هذه الحالة لا تنطبق على سؤالنا . بقي النوع الثالث من الاجابة وهو امكانية أن تكون هناك افتراضات في السؤال تجعله سؤالاً غير منطقياً أو تجعله يحمل تناقضاً .

نرجع الى تعريف الله تعالى ، حيث قلنا انه خلق كل شيء بما في ذلك المكان والزمان والمادة والطاقة والحياة التي نعرفها على الأرض (وربما حياة أخرى في مكان آخر) الخ . وعليه فهو لا يخضع لقوانينها لانه موجود بدونها لانه هو الذي أوجدها . اذن ان الله لا يخضع للزمان والمكان . وعند تمحيص السؤال

المطروح نستطيع ملاحظة وجود تسلسل زمني متضمن فيه ويتضمن أن الله خاضع للزمن . فالسؤال من الذي خلق الله يتضمن أن هناك شيئاً آخر كان موجوداً قبل وجود الله وذلك الشيء هو الذي أوجد الله في فترة زمنية لاحقة . كما أن السؤال يتضمن أن الزمن يسري ليس فقط على الله بل على خالقه الذي نريد معرفته حيث انه لم يكن قد خلق الله في الفترة الزمنية قبل خلقه له . لذا فهو يعيش تحت قانون الزمن الذي يسري عليه أيضاً . والسؤال في الواقع يفرض أن الزمن قانون مطلق وأزلي وليس قانوناً مخلوقاً ، وان الزمن موجود قبل وجود أي شيء وان كل شيء يخضع له . وهذا ليس صحيحاً كما رأينا (في الفصل السابق) ، فالزمن ليس سوى قانوناً واحداً من قوانين عالمنا ومجرد وجه من وجوهه ، وهو عبارة عن تأثير يعتمد على سرعة المشاهد وسرعة الضوء ، ويمكن أن يكون صفرأ (نظرياً) ، أي ينعدم ، وكما انه لا يوجد شيء بدون وجود عالمنا ، لا حجر ولا أرض ولا شمس ولا قمر ، ليس هناك زمن .

فالسؤال اذن يتضمن افتراضات خاطئة تجعله خطأ لا يمكن قبوله وليس له جواباً لانه ليس سؤالاً . وهو يشبه السؤال عن سرعة طيران السلحفاة . والماديون عليهم أن يبرهنوا أن الزمن قانون أزلي قبل طرح السؤال . وهم يؤمنون بالعلمية ولكنهم بعيدون كل البعد عنها . والأسوأ من ذلك أنهم غافلون عن ذلك تماماً . فهم لا يعلمون ، ولا يعلمون أنهم لا يعلمون . ولعل الحق أن نذكر في هذا المكان الآية الكريمة في قوله تعالى ﴿^(١)واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا أنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون﴾ .

خلود الله :

اذا كان الله لا يخضع للزمن فهو خالد . وهو الأول قبل كل شيء والآخر بعد فناء كل شيء . وفناء كل شيء معناه فناء الكون وما فيه والله موجود الكون

(١) سورة البقرة، الآية ١٣ .

وما فيه ، فهو موجود بدونه . والقول أن الله موجود قبل كل شيء وبعد فناء كل شيء قول نسبي (بالنسبة لنا) لأننا لا نفهم قياس الأمور الا بالزمن . والزمن مخلوق كما نحن مخلوقون ويفنى كما نفنى وفناؤه لا يؤثر على وجود الله ، وليس لوجود الله علاقة بالزمن سوى انه خالقه وسيده . فالله تعالى خالد .

الله عالم الغيب :

اذا تحرك مشاهد بسرعة أسرع من سرعة الضوء فانه (نظرياً) يستطيع أن يرى المستقبل والماضي . ولما كان الله هو الذي خلق الضوء والزمن فانه يستطيع أن يرى (أو بتعبير أدق يعلم) ويقدر ما سيحدث مستقبلاً بالنسبة للزمن . ولذا فهو يعلم المستقبل وليس هناك ما هو عجيب في ذلك بل ان تصور هذا الموضوع سهل . (لاحظ ما قلنا في الفصل السابق عن اختزان الحوادث في متاليات زمنية) .

وكلمة «نظرياً» التي استعملناها هنا تنطبق على حالتنا نحن الخاضعون لقوانين هذا الكون لأن أجسامنا تتكون من المادة . ولكنه ليس نظرياً بالنسبة لشيء لا مادي . وكما رأينا سابقاً فان سرعة الضوء هي الحد الأعلى لسرعة حركة الجسيمات المادية ، أو بتعبير أعم المادة ، ولكنها ليست الحدود لما هو لا مادي . فليس من الضروري أن تكون هناك أي حدود لسرعة حركة الأشياء اللامادية ، أو الأشياء التي تتكون من نوع آخر من الوجود الذي لا يخضع لقوانين كوننا الفيزيائية . وقد لا تكون هناك ضرورة للحركة لما هو لا مادي لأنه لا يحتاج أن يشغل فراغاً معيناً ثم يتحرك فيه ليشغل فراغاً آخر . فالموضوع بالنسبة له قد يأخذ أشكالاً وادراكات من نوع آخر لا نألفه نحن البشر على الأرض .

الله والموت :

هل ان الله ينام ؟ وهل يستطيع الله أن يميت نفسه ؟

كثيراً ما يسأل الناس اسئلة كهذه ويفكرون في هذه المواضيع ، خاصة

الماديون منهم . ويتأثر الكثيرون بها ، خاصة النشأ الجديد من الأجيال الطرية .
ولذا فان الدخول في هذه المواضيع ، وان كان شائكاً لا يخلو من فوائد في
توضيح بعض المسائل المهمة والرد على الالحاد .

وبالنسبة للسؤال الأول نستطيع القول انه وبموجب تعريف الله على انه
خالق الأشياء كلها وانه ليس بحاجة الى شيء ، فانه لا يحتاج الى النوم . وهذا
الجواب يكفي الآن ، وسوف نتطرق الى هذا الموضوع من وجهة نظر أخرى
قريباً . وقبل الخوض في موضوع الموت لا بد من التعرف على بعض المفاهيم
المهمة المتعلقة به لتوضيح الفرضيات التي تتضمنها هذه الأسئلة .

وهذه المفاهيم هي :

- تعريف الكائن الحي بموجب مفهومنا البشري .
- ماهية الموت .
- ماذا يحصل للكائن الحي عند الموت .

وبعد توضيح هذه المفاهيم نستطيع أن نحدد فيما اذا كان الله بحاجة الى
النوم أو انه خاضع للموت . فاذا كان الله لا يخضع لقانون الموت فان الاسئلة
أعلاه تصبح لا معنى لها سوى انها جمل لغوية لا تحمل أي أهمية فكرية .

ان الكائن الحي هو الكائن الذي يتحرك ويتنفس ويتغذى وينمو ويتكاثر
الخ . والموت ظاهرة تصيب الكائن الحي فيفقد قابليته على الحركة والتنفس
والغذوي والنمو والتكاثر الخ وتفقد خلاياه قابلية الدفاع عن نفسها ضد الأحياء
المجهرية والكائنات الحية الأخرى فيتفسخ الجسم ويتناثر ويرجع الى مكوناته
المادية الأولية . هذه ظواهر مادية لا جدال فيها .

ولكن الكائن الحي ليس فقط مادة . فالمادة وحدها لا تتحرك أو تتغذى أو
تتكاثر . ولذا فانه يتكون من مادة ومحرك لتلك المادة . وهذا المحرك هو الفرق
بين الحياة والمادة . والكائن الحي يفقد ذلك المحرك عند الموت . فما هو هذا

المحرك ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟

ان المسألة التي يجب توضيحها هي أن هذا المحرك كان موجوداً في الجسم الحي ، وبعد الموت لم يعد موجوداً فيه ، أو بتعبير آخر ان له سلطاناً وتأثيراً على المادة التي نسميها الجسم وبعد الموت يفقد سلطانه هذا .

ويقول بعض الناس انه ليس سوى تنظيماً معيناً للخلايا والحوامض الامينية والبروتينات والـ DNA فيها . وعندما يفقد الكائن الحي هذا التنظيم يتوقف عن الحركة ويموت . ولكن هذا ليس تفسيراً للموت ، بل هو وصف لما يحدث عند الموت . وتجدر الإشارة هنا الى ان هذا التنظيم موجود في جميع الخلايا الحية ، وعند الموت تفقد جميع خلايا الجسم هذا التنظيم مرة واحدة بحيث لا تجد خلية واحدة في الجسم الميت باقية على ذلك التنظيم ، بل لو فحصت جميع الخلايا لوجدت ان التنظيم قد دُمّر . والذي يلاحظ هنا أن عملية تدمير هذا التنظيم عملية منظمة وتسري على جميع الكائنات الحية بنفس الطريقة والمقدار . فما هو سبب هذا التنظيم ؟ ومن الذي يحافظ عليه طالما الكائن الحي حياً ؟ ثم ما هو سبب تدميره عند الموت ؟

ان الكلام عن هذا التنظيم وسبب وجوده وسبب تدميره لا يختلف عن سبب الحركة في الكائن الحي وسبب توقفها عندما يموت الكائن الحي ، وعن سبب عدم تفسخ جسم الكائن الحي وسبب تفسخه بعد الموت . الا أن الفرق هو أن هذا التنظيم لا يمكننا ملاحظته بالعين المجردة ، ولكن توقف الكائن الحي عن الحركة وتفسخه يمكن ملاحظتهما بالعين المجردة . لذا يتصور بعض الناس ان هناك فرقاً بين تلك الظواهر ، وأن وجود تنظيم الخلية وحوامضها وبروتينها والـ DNA الخ أو عدم وجود هذا التنظيم هو سبب الحياة أو الموت . ولكن الحقيقة أن الحياة هي سبب ذلك التنظيم ، وأن هذا التنظيم والحركة والنمو والتكاثر الخ كلها من ظواهر الموت ، وان تنظيم الحوامض الامينية في الخلايا أو تدميره ليس سبباً في الحياة أو الموت ، ولكنه أحد ظواهر الحياة والموت ، والفرق

بينها بالضبط كوجود الحركة أو عدم وجودها في الكائن عند الحياة أو الموت . وهذه ظواهر مادية بأجمعها . نرجع الى سؤالنا مرة اخرى ، ما هو المنظم وما هو المحافظ على ذلك التنظيم ؟ وماذا يحدث له عند الموت ؟ شيء واحد أكيد يمكن قوله هنا وهو أن المنظم يفقد سلطانه على تنظيم الحوامض الامينية عند الموت . نستنتج اذاً ان للموت ظاهرتين تبعاً لما تقدم . الظاهرة الأولى ، بموجب التعريف المادي ، هي توقف الجسم عن الحركة والتكاثر والنمو الخ . والظاهرة الثانية هي فقدان محرك المادة لسيطرته على تلك المادة .

ولكن أين هذا المحرك ؟ هل هو في داخل الجسم أم في خارجه ؟ هناك احتمالان . الأول ان محرك المادة موجود داخل الجسم عندما يكون الكائن حياً وعند الموت يفقد الجسم هذا المحرك . عندئذ نسال الاسئلة التالية : أين يذهب هذا المحرك ؟ هل يبقى في عالمنا هذا (الذي يتكون من فراغ وزمن) أم انه ينتقل الى عالم آخر ؟ (لاحظ أننا هنا استعملنا مصطلح ينتقل بدلاً من يرحل لان الإرتحال يتضمن حركة ويتطلب زمناً ومكاناً لاننا نستعمله لتوضيح تغيير المواضع ، والذي ربما ليس ما يحدث عند الموت . فالزمان والفراغ محدودان الى الوجود المادي . ومصطلح الانتقال قد يصف ما يحدث بصورة أفضل لانه انتقال نوعي خلال برزخ) . وعلى أي حال فان السؤال الذي يتبع هو : ما هو ذلك العالم ؟ وهل يحتوي على فراغ وزمان مثل عالمنا أم أنه وجود من نوع آخر لا يحتاج الى المكان والزمان ؟

ويمكن القول هنا انه لما كان تأثير المحرك يسري في عالمنا من خلال الجسم ، فان ترك الجسم يجعله غير مؤثر بالطريقة التي نتحسسها . وبما أنه ليست هناك أدلة على أن تأثيراً كهذا يسري خلال مادة اخرى (أي خلال جسم آخر) لاننا لا نرى الناس تُبعث من الموت بأجساد أخرى ، لذا بإمكاننا أن نفرض وبطمانينة ، ان المحرك يبقى معلقاً بشكل من الأشكال ، واذا فرضنا انه يبقى في عالمنا فان ذلك يعني انه سيشغل حيزاً . ولما كانت الحالة ليست كذلك

لأننا نفرض انه لا مادي ، لذا فانه بالامكان أن نفرض انه ينتقل الى عالم آخر من الوجود . وهذا الوجود الآخر هو نوع من الوجود ليس بالضرورة أن يكون منفصلاً عن عالمنا ، ولكنه درجة اخرى من الوجود . ولا يستطيع المحرك أن ينتقل اليه طالما انه مرتبط بالجسم (أي بالعالم المادي) . ولكن عندما ينقطع هذا الارتباط بواسطة الموت يصبح باستطاعته الانتقال الى العالم الآخر . وقد يستطيع أن ينتقل مرة اخرى الى عالمنا تحت ظروف خاصة . وبكلمة أخرى فان المحرك (الروح) بإمكانه أن ينتقل الى / ومن العالم الآخر تحت ظروف خاصة . وما يفصلنا عن ذلك العالم هو حاجز نوعي لا تستطيع أجسامنا (أي المادة) أن تخترقه لأننا لسنا مخولين أو مؤهلين لتجربة كهذه ، ولكن المحرك مؤهل لها .

ولیکن ما قلناه هنا كافياً الآن ، وسوف نرجع اليه عندما نتكلم عن العلاقة بين الروح والمادة حيث أننا سنوضح هذا الموضوع بالتفصيل هناك .

الاحتمال الثاني ان محرك المادة لا يوجد داخل الجسم الحي ولكنه شيء خارجي موجود خارج جسم الكائن الحي وبطريقة ما يؤثر على جسمه (أو بتعبير آخر على هذه الكتلة من المادة التي نسميها الجسم) فيحركه ويسبب فيه النمو والتكاثر الخ . وهنا فان هناك شيء أكيد وهو ان ارتباط المحرك بالجسم في هذه الحالة ، والوسط الذي يسري خلاله تأثير هذا المحرك على الجسم ليسا ارتباطاً مادياً ولا وسطاً مادياً ، والا لرأيناها وللمسناهما . لذا يجب أن يكونا ارتباطاً لا مادياً ووسطاً لا مادياً . وهنا نسأل السؤال التالي : أين يوجد هذا المحرك في هذه الحالة ؟ هل هو في عالمنا أم في عالم آخر ؟ وماذا يحدث له ولتأثيره عند الموت ؟ وهل هناك محرك واحد يحرك كل الكائنات الحية أم هناك محرك واحد لكل كائن حي ؟ وفي الواقع فان الجواب على هذه الاسئلة ليس سهلاً . ولكن ما يمكن التأكيد عليه هو أن الارتباط بين الجسم ومحركه ينقطع عند الموت . وما يمكن التأكيد عليه أيضاً هو أن لكل كائن حي محركه ، وذلك بسبب اختلاف رغبات الكائنات الحية وتعارض متطلباتها التي تدفعها لقتل بعضها بعضاً

للحصول على الغذاء أو غيره ، ووتدمير بعضها بعضاً . ولعل ذلك أوضح ما يكون عند الانسان حيث نجد الناس مختلفين في آرائهم الى حد التناقض في كثير من الأحيان ، ويتصارعون حتى الموت وبعضهم يتلذذ في قتل الآخرين أو انزال الآلام بهم . فلو كان المحرك واحداً لجميع الكائنات الحية لَسَيَّرَهَا بطريقة أفضل للجميع دون اللجوء الى الدمار والقتل والآلام ، لان هذه الآلام تصيب ذلك المحرك نفسه وليس من المعقول أن يسبب المحرك تعاسة نفسه وآلامها لعدم ضرورة ذلك . كذلك عندما يتلذذ جسم بانزال الآلام بجسم آخر يحدث التناقض لان المحرك (اذا كان واحداً لجميع الأجسام) سيشعر باللذة والألم بنفس الوقت ، أي انه سيكون سعيداً وتعيساً في الوقت ذاته ، وهذا معناه وجود المتناقضين في شيء واحد ووقت واحد وهو مستحيل لان البديهيات العقلية تقر بمبدأ عدم التناقض .

ومهما كانت الحالة فان المحرك شيء لا مادي وذلك لعدم امكاننا رؤيته أو لمسه ، ولكن بالامكان رؤية تأثيره الذي هو الحياة . ولعله من المناسب هنا أن نذكر أن هناك أنواعاً كثيرة من الحياة على الأرض . وعادة فانها تصنف الى فيروسات ونباتات وحيوانات وبشر . وبعضها يتكاثر بالانشطار وبعضها يتكاثر بالبذور وبعضها يتكاثر بالبيوض وبعضها بالولادة . ويتكاثر بعضها بأشكال أخرى مثل أقلام النباتات والبراعم الخ . وبعضها يموت اذا قطع جزء مهم منه ولكن بعضها لا يموت حتى لو قطع معظمه . وهذه الأنواع كلها موجودة على الأرض وليس هناك ما يدعونا للاعتقاد أن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي توجد فيه حياة .

وبعد أن قلنا كل هذا نرجع الى سؤالنا : هل يستطيع الله أن يميت نفسه ؟ وللإجابة عليه ، نقول : ان السؤال يحمل فرضيات كثيرة يجب تمحيصها أولاً والتأكد من صحتها أو عدم صحتها .

الأول : السؤال يتكلم عن الموت ، وقد رأينا أن للموت ظاهرتين .

الأولى توقف الجسم عن الحركة والنمو والتكاثر الخ . فان كان هذا هو المقصود في السؤال فانه يتضمن أن الله جسماً مادياً . وهذا مرفوض لان الله هو الذي خلق المادة ولا يمكن ان يخضع لقوانينها كما رأينا . الثانية فقدان المحرك (الروح) وتأثيره على الجسم ، وهذا أيضاً يتضمن أن الله جسم مادي وفيه روح وهو مرفوض لنفس السبب السابق .

الثاني : ان الكلام عن موت الله يتضمن افتراض احتمال خضوع الله لقانون الموت . ولما كان هذا القانون من قوانين كوننا ، ولما كان الله هو الذي خلق الكون ولا يخضع لقوانينه ، لذا فالسؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فانه مرفوض أيضاً .

الثالث : ان الكلام عن موت الله تعالى يتضمن افتراضاً هو أن حياة الله تعالى مشابهة لحياتنا على الأرض لأن الموت هو نقيض حياتنا . ولما كانت حياة الله ونوع وجوده لا يشبه وجودنا بموجب تعريف الله الذي مر سابقاً . لذا فان السؤال يتضمن افتراضاً خاطئاً ، واذاً فهو مرفوض أيضاً .

الرابع : ان الكلام عن موت الله يتضمن أن الله حي وبالامكان ان يموت بعد فترة زمنية معينة . وهذا تسلسل زمني ، والذي معناه أن الله يخضع للزمن ، وهو مرفوض ايضاً لأن الزمن أحد قوانين الكون وليس شيئاً ازلياً كما مر سابقاً .

يتضح اذن ، ان السؤال : هل يستطيع الله أن يميت نفسه ، يحمل افتراضات خاطئة ويعتبرها بديهيات مسلّم بها مما يجعله سؤالاً خاطئاً . لذا فليس هناك جواب . ومثله كَمَثَل السؤال : هل يستطيع الحجر أن يلد . فالسؤال عن موت الله ليس سوى جمل لغوية لا معنى حقيقي لها في عالم الوجود . فتفكر كيف يلحد الجاهلون .

اما مسألة نوم الله تعالى، فانه من الواضح ان حاجة المخلوقات للنوم سببها اعياء الجسم والله لا جسم له فهو ليس بحاجة الى النوم .

ان المشكلة تكمن في صعوبة محاولة تطبيق القوانين التي خلقها الله تعالى عليه وهي محاولة خاطئة بطبيعة الحال ، ولذا فانها لا تلتقي مع المنطق على أي ارضية كانت لانها تقع خارج عالم المنطق الذي خلقه الخالق الذي خلق كل شيء . وبطبيعة الحال فان اتباع أي طريق يقع خارج الطريق الصحيح فانه ضلال وتيه ولا يمكن أن ينتهي بنتيجة حقيقية ، أو معقولة .

خلود الانسان في الجنة أو النار :

اذا أخرج الله تعالى الانسان من تأثير سلطان الزمن الذي هو ليس سوى قانوناً من قوانين كوننا ، فانه سوف يكون خالداً ، وليس ذلك مستحيل على الذي خلق الانسان والزمن معاً .

ان الله جعل الزمن يحكم الانسان في هذا الكون وهذه الحياة وجعل الانسان خاضعاً له ، وبالإمكان أن يخرج الله الانسان من تأثير هذا القانون فيصبح الانسان خالداً . هذا على فرض فناء الزمن يوماً ما . ونحن لا نقول أن هذا ما يفعله الله جل وعلا ، فانه هو وحده يعلم ما يفعل ، ولا نقول أن هذا هو فعلاً ما سيحصل . ولكننا نقول بإمكانية وقوعه وعدم تعارض إمكانية هذا الوقوع مع المنطق .

قَدَم العالم والعلم القديم :

الفلسفات الاسلامية التي سادت العالم الاسلامي ، وخاصة في فترة حكم العباسيين ، افرقت في الاتجاهات الفلسفية لتفسير قَدَم علم الله وربطه بالزمن وسموه العلم القديم ، ومفاده هل أن الله يعلم بالكون وجزئياته قبل خلقه كما يعلمها بعد خلق الكون؟ أم ان الكون الحاضر يختلف عن ما كان في علم الله قبل خلقه؟ والملاحظ أن الحديث في موضوع كهذا يفترض أن الله خاضع للزمن ، ويفترض أن الزمن موجود قبل خلق الكون . لذا فهو مرفوض من أساسه ، فليس هناك قديم وجديد (أو حديث) بالنسبة لله . ان القَدَم زمن

مقاس بالنسبة لنا ولا علاقة له بوجود الله وكيونته وعلمه . ولقد كتب ابن رشد مقالته في فصل المقال عن موضوع قَدَم العلم هذا مدافعاً عن الفلاسفة ورداً على علماء عصره الذين اتهموا الفلسفة بالكفر مفنداً آراءهم مما يدل على تأثير المسألة وانشغال أصحاب الفكر فيها في ذلك الوقت . وبالرغم من أن ابن رشد دافع دفاعاً جيداً ، إلا أنه لم ينتبه الى أن الله لا يخضع للزمن وليس هناك علم قديم أو حديث . وليس هناك زمن قبل خلق الكون لان الزمن جزء من كوننا هنا ، وأن القول بِقَدَم الله يتضمن سريان الزمن على الله ، وهو غير ممكن .

مسألة خلق القرآن :

مسألة أخرى شغلت المسلمين وهي مسألة خلق القرآن ، وهل أن القرآن ازي في علم الله أم انه خُلِق لحاجة البشر اليه ولم يعلم الله به من قبل ؟

ان هذه المسألة ، ومسألة العلم القديم ، سببتا حروباً ومذابح بين المسلمين وكانوا كلهم في خطأ جسيم حيث افترضوا أن الله خاضع للزمن مثلما هم خاضعون له ، فساووا بينهم وبين خالقهم من هذه الناحية ، وهذا كفر ، لقد كفروا دون أن يشعروا بذلك ، وتقاتلوا وكفّر بعضهم بعضاً ، وراحوا يفسرون القرآن بما تشتهي أنفسهم وبما تصوره صحيحاً . لقد اتبعوا الظن ولا يغني الظن من الحق شيئاً . ولو أنهم انتبهوا لما هو مقصود في قوله تعالى: ﴿^(١) وان يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴾ لما سمحوا لأنفسهم أن يخوضوا في موضوع كهذا . فصدق قول رسول الله (ص) حين قال : تنقسم امتي الى ثلاث وسبعين فرقة ، كلها هلكى ، الا واحدة . وهذه الواحدة هي التي قال فيها الله تعالى ﴿^(٢) ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون ﴾ .

(١) سورة الحج ، الآية ٤٧ .

(٢) سورة المائدة ، الآية ٥٦ .

من هذا نرى أن أصحاب الفكر والفلسفة يخوضون في امور كثيرة
لاعتقادهم صحتها بسبب قلة المعلومات المتوفرة لديهم . ونرى أيضاً خطورة
وجسامة أخطائهم والنتائج المرتتبة على ذلك .

الخلاصة :

يتكون الكون من مكان وزمان وحوادث متواصلة الحدوث . وبما ان الله
هو الذي خلق الكون فلا يخضع لقوانينه . فهو لا مادي ولا يشغل حيزاً وفراغاً
معيناً ولا يخضع للزمن . لذا فهو خالد وسرمدي ولا بداية له ولا نهاية ، لان
البداية والنهاية ، مسائل نسبية زمنية . وليس له شبيه ولذا قال جل من قال :
ولن يكن له كفواً احد .

واذا كان الله لا يخضع للزمن وهو الذي خلق الزمن ، فهو يعلم ما
سيحدث في المستقبل لان المستقبل مستقبل بالنسبة لنا زمنياً وليس بالنسبة لله .
والله حي لا يموت لان الموت يتضمن زمناً . كما أن خلود الانسان في الجنة أو
النار أمر ممكن وذلك باخراج الانسان من سلطان الزمن . وليست هناك أهمية
فكرية للكلام عن قِدَم العلم والعلم القديم ، فليس هناك علم قديم أو
حديث . والكلام عن قِدَم القرآن أو إحداثه كالدوران في الحلقة المفرغة
فليس هناك قرآن قديم أو حديث . ولا يمكن القول بأن الله قديم لأن ذلك
يتضمن سريان الزمن على الله جل وعلى الا اذا كان المقصود انه لا يخضع
للزمن .

من مآثر الامام علي بن أبي طالب في هذا الخصوص :

لا بد لنا قبل الانتهاء من هذا البحث أن نتطرق الى بعض أقوال الامام
علي بن أبي طالب ، الماثورة في هذا الصدد ، والتي كانت ولا زالت الهاماً
لا متناهيماً للعلم في أبعاد آفاقه وللفلسفة الالهية في اعلى مراحلها ، فقال عن الله
تعالى ؛

(فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ،
وعلمها لا بأداة لا يكون إلا بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره . ان
قيل : كان ، فعلى تأويل ازلية الوجود ، وان قيل : لم يزل ، فعلى تأويل نفي
العدم) .

وقال : (لا تصحبه الأوقات ، ولا تردفه الأدوات ، سبق الأوقات كونه ،
والعدم وجوده والابتداء أزله) .

وقال : (لا يجري عليه السكون والحركة ، وكيف يجري عليه ما هو
أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه) .

الى أن قال : (وان الله سبحانه وتعالى يعود بعد فناء الدنيا وحده ، لا
شيء معه ، كما كان قبل ابتدائها ، كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ، ولا
مكان ، ولا حين ، ولا زمان ، عدمت عند ذلك الأجال والأوقات ، وزالت
السنون والساعات ، فلا شيء الا الواحد القهار ، الذي اليه مرجع جميع
الأمور) .

الفصل الثاني عشر

الروح :

قلنا سابقاً ان المادة عندما تتحول الى كائن حي فانها تمتلك شيئاً جديداً وهو الحياة ، وقد سميناها المحرك ، أو الروح . والسؤال الذي سوف نحاول الاجابة عليه في هذا البحث هو : هل هناك روح تختلف في كينونتها عن المادة ؟ أي هل ان الكائن الحي يتكون من شيء واحد، وهو المادة فقط كما يزعم الماديون ، أم من شيئين ، هما المادة والروح ؟

وهذا السؤال يأخذنا الى مشكلة الفلسفة التي استمرت على مر العصور ، والى معترك الصراع بين المدارس الفكرية حول ما اذا كانت هنالك روح أم أن الوجود بأكمله مادة فقط . وفي الواقع ظهرت ثلاث مدارس فكرية على مر العصور . المدرسة الأولى تعتقد بوجود المادة وحدها وليس هناك روح وهي المدرسة المادية . المدرسة الثانية تعتقد بوجود الروح فقط وتزعم انه ليس هناك مادة ، وان ما يسمى المادة هو تصورنا عن الوجود فقط وهذه هي المدرسة المثالية . المدرسة الثالثة تؤمن بوجود المادة والروح معاً وتقع المدرسة الاسلامية ضمن هذه المدرسة . والفكر السائد في عصرنا الحاضر ، وخاصة في أوروبا ، هو

الفكر المادي بعد أن تم التخلي عن المسيحية . ونحن نود أن نشير هنا الى أنه اذا كانت المسيحية لها مشكلاتها التي جعلت الفلاسفة والمفكرين يتخلون عنها فان هذا لا يعني أن الحل الآخر الوحيد هو المادية . ذلك لأننا اذا صححنا المشاكل التي تعاني منها المسيحية بواسطة فكرة أخرى أو مفهوم آخر فاننا نستطيع أن ندعي ثنائية الوجود (أي المادة والروح) مرة أخرى دون أي مشكلة أو أي تناقض . ويتضح أن مشكلة الفلاسفة الأوربيين المعاصرين ، والذين يولد معظمهم على التعاليم المسيحية ، هي أنهم عندما تخلوا عن المسيحية لم يأخذوا الأديان الأخرى بنظر الاعتبار والتمحيص . حيث أنهم اعتبروا المسيحية أقدس الأديان الموجودة ، ولما أصبحت غير مقبولة لديهم ، أصبحت بقية الأديان غير مقبولة أيضاً ، وبذلك رفضوا فكرة الله ، ثم بدأوا يفلسفون أصل فكرة الله ومن أين أتت فخرجوا بالنتيجة السحرية التي تقول أن الانسان هو الذي خلق فكرة الله . وهو قصور واضح في التفكير لأن الفلاسفة يجب أن يبحثوا عن الحقيقة أينما كانت ، وعليهم ان يحصوا كل الأفكار المطروحة وكل الأديان . واذا تخلوا عن فكرة ما عليهم اعطاء التبريرات المنطقية الكافية . ولكي تتضح تفاهة الفلاسفة الماديين أنظر ماذا يقول الفيلسوف الانكليزي (برتراند رسل) عن الاسلام فهو يقول (١) والسكان(*) ، ، ولكي يتخلصوا من الجزية تركوا المسيحية بكثرة للدخول في الاسلام) .

وبطبيعة الحال فان (رسل) يكذب ويفتري على الاسلام ، فالجزية في الحقيقة هي مقدار ضئيل من المال تُفرض على الذمي لقاء اعفائه من الخدمة العسكرية ولقاء كثير من الضرائب التي يدفعها المسلمون لقاء توفير الامن والخدمات وتسقط عن الأطفال والنساء والشيوخ والعجزة والفقراء ، وهذا

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤١٤ .

(*) يقصد أهل الكتاب الذي أصبحوا تحت السيطرة الاسلامية بعد الفتحوات .

المقدار البسيط لم يكن واجباً الا على الرجل الذي يستطيع الحرب ، فاذا أعطاها تدرأ عنه واجبه . فهل يُعقل ان انساناً يغير دينه ويذهب الى الحرب لكي لا يدفع هذا الثمن البخس ؟ وهل يُعقل أن يكون هذا الثمن باهظاً كما يدعي (رسل) خاصة وان المسلم يدفع اكثر منها على شكل زكاة ؟ وبطبيعة الحال فان (رسل) لم يكن يبحث عن الحقيقة كما يجب على الفلاسفة ، بل أقصى ما كان يبحث عنه هو ايجاد ما يسند ادعائه المادي . ويا ليتة كان يجد الوقائع التي تسند ادعائه فعلاً بدلاً من الأكاذيب التي يحشوها عقول قومه . والفلاسفة الأوربيون الذين كانوا يؤمنون بوجود الخالق كانت تجاههم صعوبات كبيرة لانهم لم يستطيعوا أن يبرروا معتقدات الكنيسة التي كانت تشكل المشكلة ، فقد كانوا محدودين بحدودها التي لعب الانسان بها كثيراً .

وهناك مشكلة اخرى يمكن ملاحظتها في تفكير الفلاسفة ، خاصة الاوربيين منهم ، تلك انهم تستحوذ عليهم فكرة محاولة تفسير الوجود على أنه يتكون من شيء واحد ، أما المادة وأما الروح . و (فرويد) أيضاً حاول أن يفسر سلوك الانسان على أنه مرتبط بشيء واحد وهو الجنس . وهذه الفكرة يمكن ملاحظتها على تفكير الكثير من المفكرين . ويبدو الآن أن فكرة المادة قد تبخرت واتضح أن المادة ليست سوى وجهاً من وجوه هذا الوجود ، وهو الوجه المحسوس من العالم . وهناك وجهان لهذا الوجود هما المادة والعقل ، أو ما نطلق عليه الجسم والروح بالنسبة للانسان . والسؤال الآن هل أن المادة هي تصورات العقل عن الوجود ؟ أم ان العقل نفسه ليس سوى المادة آخذة طابعاً آخر ؟ أم أنها شيئان متميزان يتكونان من نوع آخر أكثر أساسية من الوجود ؟ هذا ما سنحاول أن نتعرف عليه في ما يلي .

ان نكران وجود الله يتزامن معه نكران وجود الروح دائماً . ذلك لأنه اذا اعترفنا بوجود الروح فان ذلك يقودنا الى الاعتراف بما وراء المادة والذي يقودنا على الاعتراف بوجود الله . وبالرغم من أن المفروض في الفلاسفة أن يبحثوا عن

الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، فانهم ليسوا كذلك ، الا القليل ، القليل جداً ، منهم . والملاحظ أنهم كبقية الناس (ولكنهم أكثر ذكاءاً) يحملون فكرة معينة ويحاولون جمع الأسباب لتبرير هذه الفكرة . وبطبيعة الحال فانهم يختلفون في درجة تحيزهم الى الفكرة التي يحملونها مسبقاً .

وبالنسبة لموضوعنا ، العقل والمادة ، فان احدى الأفكار تقول أن العقل والمادة هما شيء واحد ولكن الاختلاف بينهما درجة . وهذا المفهوم تشير اليه الاكتشافات الجديدة في علم الفيزياء والآراء الحديثة في علم النفس . ولكن الاكتشافات العلمية وبعض الآراء غير الواثقة في علم النفس أدت الى نوع من التشويش وعدم الوضوح .

(برتراند رسل) يقول (١) يجب القول ان التمييز القديم بين الروح والجسم قد تبخر بسبب ان المادة فقدت صلابتها ، وبسبب أن العقل فقد روحيته) . ونحن نقول أن المادة قد تكون فقدت صلابتها لانها خاضعة للتجربة العلمية ، ولكن من الصعوبة وصف العقل على أنه فقد روحيته لانه غير خاضع للتجربة العلمية المادية على طريقة علوم الفيزياء (لاحظ أننا هنا نتكلم عن العقل وليس الدماغ) . من هذا يتضح أن أي رأي يطرح في هذا الخصوص ليس سوى ظناً ، وانه محدود الى حامله . لانه ليس هناك من سبيل أو طريقة أمام العلم يستطيع أن يبرهن فيها أن الروح ليست موجودة . ولكن (رسل) يؤكد مرة اخرى بالقول (٢) ليس هناك دليل على وجود أي فرق أساسي بين مكونات عالم الفيزياء والنفس . ونحن نعرف عن كليهما أقل مما كان يُعتقد سابقاً ، ولكننا نعرف ما فيه الكفاية لكي نكون متأكدين من أنه لا الروح ولا الجسم باستطاعتها أن يجدا مكاناً في العلم الحديث . فالفيزيائيون اختزلوا

(١) انظر المصدر ٢٥ - ص ١٣٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ص ١٣٤ و ١٣٩ .

الذرة الى سلسلة من الحوادث . ولأسباب جيدة مساوية ، يجد علماء النفس أن العقل لا يمتلك هوية الشيء الواحد المستمر ، بل سلسلة من الوقائع مرتبطة بعضها مع بعض بواسطة علاقات وثيقة معينة) . ونحن نقول انه قد يكون هذا صحيحاً بالنسبة للمادة ولكن ليس بالنسبة للعقل . وقصور الرؤيا سببه قصور التمييز . فالحوادث التي تكوّن المادة ليست حوادث عشوائية ولكنها حوادث منتظمة ومرتبطة بطرق وأساليب خاصة تؤدي الى تكوين الأجزاء المختلفة من الكون (أو الظواهر كما قد تسمى) ، أي أنظمة الكون . وليس هناك دليل على أن العقل مشابه لذلك أيضاً . وحتى لو فرضنا جديلاً أن ما يقوله (رسل) صحيح فالسؤال الذي يطرح نفسه هو ما هي هذه العلاقات الوثيقة ؟ وما هو الشيء الذي يحافظ عليها مرتبطة بعضها ببعض بهذا النظام العجيب ؟ وما هو السر وراءها الذي يحافظ عليها من الانعدام ؟ و (رسل) يستمر بالقول (١) ولا يستطيع حتى المتوقد إيماناً بالروحية أن يدعي معرفة الأدلة على بقاء الروح (*) بقدر ما يستطيع أن يتقدم به المؤرخون للبرهنة على أن السخرة يبائعون الشيطان جسدياً) . وانه لواضح أن ما يريده (رسل) هو أن نموت ثم نرجع لنخبره بالجواب ، وهو ما طلبه الناس من الأنبياء . و (رسل) بطبيعة الحال يعلم أنه يطلب المستحيل ، ويتصوره سناً قوياً لنظريته . ولكن ليس كذلك !!! فالاكتشافات الحديثة بينت عكسه وهو ما يشير اليه (كودمان) عندما يقول ان (٢) اكز . . . الحائز على جائزة نوبل ، تحدى رأي المائة سنة للماديين علناً بالقول أن الانسان يتكون من كلا الشيتين ، نظام فيزيائي وروح غير ملموسة ، مرتبطين بواسطة حاسبة متطورة جداً أو وسيلة اتصال متبادل وثيق - وهو الدماغ . وهو قد توقع التعقيدات التي تتضمنها البحوث الأكثر حداثة على

(١) انظر المصدر السابق - ص ١٣٧ .

(*) اي بقاءها بعد الموت .

(٢) انظر المصدر ١٠ - ص ٢٦٤ .

خبرات قرب - الموت عندما أكد في الستينات من هذا القرن أن روح الانسان تبقى ما بعد موت الدماغ الفيزيائي) . و (رسل) يعطي أسبابه بالقول (١) ان الصعوبة بالنسبة للعلم تنبع من حقيقة انه لا يبدو ان هناك كينونة كالروح أو النفس) . وانه لمن العجيب بالنسبة لرجل مثل (رسل) ان يشذ بهذا المقدار لكي يعطي سبباً كهذا ، ولكن من يبدأ بداية خاطئة ، ومن يحاول الوصول الى هدف خاطيء ، لا بد وأن يطرح سخافات متعشرة كهذه . وخلافاً لرأي (رسل) اننا نعتقد أن الصعوبة أمام العلم هي ليست عدم وجود شيء كالروح ولكن لأن العلم وأدواته محدودة الى العالم المادي وليس بإمكانها الوصول الى ما وراء ذلك لتحسس أي شيء هناك . والعلم ، على كل حال ، لم يدعِ الوصول الى حدوده القصوى بعد ، فالبحوث ما زالت مستمرة وفي تقدم وهناك الكثير الذي ما زال لم يكتشف . و (رسل) يحاول أن يرسم صورة للعلم وكأنه قهر كل شيء ووصل الى الروح فاكشف انها غير موجودة . وهذا بعيد كل البعد عن واقع العلم . و (رسل) يُظهر لنا نقصاً رهيباً في المعلومات ، وقد يكون متعمداً ، عندما يؤكد على أن (٢) الروح ، وكما ظهرت لأول مرة في الفكر الاغريقي ، كانت تمتلك أصلاً دينياً بالرغم من أنه ليس مسيحياً والفيثاغوريون أثروا على افلاطون ، وأفلاطون أثر على آباء الكنيسة وبهذه الطريقة فان معتقد الروح على أنها شيء متميز عن الجسم أصبح جزءاً من المعتقد المسيحي) . أليس هذا غريباً !! فهل يقصد (رسل) ان مفهوم الروح لم يكن موجوداً قبل الفيثاغوريين وأفلاطون ؟ وماذا عن الأنبياء والأديان التي كانت موجودة في الشرق الأوسط كأرض الرافدين والجزيرة العربية ؟ ان ما يقوله (رسل) يدحضه التاريخ ، فمفهوم الروح كان موجوداً في الشرق قبل أن يظهر الاغريق على مسرح الأحداث ، والمسيحية لم تكن بحاجة الى افلاطون ليعلمها

(١) انظر المصدر ٢٥ - ص ١٣٨ .

(٢) انظر المصدر ٢٥ - ص ١١١ .

فكرة الروح حيث كانت هذه الفكرة احدى المفاهيم الذاتية لها منذ البداية كما هي الحال مع بقية الأديان السماوية . ونحن لا نفهم من أين أتى (رسل) بهذا الرأي وكيف توصل الى هذا الاستنتاج الساحر ، ومن الواضح انه لم يؤمن بالحياة بعد الموت كما صرح هو بذلك في مناسبات عديدة ، ولذا فانه ، وكتيجة طبيعية ، لم يؤمن بالروح ، وقد يكون العكس . ومهما يكن السبب فان ذلك ليس مهماً . ولكننا نعتقد انه تخلى عن المسيحية ، ولذا فان الباقي يتبع .

ولتفسير الوجود فان (رسل) يطرح نظريته التالية (١) ان الشيء الذي يتركب منه عالمنا الذي ندركه ، في اعتقادي ، ليس العقل وليس المادة ولكنه شيء آخر اكثر بساطة من كليهما . فكلا العقل والمادة يبدوان متركيبن (*) ، والشيء الذي يتألفان منه يقع بينهما بمعنى ، وفوقهما بمعنى ، كأنه السلف الأعلى) . اذن بالنسبة (لرسل) هناك شيء ثالث أساسي . ولكن هل أن هذا الشيء مادي أو لا مادي ؟ (و (رسل) يسهب في الكلام عن حوادث فيزيائية وعقلية والفروق بينهما ، ويصل الى كيفية تكوين الصور في العقل ، والتي يصعب شرحها مادياً ، فيقول (٢) ان المشكلة الحيوية هي علة الصور . وقد رأينا أنها خاضعة الى أسباب تتعلق بالذاكرة ، وهذه الأسباب التي تتعلق بالذاكرة قد يمكن اختزالها الى أسباب فيزيائية في الخلايا العصبية . وهذا هو السؤال الذي يدعو الى أن يتحول تفكيرنا باتجاه ما قد يطلق عليه المادية . وأحد معاني المادية هو الرأي القائل أن جميع الظواهر العقلية معتمدة سببياً على الظواهر الفيزيائية في المفهوم المعرف أعلاه للتبعية السببية . وسواءً كانت هذه هي الحالة أم لا ، فاني لا أظاهر بأنني أعرف . والسؤال يدولي انه نفس السؤال ما اذا

(١) انظر المصدر السابق - ص ١٠ .

(*) اي انها يتكونان من شيء آخر على شكل تركيب .

(٢) انظر المصدر ٣٣ ، ص ٣٠٣ .

كانت العلة التي تتعلق بالذاكرة هي النهائية ، والتي درسناها دون اتخاذ القرار . ولكنني اعتقد أن معظم الأدلة تشير الى الجواب المادي على أنه الاكثر احتمالاً) . ويبدو أن الصعوبة تنشأ من محاولة نسب علة الصور الى الظواهر المادية ، والتي هي سؤال يستعصي حله بالنسبة (لرسل) ، ولذا فانه يتركه دون حل . ونحن نتساءل اذا كانت هذه هي الحالة فما هو الذي يدعوه الى القول بأنها مادية ؟ واذا كانت هناك أدلة ، كما يقول ، لماذا لا يستطيع اتخاذ القرار بصدها ؟ ان التناقض واضح في تفكيره ، وعجزه عن اتخاذ القرار لا يليق بالفيلسوف . فاما أنه يترك القضية بدون ابداء رأيه ، أو انه يسند رأيه بأدلة مقبولة اذا كانت مادية . ولكن ما يحدث هنا هو أن (رسل) لا يستطيع أن يقرر على الجواب ولكنه بنفس الوقت يزيح رأيه نحو المادية بدون أي دليل أو تبرير منطقي . والسبب الوحيد الذي نراه لهذا الموقف المتذبذب هو تحيزه ضد وجود الروح ، لأن الاعتراف بوجود الروح يقوده الى الاعتراف بوجود الله وبالنسبة له فان هذا معناه الرجوع الى المسيحية ومعتقداتها التي تشكل تناقضاً لا يمكنه أن يتحملة . ولذا فانه في الواقع مُحاصر ، ولا يمكنه الا ان يبقى كذلك . ولكنها زاوية ليست مريحة تماماً لكي يضع نفسه فيها . وهو لم يبحث عن حل لتناقضات المسيحية بواسطة مذهب آخر قد يعطيه الأجوبة لحل الغموض والالتباسات التي واجهها هناك . ولكنه ، ولكي يفر من هذا الموقف ، فانه يحاول المحاولة التالية ، وهي طلب أقل ما يقال عنه انه غير مقبول من مفكر . فهو يقول (١) ان الصوفي نفسه قد يكون متأكداً انه يعرف ولا يحتاج الى اختبارات علمية ، ولكن اولئك الذين يطلب منهم أن يقبلوا بيئته سوف يخضعونها الى نفس نوع الاختبارات العلمية كتلك التي تطبق على الرجال الذين يقولون انهم ذهبوا الى القطب الشمالي) . فهو يطلب أدلة علمية ، وبطبيعة الحال أن الأدلة العلمية تتضمن تحسناً . والتحسس يتضمن المادية . وهو طبعاً يعرف ما يطلبه جيداً ، ونحن نرى انه

(١) انظر المصدر ٢٥ - ص ١٧٨ .

يطلب المستحيل لان ما وراء الطبيعة ، وبالتعريف ، ليس شيئاً مادياً ولا يمكن اخضاعه للتحسس المادي . وهذا يذكرنا بما كان يُطلب من الأنبياء - المعجزات . وقد قال تعالى ﴿^(١) يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) . والأنبياء أتوا بالمعجزات ، ولكن ليس لأناس مثل (رسل) الذي يجب أن يقتنع بشيء أقل من المعجزة المادية الواضحة . وأنه لو اوضح أن (رسل) طلب واحدة . وهذا يذكرنا بما أراد (كاكارين) عندما قال لم أر الله . وهذا يبين أن الانسان لم يتغير كثيراً خلال العصور كما قد يظن بعض الناس بالرغم من التقدم العلمي المعاصر . وقد قال تعالى ﴿^(٢) ولن نجد لسنة الله تبديلاً﴾ .

اما بالنسبة للصور فقد بين الفلاسفة الاسلاميون أنها لا مادية . وحجتهم في ذلك هي كالاتي . دعنا نأخذ حالة النظر الى دار بنظر الاعتبار . ما هي الصورة التي تدركها عقولنا عن الدار؟ والجواب يقع ضمن أحد الاحتمالات الثلاثة التالية التي تختلف عليها المدارس الفكرية . الأول أن الدار نفسه هو الصورة الموجودة في ادراكاتنا ، وهذا بطبيعة الحال مستحيل لاننا أحياناً نرى أشياء غير موجودة (حيث يخيل لنا وجودها) ، ولأن ما عندنا من الشيء المرئي هو الاشعة الضوئية المنعكسة منه فقط . الاحتمال الثاني أن الصورة المدركة هي نتاج مادي يوجد في خلايا الادراك في الدماغ . وهذا غير ممكن أيضاً لان الصورة المدركة بحجمها الكبير ، وأبعادها من الطول والعرض والارتفاع ، لا يمكن أن توجد في مادة الخلايا العصبية الصغيرة الحجم . وبطبيعة الحال فاننا لا ننكر أن هناك تأثيراً ما يحدث في الخلايا العصبية لانتاج الصورة ولكن هذه الصورة المادية في خلايا المخ ليست الصورة التي يدركها العقل لانها لا تمتلك

(١) سورة النساء - الآية ١٥٣ .

(٢) سورة الاحزاب - الآية ٦٢ .

الابعاد التي تمتلكها الصورة المدركة . وكما أننا لا نستطيع أن نضع صورة للدار تمتلك نفس ابعاد الدار على قطعة صغيرة من الورق فاننا لا نستطيع أن نضع صورة عقلية للدار على منطقة صغيرة في الدماغ ، حيث ان طبع صورة كبيرة على ما هو أصغر مستحيل ، لاحظ ان العقل يدرك الأبعاد الكبيرة للدار ، وكذلك أبعاد الأجزاء الكبيرة والأجزاء الصغيرة ، من خلال الصورة التي يدركها ، وبالطبع فانه يدرك ان حجم الدار أكبر من حجم الدماغ . وهذه كانت الصعوبة التي واجهها (رسل) .

الاحتمال الثالث الذي بقي هو أن الصورة المدركة للدار لا مادية وتوجد خارج المادة . وهذا هو المقصود بالمفهوم القائل ان الادراك لا مادي بطبيعته . وهذا المفهوم يسنده الثبات . والمقصود بالثبات أن الصورة التي يدركها العقل ثابتة ولا تتغير بتغير الصورة المنعكسة للدار على خلايا الدماغ . كما هي الحال عند النظر الى الدار من مسافة بعيدة . فبالرغم من أن الصورة المنعكسة عن الدار أصغر في هذه الحالة ، فان العقل يدرك نفس الصورة الأصلية حتى لو فرضنا ان ذلك يتطلب خبرة سابقة . فان الحقيقة تبقى نفسها ، وهي ان الصورة المدركة تبقى ثابتة بينما الصورة المنعكسة تتغير بتغير المسافة بينها وبين الدار ، والتي تؤكد الطبيعة اللامادية للصورة المدركة . وبذلك فان مشكلة (رسل) التي كان عاجزاً عن اتخاذ القرار بصدها قد تم حلها .

و (رسل) يعود ليقع في تناقض مع تمييزه الأول نحو المادية ، فيقول^(١) (وأنا اعتقد ، وعلى كل حال ، وعلى أساس نظرية المادة . . . ان تفسيراً علمياً نهائياً لما يحدث في العالم ، اذا كان من الممكن التحقق منه ، سيسابه علم النفس أكثر من الفيزياء فيما وجدناه من فرق حاسم بينهما) . وبهذا الرأي يتضح تردد (رسل) وتذبذبه في اتخاذ القرار النهائي لتفسير طبيعة

(١) انظر المصدر ٣٣ - ص ٣٠٥ .

الوجود . وفي هذا الرأي الأخير له يمكن تحسس التناقض مع نظريته في « الشيء الثالث » الذي تتكون منه المادة والعقل . وذلك لانه اذا كان الشيء النهائي يشبه علم النفس وليس الفيزياء ، والذي معناه العقل وليس المادة ، فلا يبقى هناك مبرر للشيء الثالث الذي يطرحه (رسل) كنظرية ، والشيء النهائي هو العقل وليس المادة . ولذا فان (رسل) يشير الى (١) ان خطأ فلسفة المادة هو الذي سبب كثيراً من الصعوبات في فلسفة العقل والعقل عبارة عن درجة ، متمثلاً بصورة رئيسية في عدد وتعقيد العادات وكل القضايا المسلم بها ، في كلا الفيزياء وعلم النفس ، خاضعة الى قوانين العلية النفسية ، ولكن قوانين العلية الفيزيائية ، وعلى الأقل في الفيزياء التقليدية ، يمكن صياغتها بلغة المادة فقط والتي هي ليست معلومات مسلم بها سواءً كانت مُستدل عليها أو مركبة . وفي هذا الخصوص فان علم النفس هو أقرب الى ما يوجد فعلياً) .

ان التذبذب بين ما اذا كان الشيء النهائي هو المادة أو العقل واضح عند (رسل) . وبالرغم من انه يقترب من الوصول الى حقيقة الشيء النهائي الا أن نظرية المادية تحجب صورة الواقع النهائية عنه ، وهو في الواقع لا يوضح ما اذا كان الشيء النهائي مادة أم عقل . فتارة يقول أن العقل درجة من المادة ولكنه يرجع ليقول أن علم النفس هو أقرب الى ما يوجد في الواقع . وفكرة محاولة البرهنة على أن الوجود يتكون في النهاية من شيء واحد لا زالت تستحوذ على تفكير (رسل) . وبسبب ذلك . وبسبب تصوره ان العقل والمادة ليسا سوى تركيبين منفصلين ، فانه يعتقد انه اذا مات الانسان فان التركيبين يتحطمان ، ولذا فانه من غير الممكن اعادة اجتماعهما مرة اخرى . ولكنه لا يتكلم أبداً عن كيفية اجتماعهما في المرة الأولى . وقد يكون ذلك بسبب ايمانه بأن الحياة انبثقت

(١) انظر المصدر السابق - ص ٣٠٧ و ٣٠٨ .

في المادة بطريقة الصدفة كما تزعم نظريات التطور ، فهو يقول (١) اذا كنا نريد أن نؤمن ببقاء الشخصية بعد الموت ، يجب علينا أن نفترض وجود استمرارية للذاكرة أو على الأقل العادات ، لانه بدون ذلك لن يكون هناك سبب لافتراض أن نفس الشخص مستمر في الوجود والعادات والذاكرة كلاهما ناتجتان عن تأثيرات معينة على الجسم ، خاصة الدماغ . . . والتأثيرات على الجسم التي تولد العادات والذاكرة تنمحي بالموت والتفسخ ، وانه لمن الصعب رؤية كيف يمكن انتقالها ، عدا حدوث المعجزة ، الى جسم جديد كالذي يُفترض اننا نقطنه في الحياة الآخرة ان استمرارية الشخص طيلة حياة جسمه ، اذا كانت تعتمد، مثل ما اؤكد ، على تكوين العادات فانها يجب أن تعتمد أيضاً على استمرارية جسمه فالشخصية هي قضية تنظيم بصورة أساسية ، حيث أن حوادث معينة تجتمع مع بعضها بواسطة علاقات معينة لتكوين الشخص . والاجتماع يُنجز بواسطة قوانين العلية - تلك التي لها علاقة بتكوين العادات ، والتي تتضمن الذاكرة - وقوانين العلية المعينة تعتمد على الجسم . فاذا كان هذا صحيحاً - وهناك أسس علمية قوية للاعتقاد بأنها كذلك - فان توقع بقاء الشخصية بعد تحطيم الدماغ هو مثل توقع بقاء نادي للكركت(*) عندما يموت كل اعضاؤه) . ان ما يتضمنه هذا الكلام مهم للغاية لان ما يريد (رسل) ان يراه هو بقاء الروح في عالمنا هذا بعد الموت كبقائها عندما تكون داخل الجسم . وهذا يفترض ، كحقيقة مسلم بها ، ان الوجود المادي هو الوجود الوحيد ، والذي في الواقع يجب على (رسل) ان يبرهنه بدلاً من اعتباره حقيقة . ولنرجع الى نظرية « الشيء الثالث » التي يقترحها . فاذا كانت الظواهر التي تكوّن العقل مختلفة عن الظواهر التي تكوّن الجسم فلماذا يفترض تحطيمها هي الأخرى عند تحطيم ظواهر الجسم ؟ اننا نستطيع أن

(١) انظر المصدر ٢٥ - ص ١٤١ - ١٤٣ .

(*) لعبة تتطلب فريقين للقيام بها .

نقترض بقاءها وليس هنالك اشكال .

ان هذه النظرية (نظرية الشيء الثالث) على اي حال لا تفسر كيف يحدث بناء العقل . وان الشيء الذي تقود اليه هذه النظرية هو الآتي : بعد الشيء الأساسي الثالث تأتي المادة فقط (قبل خلق الحياة) . وانه لمن الصعب تصور كيفية بناء العقل والمادة (من خلال هذه النظرية) في وقت لاحق . والشيء الذي لم ينتبه اليه (رسل) هو أن العقل يتحكم بالمادة بحيث أن المادة تتجمع لانشاء نظام معقد (هو الجسم) . وبكلمة اخرى ، ان الظواهر التي تسمى العقل تتحكم بالظواهر التي تسمى المادة بحيث ان العقل يقود المادة كما يقود السائق السيارة . واذن عندنا هنا نوعان من الظواهر المنظمة ، احدهما ، وهي المادة ، سلبية أو المستعبدة ، والثانية ، وهي العقل ، فعالة ، أو المسيطرة . ويتضح أن هناك نظاماً تسلسلياً من ناحية المراتب . ولكن الغريب فيها ان ما كان موجوداً أولاً هو المسيطر عليه ، ثم ولد المسيطر من المسيطر عليه . وهذا لانه ، وبموجب النظرية ، ما كان موجوداً أولاً هو الشيء الثالث والذي كان على شكل مادة فقط (لان الحياة لم تكن موجودة في البداية) . ومنه يتبع أن الوجود بأكمله كان على شكل مادة أولاً لانه من الصعب تصور وجود المادة وجزء من الشيء الثالث على شكل شيء ثالث نقي ، والذي أصبح العقل بعدئذ . والصعوبة الأخرى هي أن هناك عقولاً جديدة تخلق عند الولادة . فأما أن المادة تتحول الى عقل ، وفي هذه الحالة تصبح نظرية الشيء الثالث غير ضرورية ، أو ان هناك جزءاً من الشيء الثالث النقي ما زال موجوداً ، وبطريقة ما ، وبأسلوب معقد ومتطور جداً ، يتحول الى العقل ويتحد بالمادة بحيث انها يبدوان وكأنها وجهان لشيء واحد . وفي هذه الحالة فانها ينفصلان عند الموت ، واذاً ما هو الشيء الذي يمنع اتحادهما مرة اخرى تحت ظروف مشابهة للظروف التي أدت الى اتحادهما أولاً ؟ أليس بالامكان تصور الانبعاث والنشور بهذه الطريقة ؟ فلماذا يصعب على (رسل) تصور اتحاد الروح (أو ما يسميه

العادات والذاكرة) مرة أخرى بالجسم في الحياة الآخرة بعد تحطيم الجسم لأول مرة عند الموت . من هنا نستطيع أن ندرك فشل (رسل) في تفسير الوجود ، ذلك الفشل الذي جعله متذبذباً في آرائه بين المادة والعقل .

وعلى أي حال ، فإن نظرية (رسل) ليست أكثر من نظرية الفلاسفة الإلهيين الأوربيين مصاغة بأسلوب آخر . فأولئك قالوا بوجود الروح والجسم كوحدين منفصلتين ، و(رسل) ، الذي انتقد هذه النظرية انتقاداً لاذعاً وساخرًا ، لم يفعل أكثر من قول النظرية نفسها بطريقة أخرى . فبدلاً من وصف الجسم على أنه مادة وصفه بالظواهر الأساسية للمادة ، كذلك الروح سماها العقل ووصفها بظواهر أساسية أخرى تختلف عن الظواهر الأساسية المكونة للمادة ، واعتبرها تركيبين مختلفين مستمدين من شيء ثالث . وبذلك انتهى إلى القول بثنائية الوجود دون أن يعي ذلك .

الصعوبة الأخرى للنظرية هي صعوبة تفسير كيفية اتحاد روح الحيمن مع روح البويضة في ضوء النظرية لتكوين روحاً واحدة في الإنسان الجديد (وهذه الصعوبة نفسها تواجهها النظرية في الحيوان والنبات أيضاً) . وقد واجه الفلاسفة الإلهيون الأوربيون نفس الصعوبة . ولحلها قالوا أن الروح تدخل الجسم في مرحلة لاحقة . و(رسل) لم يحاول أن يتطرق إلى هذا الموضوع الشائك . وبدلاً من ذلك اختار أن لا يدخل في الموضوع وأن يتجاهله كلياً ، عدا انتقاده للفلاسفة الإلهيين دون تقديم الحل .

وهناك صعوبة أخرى للنظرية أيضاً ، تلك هي أنها لا تفسر كيف ينضج العقل ، وهذا النضج يمكن النظر إليه كنمو في عالم الوجود . فكيف تنمو الأفكار والذاكرة وقوة الإدراك والتمييز والإرادة والوعي من الشيء الثالث بينما الإنسان يُدخل المادة فقط إلى جسمه على شكل غذاء ؟ فالنمو الجسمي يمكن فهمه لأن الغذاء مادة تضاف إلى مادة ، ولكن كيف ينمو العقل إذا كان مستمداً

من ظواهر مختلفة حيث ان الانسان لا يأكل هذه الظواهر ولا يستنشقها ؟ واذا قلنا أن العقل يأخذ احتياجاته من المادة وينمو ، فليس هناك حاجة الى الشيء الثالث اذن . وفي هذه الحالة ، وكما هو واضح ، نرجع الى المادية التي برهنا على عدم كفايتها لتفسير الوجود .

وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا أن العقل هو غمط متطور من التركيب ، أو الوجود لانه يتحكم في المادة . لذا فانه يمتلك خصائص لا تمتلكها المادة حيث أن المادة وحدها لا تسلك ولا تتغير بنفس الطريقة التي تسلك أو تتغير فيها عندما يحكمها العقل . وهذا يقودنا ضد المادية أيضاً ، لانه اذا كان العقل نوعاً من المادة لماذا اذن محدوديته الى أجزاء معينة من المادة الموجودة (التي تصبح حية) بدلاً من المادة بأجمعها؟ ولماذا لا تتغير المادة الميتة الى عقل (أو حياة) الا تحت ظروف خاصة تتطلب تدخل عقول اخرى (بواسطة الانجاب) ؟

و (رسل) يزعم في نظريته هذه انه لا يوجد محرك يحرك الجسم ، وليس هناك روح ، ويدعي ان ما يوجد ليس اكثر من ظواهر مربوطة بواسطة علاقات وثيقة . فهو يقول (١) ان الحقائق الأولية التي يمكن ملاحظتها لا تمتلك ثنائية كهذه ، ولا تعطي سبباً لاعتبار أي من الأشياء أو الأشخاص أي شيء عدا كونها مجموعة من الظواهر) . وهنا فانه لا يميز بين الظواهر التي تكوّن المادة والظواهر التي تكوّن العقل . ولا نعلم ماذا حدث للشيء الثالث وثنائية ظواهر - العقل وظواهر - المادة التي يطرحها هو نفسه . وما نريد توضيحه هنا هو انه لا شك اننا عندما ننزل الى الأساسيات فان الوجود يظهر على شكل مجموعة من الظواهر ، ولكن هذه الظواهر ليست عشوائية ، بل أنها منظمة ومقيدة باتباع اتجاهات ومسالك معينة لبناء المادة والعقل والوجود الذي نتحسسه سواءً في داخلنا أو خارجنا . وهذه الظواهر يؤثر بعضها على بعض بأسلوب مصمم وليس

(١) انظر المصدر السابق - ص ١٢١ .

عشوائياً . واحسن مثال على ذلك هو الفرق الواضح بين العلاقات المكونة للحجر والعلاقات المكونة للشجر ، أو بصورة أفضل العلاقات المكونة للمادة والعلاقات المكونة للعقل ، وهما نوعان متميزان من الوجود . فالفرق واضح ، ذلك ان احدهما يتحكم في الآخر باسلوب معين والذي نسميه الارادة والرغبة عندما نهبط في عالم الوجود الى مستوى احساساتنا وادراكاتنا . ويقول (رسل)^(١) ان جزء العقيدة هذه الذي يخص الحياة الحاضرة زائف بكل تأكيد ، حيث أن مادة الجسم تتغير باستمرار بواسطة عملية التغذية وطرح الفضلات . وحتى لو لم تكن كذلك ، فان الذرات لا تعتبر الآن على أنها تمتلك وجوداً مستمراً في علم الفيزياء ، وليس هنالك معنى للقول : ان هذه هي نفس الذرة كتلك التي كانت موجودة قبل بضعة دقائق . واستمرارية جسم الانسان ليست سوى مظهراً وسلوكاً ، وليست من المادة) . وهذا الاستنتاج ينم عن قصور شديد في الادراك والتفسير . لا شك فيه أن الذرة تتغير ، حيث أن مكوناتها تدور حول النواة فيها ، وتحول من نوع الى آخر ضمنها ، ولكن الذرة نفسها ، وباعتبارها وحدة معينة ، لا تتغير أو تتحول الى وحدة من نوع آخر ولا تتحطم أو تتغير الى شيء آخر ، والا لاقضى تغيرها أن تتغير مكونات وخصائص الجسم . فصحيح ان هناك حركة ضمن الذرة ولكنها ليست فعل انعدام . وعلى أي حال ، ليست هناك أدلة على أن التحولات من نوع الى آخر للجسيمات (ذات الحجم المتناهية في الصغر) المكونة للذرة تفصل بينها فترات زمنية (مهما كانت هذه الفترات صغيرة) بحيث توجد هناك فترة زمنية خلالها لا يوجد شيء (أي خلالها يحدث العدم) . فالتحولات تحدث بشكل مشابه لسلخ قشرة البرتقالة حيث تخلع القشرة وبنفس الوقت يظهر اللب ، وليس هناك فترة زمنية خلالها تكون القشرة قد أزيلت وليس هناك لب تحتها . لذا فان استنتاج (رسل) القائل انه ليست هناك استمرارية في الوجود ، وأن ذرة اليوم ليست نفس الذرة

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

التي كانت موجودة أمس ، ليس استنتاجاً صحيحاً . أما عن مادة الجسم الفعلية فانه من الواضح أنها تتغير وتبديل خلال حياة الانسان ، وليس هناك سبب أو حاجة ، تدعو الى فرضها ثابتة لاننا نرى ذلك عندما تزداد أجسامنا وزناً ، أو تفقد وزناً ، و(رسل) يخلط بين استمرارية وجود الجسم مع مادة الجسم الفعلية الموجودة فيه . فالمادة تتغير ، ولكن الجسم (وهو الصورة) يبقى نفسه . وعلى كل حال ، فان هذا مثلاً رائعاً على امكانية بعث الانسان بمادة مختلفة ولكن بنفس الجسم ، ولا تدعي الأديان السماوية اكثر من ذلك ، فهي لم تزعم أن مادة الجسم نفسها تبقى . ويتضح أن (رسل) يدحض افتراضاً يطرحه بنفسه ولكنه يدعي أن الأديان تزعمه . وسوف نرى في نهاية هذا الفصل كيف ان الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي شرح هذا الموضوع قبل بضعة قرون شرحاً يخلب لب الحكماء ولكن (رسل) غافل عنه .

ويستمر (رسل) برسم نفس التشابه بالنسبة للعقل كما رسمه للمادة فيقول (١) ان الاستمرارية الذهنية للشخص عبارة عن استمرارية للعادات والذاكرة : كان هناك شخص ما أمس استطيع أنا أن اتذكر شعوره ، وذلك الشخص أنا اعتبره نفسي البارحة ، ولكن في الحقيقة ، أن نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الآن ، ويُنظر اليها كجزء من الشخص الذي يتذكرها الآن . وكل ما يكون الشخص هو سلسلة من الخبرات مربوطة بواسطة الذاكرة وبواسطة تشابهات معينة من النوع الذي نسميه العادات) . وهنا فان (رسل) يفترض أن هذه الوقائع مفصولة بعضها عن بعض بواسطة الزمن (بطريقة تشابه زعمه في تعبيرات الذرة) . ولذا فانها بالنسبة له سلسلة مربوطة بواسطة الذاكرة . ولكن السؤال هنا هو : ما هي الذاكرة ؟ وعندما نرجع الى نظريته في تفسير الوجود نجد أنها لا بد وأن تكون عبارة عن سلسلة

(١) انظر المصدر السابق - ص ٧٠ .

من الوقائع أيضاً . وفي هذه الحالة نحن نسأل ، ما هو الشيء الذي يربط هذه الوقائع مع بعضها لتكوين الذاكرة لكي تتمكن هذه الذاكرة من ربط سلسلة الوقائع التي تكوّن الشخص ؟ فان لم تكن مربوطة بشيء ، فان ذلك معناه ان السلسلة ستكون متقطعة ، وبذلك ينقطع الشخص لانه ليس هناك جسر يربط الوقائع المكونة له . واذا كانت مربوطة بشيء يجمعها مستمرة فليس هناك ما يمنع افتراض أن الوقائع التي تكوّن الشخص هي الأخرى مستمرة أيضاً ، وبنفس الوقت مربوطة الى الذاكرة بصورة ما (وعلى سبيل المثال بصورة شعاعية) كما هي الحال في ربط الذاكرة الى وحدة المعالجة المركزية في الحاسبات الالكترونية الحديثة . وبذلك فان التشابه الذي افترضه (رسل) بين الوقائع المكونة للعقل والوقائع المكونة للمادة (بعد افتراض الأخيرة منقطعة بدون أي دليل منطقي) لسنا مجبرين على الأخذ به .

المسألة الثانية في هذا الموضوع هي ان الانقطاع بين الوقائع يفترض أحد الاحتمالين التاليين . الأول أن تتحول الواقعة الواحدة من نوع من الوجود الى نوع آخر من الوجود ثم ترجع الى النوع الأول . وفي هذه الحالة ليس هناك تقطع في الوجود ، واذن فالأنا مستمرة بالوجود وليس كما يزعم (رسل) . الثاني أن تتحول الواقعة من الوجود الى العدم ثم الى الوجود مرة أخرى . أي انه يفترض حدوث العدم بين وجودين ، وهو مفروض أصلاً . فالوجود لا يتحول الى عدم ، واذا انعدم الوجود فان رجوعه مستحيل . وواضح ان هذه مسألة لم تحظر على بال (رسل) اطلاقاً . لاحظ كذلك ان القول بأن الوجود يتحول الى العدم ثم الى الوجود مرة أخرى معناه القول بأن المتناقضين يتبادلان (لان العدم هو نقيض الوجود) وهو مستحيل بديهياً .

ان نظرية الوقائع المنفصلة ، التي تكوّن سلسلة ، لا تفسر الوجود . ونحن نعتقد ان المادة قد يمكن تفسيرها بواسطة سلسلة من الوقائع غير المتقطعة وغير المنفصلة بواسطة التحولات أو عمليات التغير والتبدل . وقد بين العلم أن

هذه التغيرات تحدث بشكل دوري حيث يتحول الجسيم من نوع الى آخر ثم آخر وآخر ثم يرجع الى نفس نوع الجسيم الأول وهكذا . والعقل لا يمكن تفسيره بهذا الاسلوب لأنه نوع من الوجود يختلف عن المادة . وبالنسبة لقول (رسل) « ان نفسي البارحة لم تكن سوى وقائع ذهنية معينة يتم تذكرها الآن » لا تفسر اي شيء ، وبالتأكيد لا تعني أن هناك انقطاع في الاستمرارية وان « أنا البارحة » ماتت (والذي تتضمنه العبارة اعلاه) ، لأن السؤال الذي يطرح نفسه هو : من هو « الأنا الحاضر » الذي يتذكر ؟ ومن أين أتى ؟

ان هذا الأسلوب في التفكير قاد (رسل) الى القول انه عندما يموت الفرد فان الشيء المكون له يتحطم بأكمله . فهو يقول (١)لذا اذا كنا سنعتقد ان الشخص يبقى بعد الموت فانه يجب علينا أن نعتقد أن الذاكرة والعادات التي تكوّن الشخص ستستمر بالعرض بنوع جديد من الوقائع . ولا أحد يستطيع أن يبرهن ان ذلك لن يحدث . ولكنه من السهل أن نرى أن ذلك غير محتمل جداً . فذاكرتنا وعاداتنا مقيدة بتركيب الدماغ بطريقة مشابهة جداً لارتباط النهر الى حوضه ، حيث الماء في النهر يتغير دائماً ولكنه يجري بنفس المجرى لأن المطر السابق حفر قناة . وبأسلوب مشابه ، فان الحوادث السابقة قد حفرت قناة في الدماغ ، وأفكارنا تجري في هذه القناة . وهذا هو سبب الذاكرة والعادات الذهنية . ولكن الدماغ كتركيب يذوب عند الموت ، ولذا فان المتوقع ان تذوب الذاكرة هي الأخرى أيضاً . وليس هناك من سبب للاعتقاد بعكس ذلك بقدر ما هناك سبب لتوقع أن يبقى النهر في مجراه القديم بعد أن تتمخض هزة ارضية عن جبل في المكان الذي كان فيه الوادي) . و (رسل) هنا ، وبعد أن قال بعدم استمرارية الروح (وأنها عبارة عن وقائع متقطعة) وبدلاً منها توجد الذاكرة والعادات ، يذهب الى القول أن هذه العادات لا تبقى بعد تحطيم خلايا

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٧٠ .

الدماغ وذويانها عند الموت . وهنا فانه يتكلم عن بقاء الصور والادراكات ضمن عالمنا الحاضر . وليس هناك من أحد يشك في ذلك ، ولكنه توصل الى استنتاجه هذا على افتراض أن كل شيء في الوجود مادي ، وهو ليس كذلك . لانه اذا كانت الروح لا مادية ، وهي كذلك واذا كانت مستمرة الوجود ، وهي كذلك كما برهنا ، فان الشخص سيبقى بعد الموت . وعلى أي حال ، فان مثال النهر الذي ضربه لنا مرفوض لان الدماغ ليس قناة أو ممراً كحوض النهر ، والعقل ليس فقط افكاراً تجري خلال الدماغ كما يجري النهر خلال حوضه . فالعقل مهندس تصميم وبناء وهو يشيد الأفكار بطريقة ينظم فيها الظواهر المبعثرة التي تكوّن الأفكار بأسلوب منظم خاص بحيث تصبح هذه الظواهر مربوطة بعضها الى بعض بواسطة علاقات خاصة ، لذا فان العقل يبني الأفكار ، مستعملاً الدماغ كألة . والأفكار لا توجد بنفسها ، وإنما التي توجد هي الظواهر التي تعتبر اللبنة الاساسية لها . ولو كانت منتظمة أصلاً كأفكار لما كانت هناك حاجة للعقل لكي يفكر . والبنية لا توجد لان الطابوق موجود ، ولكنها توجد بعد ترتيب الطابوق على شكل نظام خاص . وكذلك الأفكار فانها لا توجد لأن الظواهر التي تشكل لبناتها الأساسية موجودة ، ولكن بعد أن يربط العقل هذه اللبنة بواسطة علاقات خاصة ، عندئذ تصبح أفكاراً . ولذا فاذا ذابت الآلة (أي الدماغ) فان البناء يستطيع أن يركب الأفكار بواسطة آلة اخرى (لاحظ ان الذاكرة والعادات هي جزء من الأفكار) . ولذا فان البقاء بعد الموت والبعث مرة اخرى ممكنان .

والبرهان على أن العقل مهندس بناء يكمن في ملاحظة انه ليس هناك شخصان متشابهان في كل شيء حتى ولو تمت تربيتهم تحت نفس الظروف . فان كل واحد منهما ستكون له شخصيته المميزة ، وحتى التوأمان المتشابهان فانها مختلفان في شخصيتيهما .

ونظرية (رسل) تقر بوجود الروح بالرغم من انكاره لها . فهو نكر بقاء

الروح بعد الموت بالرغم من أن انفصالها عن الجسد لا يتضمن رجوعها الأكيد الى الشيء الثالث الأساسي الذي تقول به نظريته ، أي التحطيم . لذا فان احتمال بقاءها بعد الموت لا يمكن نفيه . لاحظ ان مادة الجسم لا ترجع الى الشيء الثالث بعد الموت ولكنها تبقى كمادة ، وكذلك يمكن تصور الروح .

ان فكرة الروح والجسد المنفصلين عن بعضها لها مساويء كثيرة . دعنا نسمي الظواهر التي تركب العقل ظواهر العقل ، والظواهر التي تركب المادة ظواهر المادة . فاذا كانت ظواهر العقل تتحكم بظواهر المادة ، وهي كذلك ، فان ظواهر العقل أعلى من ظواهر المادة في مرتبة الوجود . ويتبع ذلك انه لما كانت ظواهر العقل مُستمدّة من الشيء الثالث فهناك احتمالان . الأول ان الشيء الثالث أرقى من ظواهر العقل في مرتبة الوجود ، أي انه اكثر ذكاءً . وطبعاً فان النظرية لا تفسر التعقيدات التي تتبع ذلك ، فهذه النتيجة معناها أن الشيء الثالث الأساسي ليس أساسياً جداً كما يزعم (رسل) لانه يمتلك ذكاءً ، والذي بدوره يدحض النظرية نفسها . الاحتمال الثاني أن هناك نوع من الوجود اكثر تطوراً من الشيء الثالث الأساسي يصوغ الشيء الثالث الأساسي الى عقل والى مادة بواسطة تراكيب خاصة . وكلا الاحتمالين يتضمنان وجود نوع من الوجود أعلى مرتبة من العقل . وهذه النتيجة ليست مفرحة كثيراً (لرسل) ، وهي بالتأكيد ليست النتيجة التي كان يود أن ينتهي اليها . ونظرية الروح والجسد المنفصلين التي زعمها (رسل) والذين من قبله ، بأي شكل كان ، تجعل من الصعب تصور كيفية تأثير احدهما على الآخر ، ذلك التأثير الوثيق الذي نراه في الانسان . فاذا مرض الانسان أو تألم تتأثر نفسيته ، واذا تأثرت نفسيته تتوعك صحته . ولعل اصعب ما يواجه العلم الحديث هو هذا التأثير المتبادل والارتباط الوثيق بين الروح والجسد ، أو كما يسميها بعض الناس العقل والجسد .

وقد أدرك الفيلسوف الاسلامي الكبير صدر المتألهين الشيرازي حل المشكلة . وهو في هذا المضمار يعتبر الفيلسوف الحق وحكيم الحكماء لعصور كثيرة . ونظريته تقول أن العقل والمادة نوعان مختلفان من الوجود ، ولكن ليس بنفس المفهوم الذي حمله (رسل) او الفلاسفة الأوربيون من قبله . فالمادة تتحرك في حركتها الجوهرية للارتقاء نحو الكمال في عالم الوجود (وهذه الحركة ليست حركة فيزيائية أو جسمية ، ولكنها حركة نوعية تحويلية ، أي محاولة الارتقاء في مرتبة الوجود) تتحرك نحو الكمال للاقتراب من الكمال اكثر فاكثر ، وتستمر بالارتقاء حتى تفقد ماديتها تحت ظروف معينة وتتحول الى وجود لا مادي . ولذا فليس هناك حد فاصل بين العقل والمادة كما يتصور بعض الناس ، ولكنها درجتان من الوجود تربط بينهما الحركة الجوهرية . والروح ، وان كانت لا مادية ، ولكنها تمتلك علاقة مادية لانها المرحلة العليا لكمال المادة في حركتها الجوهرية . فالمادة عندما تمتلك الكمال تتحول الى روح . وبهذا الإدراك لمفهوم الروح والمادة فان العلاقة بين المادة والعقل وتأثير احدهما في الآخر يمكن فهمه بدون أي صعوبة . ذلك لأن العقل ليس شيئاً منفصلاً عن المادة ولكنه صورة مادية بعد الارتقاء الى عالم الكمال من خلال الحركة الجوهرية . والفرق بين العقل والمادة يمكن تصوره كالفرق بين درجة الحرارة العالية ودرجة الحرارة الأقل منها بدرجة واحدة . وهذا لا يعني أن العقل هو من نتاج المادة ولكنه نتاج حركتها الجوهرية نحو الكمال . والحركة الجوهرية لا تنبع من المادة نفسها لأن الحركة هي خروج الشيء من القوة الى الفعل تدريجياً . والقوة لا تصنع الفعل ، وكذلك فان الممكن لا يصنع الواقع . ولذا فان الحركة الجوهرية لها سببها خارج نطاق المادة المتحركة . والعقل (او الروح) هو نتيجة هذه الحركة ، والحركة هي الجسر الذي يربط بين المادة والروح . لذا فان الحركة بالضرورة تنتج من علة خارجية ، والعقل (او الروح) هو محرك المادة والذي نسميه النفس . والعقل شيء حي (بموجب تعريف الحياة على أنها الإدراك والوعي وقابلية الحكم) . أما المادة فانها ميتة (بموجب تعريف الموت على انه

فقدان الادراك والوعي وقابلية الحكم) . لاحظ ان الحيوانات والنباتات حية ، ولكن بدرجة أقل من الادراك والوعي وقابلية الحكم من الانسان . لذا فانها تمتلك الأرواح أيضاً ، ولكن بدرجة أقل (لأن الوعي قليل أو منعدم) . والعلة الخارجية هي الله الخالق لكل شيء ؟ وضمن هذا التفسير لا يوجد تناقض ، سواء بين المادة والعقل ، أو مع الاكتشافات العلمية مهما تقدمت في المستقبل . وهذه النظرية تفسر كيفية اتحاد الحيمن والبويضة لتكوين الانسان . لانه اذا كانت الروح وحدة منفصلة عن المادة تصبح الحالة مستحيلة التفسير ، وقد يكون هذا السبب هو الذي دعا بعض الفلاسفة ، مثل القديس اكويناس ، الى القول بأن الروح لا تنتقل مع الحيمن ولكنها تُخلق كشيء جديد مع كل انسان . ذلك لان القول بأن الروح تنتقل مع الحيمن يجعل السؤال التالي يطرح نفسه : وماذا عن الروح في البويضة ؟ فاذا قيل انها تمتلك روحاً أيضاً ، فالسؤال يصبح : كيف تتحول الروح الى روح واحدة في شخص واحد اذن ؟ واذا قيل انها لا تمتلك روحاً ، فالسؤال يصبح : اذا كانت ميتة كيف تتحول وتصبح حية ؟ لذا فان اسلم السبل بالنسبة له هو القول بأن الروح تُخلق من جديد في كل انسان . وهذا الرأي جعل (رسل) يُعلّق بكل سخريّة بالقول ((^١)عندما يولد الانسان خارج نطاق الزواج ، يبدو ان ذلك يجعل الله شريكاً في الزنا) . ولو أن (رسل) كان قد رأى تفسير صدر المتألهين للروح وعلاقتها بالمادة لامسك عن هذا التعليق الذي لا يليق بالحكماء . ونحن لا نعلم ، أليس المفروض فيه كفيلسوف أن يطلع على فلسفة صدر المتألهين لعله يتعلم شيئاً من الحكمة الحقيقية التي يفتقدها الانسان الأبيض ؟ .

ويبدو أن نظرية صدر المتألهين هي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية اندماج الحيمن بالبويضة لكي يصبحان روحاً واحدة في النهاية . وعندما يبدأ المخلوق

(١) انظر المصدر ٢٨ ، ص ٤٤٩ .

الجديد بالنمو (بعد الاخصاب) فانه ينمو جسدياً ويصبح اكثر تعقيداً . وكذلك روحه تنمو ولكن ليس حجبياً ، فليس هناك حجم لان الروح شيء لا مادي ، ولكنها تنمو من ناحية انها تصبح اكثر تطوراً في مستوى الوجود (وهو ما يطلق عليه النضج) . والمادة في تركيبها العضوي الجديد والمعقد تصبح تحت الظروف الملائمة لكي تتطور الروح التي في داخلها في مراتب الارتقاء (خلال حركتها الجوهرية) اكثر فاكث نحو الكمال في عالم الوجود . وبطبيعة الحال فان الروح لا تصل الى الكمال المطلق لأن الكمال المطلق من صفات الخالق تعالى ، ولكنها تصل الى مراتب أرقى بكثير من مرتبة المادة . والروح في الانسان تصل الى مراتب أرقى من الروح في النباتات والحيوانات ، الى أن تصل المستوى الذي تمتلك فيه الوعي .

والمادة تمتلك الروح بالقوة ، ولكن هذه القوة لا تخرج الى الفعل من نفسها . لذا فان المادة لا تتطور الى كائن حي بنفسها مطلقاً . ولكن عند توفر الظروف الملائمة ، وهي الترتيب العضوي للمادة ووجود الحياة ، أو بكلمة أخرى وجود الروح والحركة الجوهرية التي تربط المادة بالروح ، فان القوة تخرج الى الفعل ، وتتكامل المادة حتى تفقد ماديتها وتتحول الى الروح . وهذا يفسر كيفية نمو العقل ونضوجه عند نمو الجسم . وتستمر الروح (أو العقل) بالتطور والنمو تحت هذه الظروف بالضبط كما يتطور الجسم وينمو . لذا فان وجود الحياة المسبق ضروري لتطور المادة نحو الكمال لكي تبلغ مراحل الروح . وهذه الحياة المسبقة هي التي تقرر الحدود التي يقف عندها تكامل المادة ، سواءً تصبح روحاً نباتية ، أو حيوانية أو انسانية . لذا فان أرواح النبات والحيوان والانسان تختلف بعضها عن بعض ، ولكن بدرجة ، أي بمستوى ، وليس بالطبيعة (بنفس الطريقة التي تكوّن المواد العضوية المختلفة الأحياء المختلفة) . وروح النبات هي الأدنى بين مستويات الأرواح . وروح الحيوان أكثر تكاملاً من روح النبات . وروح الانسان أكثر تكاملاً من روح الحيوان . وعلى اي حال فان

درجة التكامل لا بد وأن تحملها الروح المسبقة كما تحمل الجينات المعلومات التي تحدد الخصائص والصفات الجسمية للكائن الحي . وبطريقة مشابهة فإن الروح تمتلك مستويات مختلفة وكل روح تحمل مستواها الخاص بها .

يتضح اذن أن وجود الحياة المسبق ضروري لخلق الحياة الجديدة واستمراريتها وتحديد مستواها في مراتب الوجود . وهذا معناه أن وجود الروح شرط أساسي لانتاج الأرواح الجديدة من المادة (أي استخراج الفعل من القوة) . لذا نستنتج ان الحياة الاولى لا بد وأنها خلقت بواسطة عقل اكثر رقياً وتطوراً .

ان الروح والمادة عبارة عن وجهان لنفس الوجود . احدهما سلبى (وهو المادة) والآخر فعال (وهو الروح) . وكلاهما عبارة عن حلقتين في سلسلة الوجود المتصل . والوجود يجب أن يكون متصلاً ولا يُعقل ان يوجد عدم يفصل بين مستويات الوجود المختلفة (اذا كانت هناك عدة وجودات مختلفة) .

وهذه النظرية تعطي تفسيراً أفضل لكيفية اتحاد روحي الخيمن والبويضة حيث انها يتحدان طبيعياً وتلقائياً عندما تتحد المادتان المكونتان للخيمن والبويضة . وكذلك تعطي تفسيراً أفضل لكيفية نمو العقل ونضوجه حيث انه يتغذى على المادة التي تدخل الى الجسم على شكل غذاء ، ويستخرج منها الظواهر التي تشكل لبناته الأساسية . (لاحظ ان العقل الواعي هو أعلى مراحل الروح . ولذا فان الروح ، وان كانت موجودة في مراحل الجنين الأولى ، الا أن العقل الواعي يبدأ بالنشوء بعد تكوين الآلة التي من خلالها يفعل ، وهو الدماغ) . وبذلك فان الغموض الذي يكتنف كيفية اجتذاب هذه الظواهر الى العقل قد تم اجلاؤه ، بعكس نظرية (رسل) . فالعقل ينمو بموجب هذه النظرية بواسطة نظام متطور مسيطر عليه باحكام ، وفيه فان الذاكرة والعادات ليست الا فروعاً ولواحق (أو اجزاء مساعدة) . وهذا يفسر ظاهرتي الحياة

والعقل أفضل من تفسير (رسل) الذي يحوّل العقل الى شيء ليس اكثر من ظواهر عارية ليست ذات أهمية تذكر . والنظرية تجعل من السهل تصور كيفية الحفاظ على الحياة في الفيروسات والحبوب والبيوض لفترات زمنية طويلة . وكيفية تأثير الروح والجسم في بعضهما بعضاً طالما انها ليسا سوى درجتين مختلفتين لنفس الوجود مربوطتين باحكام ، وهذا الاحكام يمثل الوجود المتصل للموجودات . وهي النظرية الوحيدة التي تفسر كيفية نشوء الحياة في الخلايا الحية الجديدة حيث ان هذه الحياة الجديدة استنساخ وليس انتقال من خلايا حية أخرى لأن الخلية الأم لا تموت عند تكوين الخلية الجديدة داخل الجسم الحي .

وأخيراً ، فانه من خلال هذه النظرية التي تربط المادة بالعقل بطريقة رائعة ، نستطيع أن ندرك كيف يمكن للعقل أن يكامل نفسه تحت ظروف معينة ويصل الى المراحل التي يذوب فيها في ذات الخالق ويصبح متصلاً به بعد أن يرتقي الى مراحل الكمال (أو المراحل القريبة من الكمال) . وهذا يحدث للأنبياء والمعصومين فقط . وهذه أعلى مراحل الكمال في عالم الوجود ، ولا تحدث بصورة عشوائية ، أو لا واعية ، ولكنها تحدث بصورة واعية ، أي ان التكامل يحدث للروح بالفعل الواعي المتجرد عن الماديات الواطئة ونكران الذات الكلي ، لأن هذا التكامل يخص أعلى أنواع الوجود في الانسان وهو العقل الواعي .

ولكي يكامل ذاته الى حدود أبعد، فان وجودنا يرتبط بالمستويات الأخرى من الوجود (الممكن وجودها) بطريقة تشبه الجريان ، وفي النهاية فانها ترتبط بذات الله الذي هو وحيد من نوعه ، وهو النهاية . انه كل شيء ولذا لا يوجد شيء اسمه العدم لان ذلك يناقض الوجود المطلق لله تعالى . وولادة الكائنات الحية الجديدة هو تحويل ظواهر الوجود من نوع الى آخر، والتي تبدو لنا (بسبب محدوديتنا وجهلنا) انها أشياء جديدة لم تكن موجودة من قبل .

بقي هنا أن نذكر شيئاً يخص الآية الكريمة ﴿١﴾ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم الا قليلاً ، فيقول بعض المفسرين انه لا سبيل لمعرفة الروح بدليل الآية الكريمة ولذا فان البحث فيها مسألة عقيمة ولا يجوز الدخول فيها . ولكننا نرى ان الآية تصرح بأن الروح من أمر الله فقط وهذا شيء لا يختلف عليه أحد، فكل الأشياء من أمر الله بضمها الروح . ونحن لا نعلم كنه الروح بطبيعة الحال الا ان ذلك لا يمنع من محاولة اثبات وجودها بالطرق العقلية ومعرفة علاقتها بالمادة ، رداً على ما يزعمه الماديون الذين لا يقبلون بمنطق القرآن لانهم لا يعترفون بكونه كتاباً مقدساً، بشرط ان لا يتعارض منطقنا مع محكم التنزيل .

وبالنسبة للكلام عن تبدل المادة مع بقاء الجسم يقول صدر المتألهين في الجزء الثاني من كتاب الاسفار « فالفاعل الذي هو فوق المادة والغاية التي هي فوق المادة سببان بعيدان للموجودات المادية . ولو كان هذان السببان البعيدان كافيين لايجاد الموجودات المادية لكانت هذه الموجودات المادية باقية دوماً ولا تنالها يد الفناء والعدم ، ولكانت محتوية منذ البداية على الكمالات اللاتقة بها ، ولأسمى أولها عين آخرها ، ولكن هذين السببين البعيدين غير كافيين وإنما هناك سببان قريبان يؤثران ايضاً وهما المادة والصورة ، فمن جهة الصور يحكم التضاد وتقبل الكيفيات الأولية الفساد ، وكل مادة لها قابلية الصور المتضادة ، ولهذا فان أي موجود يملك نوعين متضادين من القابلية لونين متضادين من الاقتضاء ، احدهما من ناحية الصورة والثاني من جهة المادة . فالصورة تقتضي أن يكون الموجود باقياً ومحافظاً على وضعه ، أما المادة فتقتضي أن تتغير حالته وتوجد فيه صورة أخرى مضادة للصورة الأولى . ولما كان من المستحيل تحقق هذين الاستحقاقين والاقتضاءين المتضادين في شيء واحد فلهذا لا يمكن أن تكون المادة

(١) سورة الاسراء، الآية ٨٥ .

محتوية على صور متضادة في آن واحد ، والعطاء الالهي يوجب تكميل مادة هذا العالم الذي هو أسفل العوالم بواسطة الصور ، ولذا قدرت الحكمة الالهية أن تكون الحركة دورية والزمان غير منقطع والمادة متغيرة بحيث تتغير الصور على امتداد الزمان ويتبدل موقعها ، وتحكم الضرورة أن تكون لكل صورة مدة معينة تختص بها فتستوفي كل صورة حصتها من الوجود .

ولما كانت المادة مشتركة فكل صورة لها حق في الصور الأخرى بحيث يناسب أن تعاد الى صاحبها ، فالعدل يوجب أن تعطى مادة هذه الصور لتلك ومادة تلك لهذه ، وعلى هذا الترتيب تنتقل المادة خلال الصور يداً بيد ، ولهذا السبب يقتضي العدل ورعاية الاستحقاق أن يقوم نظام العالم على بقاء الأنواع لا الأفراد . ياله من فهم عميق ورائع لمعنى الوجود !! ويمكننا أن نفهم معنى كلام هذا الحكيم الذي بلغ ذرة الحكمة ومنتهاها على مستوى الفلاسفة بواسطة مثال الشجرة والحيوان والانسان . فالمادة تنتقل من الأرض الى الشجرة ثم الى الحيوان ثم الى الانسان ثم الى الأرض مرة اخرى . وهنا فان المادة تنتقل بين الصور ، والصور هي الشجرة والحيوان والانسان . فكل صورة توجد لفترة معينة من الزمن ثم تختفي ، ولا تستطيع نفس المادة أن توجد ضمن أكثر من صورة واحدة بنفس الوقت . لذا فان التناقض قد يحدث بين الصور ، ولكن ليس ضمن المادة . قارن هذا المفهوم الحكيم مع ما قاله (برتراند رسل) بصدد عدم رجوع الجسم بعد الموت لأن مكونات الجسم تتغير ثم انظر كيف ان (رسل) فاته ادراك الفرق بين المادة والصور .

عودة الى التطور :

اذا كان العقل والمادة يتكونان من نوعين من الظواهر المختلفة ، فان القول بأن هناك تطوراً ، وليس خليقة ، معناه القول أن الظواهر المكونة للعقل في خلق مستمر وان العلاقات التي تربط بينها تُسمى اكثر تطوراً باستمرار أيضاً ولأسباب

مجهولة . وهذا التطور معقد جداً ويدفع باتجاه الأحسن فالأحسن . وبكلمة اخرى ، هناك بناء مستمر لأنظمة اكثر تطوراً . واذا كانت هذه الأنظمة غير مخطط لها فان معنى ذلك ان ما كان موجوداً في البداية ليس سوى ظواهر من نوع ما ، وهذه الظواهر بدأت ترتبط ببعضها بعضاً بطريقة الصدفة المحضة لتكوين المادة ثم الحياة ثم العقل ، والعملية لا زالت مستمرة . وبذلك فان هذا التطور هو نتيجة للعشوائية العمياء . ولكننا قد نتساءل : من أين أتت الظواهر الأساسية الأولى التي كونت الوجود في المراحل اللاحقة ؟ ومن أين أتى مفهوم العشوائية ؟ ونحن نستطيع أن نحدد ثلاثة أشياء كان يجب أن توجد في البداية . الأول هي الظواهر ، والثاني العشوائية والثالث القابلية والاستعداد الذاتيين لهذه الظواهر لكي ترتبط لتكوين الأنظمة . ولو كان أحد هذه الأشياء مفقوداً لما كان باستطاعة المادة الأساسية للوجود أن تصنع العالم ، الا اذا فرضنا عدم وجود أي شيء في عالم الوجود على الاطلاق ، والذي كنا قد برهنا عكسه حيث يجب أن يكون هناك شيء ما في الوجود ولا يمكن أن نكون نحن عدماً ، لأننا اذا كنا عدماً سوف لن يكون بإمكاننا معرفة الوجود والتكلم عنه ، ولا حتى العدم . ولما كنا ندرك الوجود فلا بد وأننا موجودون لان ادراك الوجود من خصائص الموجود .

وعلى أي حال يتضح أن الأشياء الثلاثة الأساسية ، ولسبب مجهول ، أنتجت نظاماً متطوراً الى الدرجة التي صُنِعَ فيها العالم الذي نعرفه . ولكن كيف ولماذا ظهر مفهوم النظام الى عالم الوجود ؟ اننا تعلمنا أن نفهم العشوائية على أنها عكس النظام وهذا ما يعنيه التعبير نفسه . ولذا لا بد وأن يكون هناك نوع آخر من الوجود ما فوق الظواهر الذاتية واستعدادها للارتباط ، وهذا النوع من الوجود اكثر تطوراً من هذه الأنواع الثلاثة من الموجودات بالضرورة، وهو الذي شكلها بأسلوب معين ، مستخرجاً الفعل من القوة ، والواقع من الممكن ، لتكوين الكون .

والسبب في ذلك هو أن القوة وحدها لا تصنع الفعل ، والممكن وحده لا يصنع الواقع .

الفصل الثالث عشر

العدل الإلهي

الخير والشر

إن فكرة الخير والشر فكرة قديمة طالما تمسك بها الماديون في معركتهم ضد معتقدات الكنيسة الأوربية التي لم تستطع أن تدافع عن نفسها ضد إتهامتهم بسبب نظرتها الخاطئة لهذه القضية . ويتركز الحوار حول ماهية الخير والشر وهل أيها مفهومان مطلقان أم نسبيان . والماديون الذين لا يؤمنون بوجود خالق للكون ينسبون الشر الى الخالق الذي تدعيه الكنيسة ، بالقول أنه إذا كان الشر موجوداً في المخلوقات ، وإذا كان الله قد خلق هذه المخلوقات ، فمن أين أتاهما الشر ؟ لا بد وأنه من الله . وهذا ما عبر عنه (برتراند رسل) بالقول^(١) (أن الموجود الذي يمتلك القدرة المطلقة والذي خلق عالماً يحتوي على الشر ليس بسبب الخطايا فلا بد وأن يكون هو نفسه شريراً جزئياً) . وهذا رأي في منتهى السذاجة التي لا تليق بمفكر أو فيلسوف لهذه المسألة الهامة . ثم يستطرد

(١) انظر المصدر ٢٥ ، ص ١٩٤ .

(رسل) فيقول^(١) (قد يمكن فهم أن الشر الذي سببه الذنب على أنه نتيجة لإرادتنا الحرة ، ولكن مشكلة وجود الشر في عالم ما قبل الإنسان تبقى بدون فهم) ، وهذه إشارة واضحة على اعتبار الشر مطلقاً ، ولكنه لم يحرك نفسه للتحقق من كون مطلقيه الشر صحيحة أم لا . وبدلاً من ذلك فإنه يردد الاعتقاد القائل أن فكرة الله فكرة إختلقها البشر ، ثم يتعامل مع هذه الفكرة بإستخفاف لا يليق بالحكماء متناسياً السجل التاريخي للأنبياء وحججهم وتفانيهم في سبيل هذه الفكرة . وأنه لمن العجيب أن يعتبر هؤلاء الناس الأنبياء وفكرة الله زائفة لمجرد أنه قد تبين أن بعض معتقدات الكنيسة خاطئة ، والتي يرددها (رسل) ويؤكد عليها في أكثر من مناسبة . وبطبيعة الحال فإنه لم يرغب (ولعله لم يع) أن يعتبر سبب الخطأ هو تدخل الإنسان في صياغة معتقدات الكنيسة ، أولئك الرجال الذين لعبوا (وباعترافه كما رأينا في الفصل الأول) دوراً مهماً في قولبة الدين المسيحي على مر التاريخ ، بدلاً من التمسك بتعاليم الله والمسيح نفسه . ولعله كان مؤمناً بالمادية ولذا فإن غاية ما كان يبحث عنه هو البرهنة على أن الكنيسة خطأ ، وقد يكون إعتبر المسيحية على أنها دين المجتمع الأوربي المتقدم في عصرنا هذا ، لذا فإنه من غير الممكن أو المعقول أن تكون الأديان الأخرى أفضل منها لأنها معتقد الإنسان المتحضر . وبعد البرهنة على أن المعتقدات المسيحية تتخللها التناقضات فلماذا يضيع وقته بالنظر الى الأديان الأخرى الأقل تحضراً . وكل أفكاره كانت مصوّبة بإتجاه واحد وهو أن الله ليس موجوداً . وبسبب إعتقاده هذا فإنه يربط الأديان الأفضل بالمجتمعات المتحضرة ، وهذا قد يكون صحيحاً إذا كان الدين هو الحاكم والمنتج للمجتمع الأفضل ؛ إلا أن الحالة ليست هكذا بالنسبة لأوروبا التي تقدمت فيها الإكتشافات العلمية بعد أن تخلت عن الدين وقيوده . كما أن التاريخ يشهد لنا بأن الدين كفكرة إصلاحية ظهرت دائماً في المجتمعات المحرومة والمضطهدة ،

(١) نفس المصدر، ص ١٩٤ .

وليس في المجتمعات المتحضرة . وهذا صحيح بصورة خاصة مع المسيحية التي أتت الى أوروبا من الشرق الأوسط الذي كان مستعمراً من قبل الرومان في ذلك الوقت .

وبعد أن توصل (رسل) الى إستنتاجه للشر الذي رأيناه ، يستمر ، عازياً كل شيء الى إختلاق الإنسان ، بالقول^(١) (ولذا فطالما بقينا متجردين عن التحيز ، فقد نكون مقتنعين بالقول إن كلا أفعال الخير والشر عبارة عن وهم فالخير والشر ، وحتى الخير العلوي الذي يجده التصوف في كل مكان ، هي انعكاسات لعواطفنا على الأشياء الأخرى ، وليست جزءاً من مواد الأشياء كما هي بنفسها . ولذا فإنه عند التأمل المتجرد والمتحرر من كل الرواسب مع النفس ، سوف لن يكون الحكم على الأشياء لا بالخير ولا بالشر) . أي أنه ليس هنالك خير بحد ذاته أو شر بحد ذاته ، ولكنها نسيان . ولكن إذا كانت هذه هي الحالة فمن أين أتت أفكار الصحة العادلة والجمال ؟ أن ميل الإنسان نحو الصحة والعادلة والجمال ميل فطري ، وكذلك رفض الشر والقبح . فالصحة والعادلة والجمال تؤثر بصورة متشابهة على طيب راحتنا النفسية والفكرية ، وكذلك فإن الخطأ والشر والقبح تؤثر بصورة متشابهة ضد راحتنا النفسية والفكرية ونحن لا نتكلم هنا عن ما هو الصحيح أو العادل أو الجميل ولا عن ما هو الخطأ أو القبيح ، ولكننا نتكلم عن مفاهيم هذه الأفكار . ونحن نعتقد أن الجميع متفقون على وجود هذه المفاهيم . وقد نختلف عن الأشياء التي يمكن إعتبارها عادلة والأشياء التي نعتبرها غير عادلة ولكننا نتفق على وجود العدالة كمفهوم بحد ذاته . وأهمية هذه المفاهيم بالنسبة لبحثنا يأتي من كون إرتباط الصحة والخير بالعادلة والجمال وإرتباط الشر بالخطأ والظلم والقبح . وما يدعيه (رسل) يوصله الى القول بأنه ليس بإمكاننا ، فيما لو حررنا أنفسنا من

(١) نفس المصدر السابق ص ٢٧ .

رواسب الماضي الفكرية ، إن نعطي أي حكم من أي نوع لأننا سوف لن نعرف ماهية العدالة والظلم بسبب عدم وجودها بحد ذاتها على حد قوله . والسؤال الذي يطرح نفسه هنا هو إذا كانت هذه هي الحالة فعلاً فمن أين إكتسبنا قابلية التحكيم وكيف ظهرت هذه المفاهيم الى عالم الوجود ؟ فاما أن تكون هذه القابلية قد تطورت فينا من الداخل ، وهذا معناه أنه يوجد صح وخطأ مما دعانا الى التمييز بينهما . أو أن القابلية قد منحت إلينا من الخارج والتي تعني أن الله موجود . وفي كلا الحالتين فإن النتيجة هي أن كلا الخير والشر موجودان . وفي الواقع فإن الأعراف لم تقم إلا على أساس هذين المفهومين .

إذن ، وخلافاً لإعتقاد (رسل) ، فإن الخير والشر موجودان ، وما نحتاجه هو توضيح الغبار الذي يشوه الأفكار الصحيحة حولهما . وأصل هذا التشويش هو إعتبار كلاهما مطلقين ، والذي يؤدي الى التناقض الذي جعل (رسل) يرفضهما ، وجعله يذهب بعيداً الى القول بأنه ليس هناك شيء نبيل وشيء فاسد ، فهو يقول^(١) (أنه عند إدراك أن الشرور الأساسية سببها إمبراطورية المادة العمياء ، وأنها التأثير الكلي الضروري للقوى التي لا تملك الوعي والتي هي لهذا السبب ليست نبيلة وليست فاسدة فان مفهوم الظلم يصبح سخيفاً . . . أنه من الواضح أن بعض الأشياء حسنة وبعضها رديء ونحن لا نمتلك الوساطة التي تمكننا من معرفة فيما إذا كان الحسن هو السائد أو الرديء هو السائد) . وهذا الرأي مستمد من نظرتة المادية الى الوجود . والواقع أن الكون واسع جداً بالنسبة لنا ، ونحن والحالة هذه لا يمكننا أن نعد الأشياء الحسنة والأشياء الرديئة لكي نعرف أيهما السائد ، ولذا فإن (رسل) ينتهي الى إستنتاجه . ونحن هنا نتكلم عن مفاهيم الخير والشر وليس فيما إذا كانت الأشياء النبيلة سائدة أو الأشياء الفاسدة سائدة . وعلى كل حال نحن نعتقد أننا نستطيع

(١) انظر المصدر ٣٠ - ص ٦٨ .

إدراك أي من المفهومين يأتي أولاً ، وأيهما مطلق ، وعليه فإننا نستطيع أن ندرك أيهما السائدة .

دعنا أولاً أن نعرف ما هو الشر .

الشر هو أي شيء مناقض للخير . والخير يمكن تعريفه بأنه العدالة ، وهي إعطاء كل ذي حق حقه سواءً كان خصلة أو صورة أو ملكية أو شيئاً آخر ، وسواءً كان الإنسان ، أو الحيوان أو أي مخلوق آخر ، حياً أو ميتاً ، حتى الأشياء الصغيرة والتي نعتبرها تافهة ، أي إن العدالة هي وضع الشيء في موضعه . وخلافاً لإستنتاج (رسل) بأن الله شريكاً جزئياً (تعالى عن ذلك) فإننا نقول إذا كان الله خلق كل شيء فإنه ليس بحاجة لشيء لأنه موجود سواءً كان الخلق موجوداً أم لا . ولذا فإنه ليس بحاجة الى الشر .

ولإتمام الفائدة من هذا البحث سوف نتطرق الى موضوع العدل الإلهي من ناحيتين فقط وهو ما يهمننا هنا ، علماً أن هناك نواحي أخرى بينها الفلاسفة الإسلاميون بالتفصيل (ولكننا لسنا هنا بصدد ذكرها) . الناحية الأولى هي أنه إذا كان الشر هو سلب الحق من صاحبه ، وإذا كان الله خلق كل شيء فهو المالك لكل شيء ، لذا فان مفهوم الظلم بين الله وخلق غير وارد لأنه إذا سلب الله المخلوقات أشياءها سيكون الله قد أخذ ما يملك وما يعود إليه وما هو حقه . الثاني إن الظلم سيقع إذا لم تأخذ الأشياء من الوجود ما تستحق . والذي يحدث فقط إذا أوقف الله فيض الوجود بحيث أنه لا يصل الأشياء ما تستحق ، والذي يجعلها ناقصة أو معدومة الوجود ، والذي لا يتفق مع مطلقة الله . والأشياء تختلف من وجهة نظر إكتساب نوعية الوجود الذي تستحقه ، ومن ناحية أن كل شيء يمتلك حقاً معيناً وقابلية معينة لإكتساب ما يستحقه من الوجود . ولما كان الله مطلق الوجود فإنه لا يوقف فيض الوجود الى الأشياء . والأشياء لا تمتلك حقاً أكثر لإكتساب الوجود مما جُبلت عليه بموجب خلقها ، ولذا فإنها لا تمتلك حقاً تجاه الخالق أكثر مما تُعطى . ولما كان هو الخالق فإن

الأشياء لا تمتلك حقاً تجاهه يجعل إعطاءها الحق وكأنه دَينٌ على الخالق أو واجب عليه . وعدالة الله هي الوجود نفسه ، والذي معناه إن هذه العدالة غير محرمة على المخلوقات . وتتجلى العدالة بالنسب الصحيحة للأشياء ، وليس هناك فقدان للتجانس .

من ذلك يتضح أن الخير مطلق وسائد .

وبعد هذه المقدمة عن الخير نستطيع الآن أن نستمر في حوارنا لمعرفة أصل الشر . وقبل أن ندخل في الموضوع سوف نحاول أن نقربه من الذهن أكثر ، وسوف نأخذ بنظر الاعتبار ما يطلق عليه شر القدرة ، وهو أكثر أنواع الشر الذي يشار إليه عند الكلام عن الشر . وهو شر الإنسان نحو أخيه الإنسان . فإذا اشتريت سكيناً من حداد وطعنت بها شخصاً فقتلته ، أين الشر في ذلك ؟ هل هو في الحداد ؟ أم في السكين ؟ أم فيك ؟ طبعاً أنه ليس في الحداد لأن الحداد ليس مسؤولاً عن الجريمة بسبب صنعه للسكين التي صنعها لكي يستفيد منها الناس في عمليات التقطيع لما فيه الخير لسعادتهم وتسهيل أعمالهم (على فرض ذلك) . والشر ليس في السكين التي لا يمكن رمي اللوم عليها حيث أنها ليست واعية ولا تمتلك من زمام أمرها شيئاً . لذا فإن الشر فيك أنت المسؤول عن الجريمة لأنك تمتلك الإرادة وأسأت استخدامها ، والشر أساسه إساءة استخدام الإرادة التي يمتلكها الإنسان ، وإساءة استخدام الإمتيازات والقابليات والخصائص الأخرى التي منحها الخالق له . ومثّل السكين هنا كمثّل هذه القابليات ، ومثّل الحداد كمثّل الخالق ، تعالى الله عن تمثيله بالأشياء . فلا الخالق مسؤول عن الشر وإلا القابليات التي يعطيها للإنسان مسؤولة عن الشر ، ولكن الإنسان هو المسؤول عن الشر . ولا يمكننا أن ننسب الشر الموجود في الإنسان الى الله (كما يدعي رسل) لأن الشريكمن في محاولة الإنسان الحصول على ما ليس من حقه باستخدام الوسائل المتوفرة لديه في غير ما يجب وغير ما هو مرسوم لها أن تستخدم من أجله . ويتضح من ذلك أنه إذا كان الإنسان سبب

الشر فإن الشر نسبي وليس مطلقاً وهذا بدوره يجعله غير موجوداً في الخالق ، لأن ما يوجد في الخالق يجب أن يكون مطلقاً ، بخلاق الخير المطلق . إن الله خلق الوسائل والقابليات في الإنسان من أجل أن يستعملها الإنسان لسعادته ومن أجل الخير ، والإنسان هو الذي يسيء إستعمال هذه الإمتيازات من أجل غاياته الأنانية خلافاً للغاية التي مُنِحَ من أجلها هذه الإمتيازات .

إن الحب الذي تمتلكه المرأة تجاه طفلها هو شعور ضروري أودعه الله فيها لكي يدفعها الى المحافظة على الطفل ورعايته من أجل إنشاء الأسر المترابطة والمجتمعات البشرية الصالحة . فإذا مات الطفل وكان ذلك مؤلماً للأم فإن ذلك لا يعني أن الله أودع الحب في المرأة تجاه طفلها لإنزال الألم بها عند موته والذي قد يعتبر شراً ، ولكن ألمها نتيجة عرضية لا بد منها ، فهي أن لم تشعر بذلك الشعور القوي نحو الطفل فإنها سوف لن تتمكن من تحمل أعباء رعايته والمحافظة عليه ، بل ربما تقتله في كثير من الأحيان لكي تريح نفسها من تربيته المتعبة فالحب هذا خير أودعه الله في المرأة ، وليس شراً بالرغم مما يمكن أن ينتج عنه من ألم في حالة موت الطفل . وقد اقتضت عدالة الله تعالى ان يتلاشى هذا الألم بعد فترة زمنية معينة .

وإذا كان الخير هو السائد ، وإن الله أعطى كل شيء حقه ، وبذلك فقد ملأ الوجود خيراً ، فإنه يمكن القول (كما بين ذلك الفلاسفة الإسلاميون) إن الشر عموماً هو فقدان الخير . أي أنه إذا كان الخير هو ما منحه الله للأشياء فإن إنعدام وجود الخير يمكن النظر إليه على أنه الشر لأن الشر هو نقيض الخير . وعلى سبيل المثال فإن الطرش هو ليس سوى فقدان القابلية على السمع وهو ليس شيئاً بحد ذاته ولكنه فقدان لشيء . والظلم هو فقدان الرحمة في قلب الظالم . والجهل فقدان المعرفة التي هي كمال ، وعندما لا يمتلك الإنسان المعرفة فهو لا يمتلك صفة أو خاصية تسمى (فقدان المعرفة) والتي لا يملكها العالم ، فالعالم كان جاهلاً قبل أن يتعلم وهو لا يفقد شيئاً عند إكتساب العلم وإنما

يكتسب شيئاً . ولو كان الجهل شيئاً بحد ذاته لكان التعلم مصحوباً بفقدان شيء ما . ومن الأمثلة الأخرى الفقر الذي هو عدم إمتلاك الثروة والموت الذي هو فقدان الحياة وليس إكتساب شيء آخر . ويتبع ذلك أن الأشياء التي تسبب فقدان شيء ما ، مثل الهزات الأرضية والبراكين والحيوانات الوحشية وغيرها تسمى شيئاً ، ولو لم تسبب فقدان شيء ما كالحياة لما إعتبرت شيئاً . فالأشجار لا تعتبر شيئاً ، والجبال لا تعتبر شيئاً ، وهذا النوع من الشر هو النسبي . وبالنسبة لهذا الشر فإن (رسل) يقول^(١) (إنني لا أعتقد أن الدكتور بارنز سيقبل الحل الذي يقدمه وليم جيلسبي أن أجسام الوحوش الضارية كانت مسكونة من قبل الأشرار الذين سبقت خطيئتهم الأولى خلق الوحوش ، ومع ذلك فإنه من الصعب رؤية إمكانية إقتراح أي جواب آخر منطقي ومقبول) . وتعلقنا على هذا الرأي يتضح مما أسلفنا من القول بأن الحيوانات الضارية ليست شيئاً بحد ذاتها . فالكائنات الحية لا بد وأن يعيش بعضها على بعض على شكل دورة كاملة ، وبذلك فإن الحيوانات تمثل شيئاً نسبياً لنا . ومن خلال هذه النظرة فإن الحروف شر بالنسبة للأدغال .

إن سبب شر الخصائص ، مثل الجهل ، وضعف الإرادة ، يمكن تقفي سبب أثره الى الانسان في النهاية ، وهو ليس خاصية ذاتية في المخلوق بسبب الخالق . وحتى العيوب التي يمتلكها بعض الناس بالولادة فإن سببها الإنسان . مثلاً أن تكون نسب المواد الغذائية التي تأكلها الأم ليست صحيحة ، أو بسبب شرب الكحول أو التدخين أو المخدرات ، أو إستعمال بعض الأدوية في فترة الحمل أو العيش تحت ظروف صحية رديئة تؤثر على نفسية الأم ، كالظروف العائلية الكثيرة أو العلاقات العائلية الفاسدة أو المقلقة ، أو ظلم الانسان لآخيه الانسان ، أو سبب ضعف من الماضي ينتقل الى الأجيال عن طريق الوراثة

(١) انظر المصدر ٢٥ ص ١٩٤ .

والذي سببه يرجع في الاصل الى الإنسان أيضاً .

وبعد هذا السرد نود أن نناقش الرأي التالي (لرسل) الذي يقول^(١) (من المؤلف أن السعادة لا يتم إحرازها كما يجب من قبل الذين يبحثون عنها بصورة مباشرة ، ويبدو أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير . واعتقد ، على أي حال ، أن أولئك الذين ينسون الخير والشر ويبحثون عن معرفة الأشياء هم أكثر احتمالاً لإحراز الخير من أولئك الذين يرون العالم من خلال الوسط المشوه لرغباتهم الذاتية) .

يبدو أن (رسل) هنا يصطنع تشويشاً ويثير غباراً كثيفاً حول الموضوع بواسطة ربط مواضيع ليس لبعضها علاقة ببعض ، ثم يستعمل مفهوماً لا يختلف عليه أحد لكي يبرز في النهاية بنتيجة كان قد صمم عليها سلفاً . فالمواضيع التي لا علاقة لبعضها ببعض هي أولئك الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير . وأنه لمن الواضح أن الذين يبحثون عن السعادة ليسوا سعداء وإلا لما بحثوا عنها ، ولكن عندما يقول (رسل) أن نفس الشيء صحيح بالنسبة للخير فهل أنه يقصد أن أولئك الذين يبحثون عن الخير هم أشرار وإلا لما بحثوا عن الخير ؟ فإذا كان هذا هو ما يرمي إليه ، فهل أن ذلك يعني أن الناس التقاة الذين يدعون الى الخير هم أشرار ؟ في هذه الحالة ، وبرسم التشابه مع السعادة بنفس الأسلوب الذي إستعمله (رسل) ، فهل يعني ان الناس الأشرار هم الأفضل قدرة على امتلاك الخير واحرازه مثلما ان اولئك الذين لا يبحثون عن السعادة هم سعداء ؟ وهل يعني ان الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك لأنهم لا يمتلكون الخير ، أي انهم اشرار؟ الا يناقض ذلك تعريف مفهوم الشر نفسه حيث أن الشر لا يعرف الخير؟ وهل أن الناس الذين يبحثون عن الخير يفعلون ذلك من أجل أنفسهم فقط ولأجل رغباتهم الشخصية ؟ وماذا عن المصلحين والأنبياء الذين تحملوا المعاناة والآلام لأنهم

(١) نفس المصدر السابق - ص ٢٩ .

كانوا يبحثون عن الخير للبشرية ؟

و (رسل) بعد ذلك يخلط بين شيئين لكي يصل الى مقصده . وهذان الشيطان يتمثلان بأولئك الذين يبحثون عن الحقيقة ، ولا شيء سوى الحقيقة ، وهو شيء نبيل ، وأولئك الذين يمتلكون الرغبات الشخصية التي تشوه الطريق نحو الخير ، وهو شيء قبيح طبعاً . وأنه لواضح أن طريق الخير بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات خاطئة أو رغبات ذاتية يكون مشوهاً . ولكن هذه الطريق بالنسبة لإنسان يتمسك بمعتقدات صحيحة ويمتلك رؤيا واضحة لا يكون مشوهاً حتى ولو لم ينس الخير والشر . وعلى كل حال ، ما هي الحقيقة وكيف نصل إليها بدون معرفة الخير والشر والفرق بينهما ؟ وكيف نستطيع أن نميز بين الخير والشر عندما نصل إليهما إذا كنا غافلين عنهما أو نسيناهما كما يرغب (رسل) ؟ و (رسل) يتوسع في هذا الموضوع بالقول^(١) (يبدو لي أن الناس الذي تمسكوا به «أي الخير» كانوا هم الأشرار في معظم الأحيان . وأنت لتجد الحقيقة الملفتة للنظر أنه كلما كان الدين أكثر قوة في أي فترة زمنية كلما كان الإعتقاد المتطرس أكثر عمقاً وكانت القساوة أعظم وكانت الحالة أكثر سوءاً . وفيما يسمى عصور الإيمان ، عندما كان الرجال يؤمنون حقاً بالدين المسيحي بكل كماله ، كان هناك الظلم والتعذيب ، وكان هناك الملايين من النساء المسكينات اللاتي أحرقن بإعتبارهن ساحرات ، وكان هناك كل أنواع القساوة والوحشية التي مورست على كل أنواع الناس بإسم الدين .

وإذا بحثت في العالم فإنك ستجد أن كل تقدم صغير في الأحاسيس الإنسانية وكل تحسن في قانون الجريمة ، وكل خطوة نحو إزالة الحروب ، وكل خطوة نحو التعامل الأفضل مع الأجناس الملونة ، وكل تخفيف للعبودية ، وكل تقدم أخلاقي حدث في العالم ، قد عارضته الكنيسة العالمية المنظمة بصورة

(١) انظر المصدر ٢٧ - ص ٢٤ .

ثابتة . وأنا أقول وبكل تعمد أن الدين المسيحي ، كما هو منظم بكنائسه ، كان ولا زال العدو الرئيسي لتقدم الأخلاق في العالم) . وهذه الملاحظات ولا شك ، لها ما يبررها ، ولكن (رسل) يبادل بين الدين والمسيحية . والمسيحية أحد الأديان ولكن ليس كل الأديان مسيحية الأصل أو التفرع . ولذا يجب أن يكون واضحاً للقارئ أن (رسل) يتكلم عن المسيحية فقط ، ولا يجب أن توسع أراؤه لتشمل الأديان الأخرى التي لم ترتكب شناعة الكنيسة أو ممارساتها اللانسانية في أوروبا . ولو كان النبي عيسى (ع) حياً لما قبل أن ترتكب تلك الجرائم بإسمه ، أو بغير إسمه . وبدلاً من ذلك كان سيأمر بمعاينة مقترفيها . فليس الله تعالى ولا عيسى ، ولا أي إنسان يمتلك ذرة من الرحمة في قلبه يقبل بحرق النساء أمام الناس بدعوى السحر والشعوذة . وحتى أولئك اللاتي يستحقن الموت بسبب جريمة يقترفنها فإنه بالأمكان سلب حياتهن بطرق أقل بشاعة وإهانة من الحرق في الأماكن العامة ، والتي بالتأكيد لا بد وأن إنعكست على نفسية الأطفال الذين شاهدوها ، خالقة أجيالاً جديدة متوحشة بدلاً من المجتمع الذي يسوده الحب والأمن الذي أراده الله وعيسى .

وعلى كل حال فإن وصف أولئك الذين يبحثون عن الحقيقة بأنهم أولئك الذين يجب أن ينسوا الخير والشر ، وأولئك الذين لا يفعلون ذلك بأنهم يمتلك رغبات مشوشة ليس صحيحاً على الإطلاق . بل على العكس ، إن الذين كانوا يدعون الى الخير كانوا يطلبون من الناس أن يتعرفوا على الحق ويتبعوه ، وعلى الباطل فيجتنبوه . وكانوا يتمسكون بمعتقداتهم ولم ينسوا الخير والشر ، وهذه المعتقدات لم تكن رغبات رخيصة . ومن هؤلاء الناس نحن تمكنا من معرفة الأخلاق الحميدة التي نعرفها اليوم (أو ما بقي منها) والتي جاءتنا خلال الأجيال . وأن الربط بين الناس الذين يبحثون عن السعادة وأولئك الذين يبحثون عن الخير محاولة غش وخداع ، وكذلك فإن الإلماح بأن أولئك الذين يتمسكون بمفهومَي الخير والشر يمتلكون رغبات مشوهة وأنهم لا يبحثون عن

الحقيقة ، محاولة دس وغش هي الأخرى ، ولا تليق بالحكماء من أصحاب العقول . فهذا هو (رسل) ، وهذه محاولاته ، ومع ذلك فإن البعض من الناس يعتبرونه الفيلسوف الحكيم .

هل أن الله على كل شيء قدير ؟

يجادل بعض الماديين حول معنى قدرة الله تعالى ، فيقولون إذا كان الله على كل شيء قدير فهل يستطيع أن يتخلى عن خلقه ؟ أي هل أنه يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث أنه لا يمكن إرجاع سلطانه على الخلق ؟

وفي ذلك احتمالان :

الأول ، إذا كان الله لا يستطيع أن يفصل خلقه عنه فإنه ليس على كل شيء قدير .

الثاني ، إذا كان الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه بحيث لا يمكن إرجاع سلطانه عليه فيصبح ليس على كل شيء قدير .

إذن في كلتا الحالتين إن الله ليس قادراً على كل شيء وبذلك فإنه ليس إله .

ولحل هذا التناقض نود أن نذكر بأن هذه الحجة تشابه في طبيعتها تلك الأسئلة غير المنطقية التي واجهناها سابقاً . وتكمن أسباب التشوش حول هذه القضايا في عدم إدراك المعنى الحقيقي لتعريف الله وصفاته . ويتضح أن فكرة الله يساء فهمها الصحيح حتى من قبل أولئك الذين يحملون فكرة الإيمان بها . فالكل يتصور أن الله شيء واحد ولكن باتجاه واحد من التفكير فقط . ولذا فإن الحوار في اتجاه مختلف يصل الى التناقض لا محال .

إن الله واحد من ناحية نوع الوجود وليس من ناحية العدد ، وهذا معناه أن طابع وجوده فريد النوع . فالأرقام والأعداد جزء مما خلق ، ولذا فإنه لا

يمكن تطبيقها عليه ، وهو لا يخضع لها ولا لحكمها لأنه لا يمكن أن يخضع لما خلق . وكما رأينا سابقاً فإن وجود الله لا يحتاج الى الزمان أو المكان ، ولا يخضع لهما . ولذا فإنه من غير الممكن إدراك ماهية وجوده (لأن إدراكاتنا محدودة بالزمان والمكان ولا يمكنها أن تتصور شيئاً خارجهما) والشيء الوحيد الذي يمكن قوله هو أن الله فريد في ماهيته . فالقصد بوحداية الله إذن هو فريدة النوعية ، ولا يمكننا أن نقول أكثر من ذلك .

والله يمتلك صفات عديدة ، قال تعالى^(١) ﴿الله الأسماء الحسنى﴾ ، وهذه الصفات لا تكونه ، أي أنه لا يتألف منها ، ولكنها تنبع منه وتشع منه ومن عطائه بكميات لا محدودة ولا متناهية ، وتأثيرات هذه الصفات لا يمكن فصلها عنه . فالله عادل ورحيم وجميل وجبار ومقتدر وعالم الخ ، وكل هذه الصفات مطلقة ومجتمعة بنفس الوحدة الواحدة التي هي واحد نوعاً (وليس عدداً فالأعداد ليس لها معنى هناك) . وهذه الصفات لا يمكن فصل بعضها عن بعض ، أي أنه لا يمكن النظر الى الله على أنه مقتدر مثلاً ونسى الصفات الأخرى ، أو عادلاً ونسى الصفات الأخرى ، بل يجب أن نتصور الله وفيه جميع هذه الصفات مجتمعة بنفس الوقت ، وهي عطائه التي لا تنضب لأنها مطلقة ، والمطلق لا ينقص لأنه إذا نقص فهو ليس مطلقاً . وتشع عطائه منه كما يشع الضوء من الشمس ، ولكن ليس على سبيل تشبيه المكان بل من ناحية الوجود كوجود ، فالزمان والمكان هما تصوراتنا عن الوجود ونظرة الله الى الوجود قد تكون مختلفة عن نظرتنا . والله يستطيع أن يتصور الوجود كما نتصوره نحن أيضاً بطبيعة الحال لانه هو الذي خلقه وصوره .

والسؤال القائل هل أن الله يستطيع أن يفصل خلقه عنه يتضمن إنفصالاً من ناحية المكان ، والذي لا يمكن قبوله لأن الله غير خاضع للمكان ، أو إنفصالاً

(١) سورة الأعراف، الآية ١٨٠ .

من ناحية نوع الوجود والذي لا يمكن قبوله أيضاً لأنه يعني أن نوعية وجودنا ونوعية وجود الله مختلفتان ، وهذا بدوره يتضمن الحاجة الى وجود واسطة تربط الله بالخلق ، أي أن الله بحاجة الى شيء يربطه بالخلق وهو مستحيل لأنه ينافي مطلقية الله . كما أنه يُلمع الى وجود انفصال فراغي بين الله وخلقته وهو مرفوض أيضاً كما تقدم .

يتضح من ذلك أن السؤال يتضمن إفتراضات ومفاهيم غير مقبولة منطقياً ، وغير مقبولة بموجب تعريف الله ، بالرغم من عدم وعي الماديين لهذه الإفتراضات الضمنية في أسئلتهم .

إن الخلق يكتسب وجوده من الخالق بطريقة تشبه حصول الضوء على وجوده من الكهرباء ، فإذا قطع التيار يختفي الضوء وينعدم . وكذلك إذا انفصل الخلق عن الله بأي مفهوم كان فان الخلق يختفي الى العدم . من هنا فإن السؤال الذي نحن بصده مرفوض ولا يمثل سوى جملة لغوية لا تحمل أي معنى منطقي من وجهة نظر الواقع ، ومنه نستنتج أنه لا يوجد أي تناقض ، والتناقض الذي رأيناه سابقاً وهمي ولا وجود له .

وكذلك فإن السؤال السابق يتناقض مع تعريف الله وصفاته التي ذكرناها . فهو يأخذ صفة واحدة ويتناسى الصفات الأخرى وعليه فإن هذا ليس الله الخالق لكل شيء لأن الخالق كامل من كل الوجود وفي جميع الإتجاهات بنفس الوقت كوحدة واحدة ، ويجب النظر إليه هكذا . وبطبيعة الحال ، إذا أخذنا بعض صفات الله بنظر الإعتبار ونسينا الصفات الأخرى نصل الى التناقض ، وذلك لأنه في هذه الحالة فإن كلامنا سيخص شيئاً آخر غير الله . أما إذا أخذنا جميع صفات الله بنظر الإعتبار في نفس الوقت فسوف لن يكون هناك تناقض . وفي الواقع أن جميع الذين يتطرقون الى الله وصفاته ويصلون الى التناقض هم في الواقع يرتكبون هذا الخطأ ، وهو أخذ بعض الصفات ونسيان

الصفات الأخرى، وبذلك فإنهم في الواقع يتكلمون عن جزء لا عن الكل، ولما كان الله لا يمكن تجزأته بأي أسلوب أو مفهوم كان ، فإن الكلام عن الجزء ليس كلام عن الله . وبذلك فإن هؤلاء الفلاسفة ، خاصة الأوربيين وعلى رأسهم (رسل) ، هم في الواقع يتكلمون عن شيء غير الله (لأنهم يتكلمون عن الجزء) وينسبونه الى الله متصورين أنهم على صواب . وأنه لمن العجيب كيف أن هؤلاء المفكرين لا يعون هذه المسألة البسيطة وهم المتبحرون في الفلسفة . وصدق الله حينما قال^(١) ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ .

وعلى سبيل المجادلة ، دعنا نفترض أن الله يفصل خلقه عنه . ماذا سيحدث ؟ هناك شيء واحد نستطيع أن نقوله بكل تأكيد ، بسبب ملاحظتنا عن الإنسان وتاريخ الإنسانية ، ذلك إن الظلم سيجد طريقه الى المجتمع الإنساني ، وبأقل تقدير سيسود في إحدى زوايا الخلق ، خاصة الإنسان . والظلم هو عكس العدالة . ولذا فإن الحالة ستعني أن الله سمح للظلم أن يحدث بطريقه مطلقة لأنه سوف لن يكون ما يعيقه إذا فصل الله الخلق عنه . وهذا يعني أن الله يقبل بالظلم وهو منافي لصفة العدالة المطلقة له . وبطبيعة الحال فإن ذلك غير ممكن لأنه سيعني أنه بالرغم من أن الله هو العدل المطلق فإنه يقبل الظلم ، وهو تناقض مرفوض ففصل الله للخلق عنه معناه وقوع المستحيل وهو مستحيل .

ويتضح أن المقصود (بأن الله على كل شيء قدير) ليس مفهوماً بصورة صحيحة . فإندعام القدرة هو نتيجة لتصوراتنا نحن البشر لأن الله في وجوده لا يحتاج أن يفعل شيئاً لأنه ليس بحاجة الى أي شيء . والحاجة هي تصورنا عن الأشياء ، وليس تصوره هو . لذا فإن إنعدام القدرة لا يوجد في وجوده لأنه ليس هناك إنعدام في وجوده ، فإندعام وجود أي شيء يناقض وجود الله المطلق

(١) سورة الفرقان، آية ٤٤ .

وهو مستحيل . وإنعدام قدرة الله تجاه أي شيء يناقض قدرته المطلقة وهو مرفوض . لذا نستنتج أنه ليس هناك ما يمكن أن يطلق عليه إنعدام القدرة في وجود الله . والتعبير عن اللاقدرة أو العجز هو تصورنا الذي لا يمكن تطبيقه على الله . فالمطلقة معناها القدرة فقط ، واللاقدرة لا توجد . وبذلك فإن إفتراض عدم قدرته على الأشياء التي لا يفعلها معناه إفتراض وجود التناقض ، وهو مرفوض لأنه ينافي المنطق . ذلك لأنه إذا كانت القدرة المطلقة موجودة فإن إنعدام القدرة يشكل تناقضاً وهو مستحيل .

إن سوء الفهم الصحيح لهذه المفاهيم ، وعدم القدرة على أخذ مفهوم الله بنظر الإعتبار بفكر واضح قاد القديس (أكويناس) Aquinas الى القول أن الله (لا يستطيع) أن يشأ الأشياء المستحيلة التي تمتلك الإستحالة في ذاتها ، بدلاً من القول أنه لا يفعلها لأن ذلك ليس ما كان قد قرره هو . فإستحالة الأشياء في ذاتها ليست خارجة عن إرادة الله وإنما هو الذي خلقها مستحيلة بهذا الشكل وإن شاء بدوها . إن مفهوم الإستحالة ومفهوم التناقض وغيرهما عبارة عن مفاهيم خلقها الله تعالى لأنه خلق كل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهوم الإستحالة ومفهوم التناقض وغيرهما عبارة عن مفاهيم خلقها الله تعالى لأنه خلق كل شيء . والأشياء التي تمتلك مفهوم الإستحالة كجزء من كينونتها التي خلقها الله عليها تصبح مستحيلة . وكذلك الحال مع الأشياء المتناقضة . وأنه لووضح أن هذه المفاهيم كانت قد وضعت في هذه الأشياء من قبل الله تعالى ، ولم تأت من نفسها ، والقول أنها أتت من ذاتها معناه أنها خارج قدرة الله وإن الله لا يقدر عليها . والقول بذلك معناه إن هناك بعض الأشياء مطلقة (لأنها خارجة عن إرادة الله) ، والذي معناه وجود المطلق خارج الله وهو مستحيل لأنه يعني أن الله مطلقاً حيث أن المطلقة يجب أن تتضمن كل شيء وليس هناك شيء خارجها . كذلك إذا كانت المفاهيم ذاتية في أصلها ، كما يتضمن قول أكويناس ، فكيف دخلت الى الأشياء التي هي من خلق الله (والتي يفهم منها أنها خلقت من قبل

الله كلياً ؟

وفي خضم سوء الفهم لهذه المفاهيم يأتي القديس (اكويناس) لي طرح فكرته تلك عن الله ، والتي دعت (برتراند رسل) الى القول^(١) (أنه على سبيل المثال أن الله لا يستطيع أن يجعل تناقضاً ما صحيحاً . ان مثال القديس بأن هناك شيئاً ما خارج القدرة الإلهية ليس مثلاً سعيداً جداً ، فهو يقول إن الله لا يستطيع أن يجعل إنساناً ما جحشاً) . إن التشويش وعدم وضوح ارؤيا المحيطين بهذه الفكرة سببها النظرة غير واضحة لصفات الله تعالى . فالتناقض لا يوجد في ذات الله (لأن التناقض جزء مما خلق) . والكلام في هذه المفاهيم هو من نوع افتراض إفتراضات في عالمنا ثم نسبها الى الله ، وهو بطبيعة الحال حجة غير واردة . ولكي يكون الحوار مجدياً فإنه تجب البرهنة على أن هذه المفاهيم توجد في ذات الله قبل الكلام عنها .

هل لله علة ؟

وهناك موضوع آخر مشابه لما مر علينا من ناحية سوء الفهم ، وهو إخضاع الله الى علة سببت وجوده . و (رسل) يقول إذا كان كل شيء يحتاج الى علة فإن الله يحتاج الى علة . والصحيح هو أن نقول أن كل شيء في عالمنا ، أي كل شيء مخلوق ، يحتاج الى علة ، لأن العلة هي إحدى قوانين كوننا الذي خلقه الله ، وطبعاً فإنه لا ينطبق على الله ، لأنه وكما قلنا ، لا يخضع لما خلق . فالله خلق الأشياء وربطها بقوانين وجعل بعضها علة لبعض ، وهو علة الكون لأنه موجوده . ولما كنا نهمل ماهية وجوده فإنه من غير الممكن ، ولا المعقول ، أن نتكلم عن علته لأن وجوده قد لا يحتاج الى علة . كذلك فإن قانون العلية يحكم الأشياء الناقصة التي بحاجة الى شيء آخر لكي توجد ، والكامل بالتعريف

(١) المصدر ٢٨ - ص ٤٤٩ .

لا يحتاج الى شيء آخر ، فهو لا يحتاج الى علة .

إن أخطر تشويش للأفكار هو تطبيق القوانين التي خلقها الله على الله . وهذا بطبيعة الحال ، وكما قلنا ، مرفوض لأنه كيف يمكن أن يخضع لما خلق ؟ وهو معنى القول الحكيم^(١) (لا يجري عليه السكون ولا الحركة ، وكيف يجري عليه ما هو أجراه ، ويعود فيه ما هو أبداه ، ويحدث فيه ما هو أحدثه) . وصعوبة إدراك هذه الحقيقة قادت (برتراند رسل) أن يجادل بواسطة تطبيق القوانين على الله فانتهى القول بأن الله وسيط وأن إدخاله في النقاش غير ضروري ، على حد تعبيره . وعلى سبيل المثال ، فإنه يقول^(٢) (إذا كان هناك سبب للقوانين التي وضعها الله ، فإنه نفسه خاضع للقوانين) . وهذا يمثل قصوراً شديداً في الرؤيا لأن القانون ضروري بالنسبة لنا وليس للشيء الذي كماله مطلق . فإذا كان الله بحاجة الى القانون فهو ليس كاملاً لأنه سيكون بحاجة لشيء خارج عنه لتنظيمه . ولكن إذا كان الله كاملاً ، وهو كذلك بموجب التعريف ، فإنه ليس بحاجة للقانون أو لأي شيء آخر . ونحن نرى أن ما يجهله الناس هو معنى الكمال والمطلقة وماذا يتضمنان . والمخلوقات بحاجة الى هداية ، وإذن هي بحاجة الى القانون . أما المطلق فإنه يعرف الأشياء بدون الحاجة الى ما يسيره .

لماذا خلق الله الخلق ؟

الحديث الذي سردناه يضعنا أمام السؤال الذي يطرحه كثير من الناس ولا يجدون عليه جواباً . وهو لماذا خلق الله الخلق ؟ وهناك من يقول أن المسألة ليست في متسعنا ، وليست عندنا القابلية لمعرفة الأسباب لأنها تقع ما وراء إدراكاتنا ، وهذا صحيح بطبيعة الحال . إلا أن القول أن هناك أسباب للخلق

(١) علي بن أبي طالب - نهج البلاغة .

(٢) انظر المصدر ٢٧ ، ص ١٧ .

معناه إخضاع الله لهذه الأسباب وهو مرفوض لأن الله لا يخضع لشيء . ومنهم من يقول أن الله خلقنا لكي نعبد ، كما يصرح هو بذلك في آية الكرمة ^(١) ﴿وما خلقت الجن والأنس إلا ليعبدون﴾ . وهذه الآية تتكلم عن الأنس والجن فقط وليس عن مجمل الخلق (وسوف نناقش مسألة العبودية في الفصل الرابع عشر) . وهناك من يقول أن الله خلق الخلق ليبرهن على وجوده ويظهر وجوده . وهذا معناه أنه بحاجة لإظهار وجوده ، وهو ينافي غنى الله عن الخلق ، لأن حاجة الله لإظهار وجوده معناها رغبة (أو ضرورة) ونقص ، والله تعالى ليس مضطراً لشيء ، وليس ناقصاً .

ولكن إذا كان الله ليس بحاجة لخلق الأشياء فلماذا خلقها ؟ والجواب على هذا السؤال لا يمكن إعطاؤه إلا من قبل الخالق نفسه . وهو لم يعطنا الجواب الواضح ، فهو القائل ، عز من قال ، ^(٢) ﴿وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾ . ولكن ذلك لا يمنعنا من محاولة البحث حول الموضوع بشرط عدم الوقوع في تناقض مع صفات الله التي سردناها ، وعدم إخضاع الله لشيء ، كالقانون أو السببية مثلاً ، ونحن نعتقد أنه إذا كان الله مطلقاً من كل الوجوه ، وهو كذلك طبعاً ، فإن الخلق ليس إلا نتيجة من نتائج هذه المطلقية ، ويتبع ذلك احتمال وجود عددٍ لا متناهٍ من أنواع ومستويات الوجود ، وعالمنا ليس إلا واحداً من هذه الوجودات . وكل هذه الوجودات مجتمعة تمثل جزءاً من المطلقية التي تغمر كل شيء وتحتضن كل شيء . وبالمقارنة مع الوجود المطلق فإن العالم الذي ندركه تافه بتفاهة الذرة عند مقارنتها مع الوجود . وهذا هو أحد الأسباب التي تدعونا إلى القول أننا تافهون

(١) سورة الذاريات الآية ١٨ .

(٢) سورة البقرة آية ٣٠ .

بالنسبة لله . وإذا كان كوننا ليس سوى أحد الوجودات فإنه من غير الممكن أن يكون مطلقاً ، أو أن يكون هو الوجود بأكمله .

وبإمكان تصور أن الوجود ينبع من رحمة الله وعدالته ، ومن الله كما هو . فإن عدم خلق الخلق مع القدرة على ذلك معناه أن الله رحيم وعادل ولكنه يجلب هذه الرحمة وهذا العدل من أن ينالهما من يستطيع من الكائنات التي يمكن أن يخلقها الله . وهذا يناقض مطلقة الله . فالرحمة المطلقة لا بد وأن تغمر أقصى ما يمكن وهو الوجود المطلق . وكذلك الحال مع عدل الله . فالله يخلق الأشياء رحمة بها . وإذا كانت الأشياء بإمكانها أن توجد نتيجة لقدرة المطلقة ، وهي كذلك ليس بسبب الأشياء ولكن بسبب مطلقة هذه القدرة ، فإن عدله المطلق لا يمنعها من أن تخلق . بل على العكس من ذلك فإن هذا العدل يعبد الطريق أمام الخلق لكي يُخلق لأنه (أي العدل) مطلق . لذا فليس هناك ضرورة أو إحتياج أو سبب لخلق الخلق كما يجادل البعض ، وإذا كان هناك سبب فهو مطلقة الله ، وليس سبباً يؤثر على الله . والأشياء تنبع من عطائه ، وكل شيء بحاجة إليه ولكنه ليس بحاجة إليها . وهذه الحاجة هي ما نطلق عليه العبودية .

فبالنسبة الى الله تعالى إذن ليست هناك حاجة ولا ضرورة ولا إرادة أو رغبة في إظهار نفسه . والخلق ينبع من مطلقيته لأن المطلق يحوي كل الأشياء ، والخلق جزء من هذه الأشياء . قال تعالى^(١) ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ .

(١) سورة الدخان آية ٣٨ و٣٩ .

الفصل الرابع عشر

لِمَنْ العبودية ؟

تدعو الأديان السماوية على إختلافها الى عبادة الله بطرقها المختلفة . وفي هذا الفصل سوف نحاول إستكشاف المعاني الخفية لهذا الموضوع الذي أدى سوء فهمه الى ترك الناس لعبادة الله . ففي أوروبا تحولت العبادة في أفضل أشكالها الى الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد ، والحال ليست أفضل من ذلك بالنسبة لمعتنقي الأديان الأخرى . وكما بينا سابقاً أن الله تعالى ليس بحاجة الى الأشياء الأخرى لأنها كلها من خلقه ، لذا فإنه ليس بحاجة الى عبادة المخلوقات له ، وهو القائل^(١) ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِي حَمِيدٌ﴾ . من ذلك يتضح أنه إذا كان هناك من هو بحاجة الى العبادة فإنه نحن . ولكن الماديين يجادلون بالقول أن الذين بحاجة الى العبادة هم ضعفاء العزيمة الذين تساعدهم العبادة على لم شملهم ، وأولئك الذين يخافون الموت ويخافون المجهول . أما أقوياء العزيمة والإرادة ، والذين يمتلكون الشجاعة والثقافة

(١) سورة ابراهيم، الآية ٨ .

الكافية والوعي ، فإنهم ليسوا بحاجة الى العبادة لأنهم يستطيعون إدارة حياتهم بدون الحاجة الى العبادة ، أو الله ، لمساعدتهم ، وهؤلاء هم الذين يؤمنون أن الله ليس موجوداً ولكنه مفهوم خلقه الإنسان لنفسه . فهذا هو (برتراند رسل) يقول^(١) إن الدين ، كما اعتقد ، بُني أولاً وأساساً على الخوف . وجزئياً فإنه الخوف من المجهول ، وجزئياً فإنه الرغبة في الإحساس بأنك تمتلك شيئاً أشبه بالأخ الكبير الذي يقف بجانبك في جميع مشاكلك ونزاعاتك) . وأنا لا أعلم كيف ينطبق كلام (رسل) هذا على أولئك المسيحيين الأوائل في روما الذين كانوا من الشجاعة بمكان بحيث أنهم كانوا يُقذفون الى الأسود لتأكلهم فيتلقون الموت الرهيب بهذه الطريقة الوحشية بكل شجاعة ولم يتخلوا عن دينهم . فلو كان هؤلاء قد إعتنقوا الدين عن خوف لكانوا تخلوا عنه بسبب الخوف أيضاً عند مواجهتهم للأسود الضارية . كذلك فإن تاريخ المسلمين زاخر بالتضحيات وحب الشهادة التي تفوق كل التصورات والتي لسنا هنا بصدد ذكرها . وأنا أتساءل كيف أن رجلاً بهذه الضحالة من التفكير مثل (رسل) يسمى فيلسوفاً ويقراً له الناس تفاهات كهذه لا تستند على المنطق ولا على الأحداث التاريخية . أم أنه الأوربي الأبيض صاحب التكنولوجيا التي بهرت العقول ، فانسأقت هذه العقول وراء كل ما هو أوربي حتى وإن كان تافهاً كهذه الفلسفة الجوفاء !! أم ماذا ؟ وقد يكون (رسل) تناسى التاريخ هنا متعمداً لأنه لا يسند إدعاءه . إن الماديين مثل (رسل) فاتهم فهم الموضوع كلياً ، وقد يكونوا تصوروا أن العبادة هي الذهاب الى الكنيسة يوم الأحد لسماع موسيقى الأرغون وأغاني تكريم الرب . وقد لا يكون ذلك ذنبهم وحدهم فهؤلاء قد جُلبوا على ذلك وترعرعوا فيه ، وبطبيعة الحال فإن الكنيسة تتحمل القسط الآخر من الذنب لأنها عكست للناس العبادة ، وطيلة تاريخها ، على أنها ليست أكثر من الذهاب الى الكنيسة .

(١) انظر المصدر ٢٧ ، ص ٢٥ .

ولكي نحصل على مفهوم أفضل للعبادة يجب علينا الغوص في مفهوم أعمق لا تشكل العبادة سوى جزءاً صغيراً منه ، ذلك المفهوم هو العبودية . فالعبيد يعبدون ، ولكن ليس بالمفهوم الذي تعرّض فيه الأفارقة السود الى أقسى الظروف وأبشع أنواع الإضطهاد على يد الإنسان الأبيض عندما نقلوا الى الأرض التي كانت حديثة الإكتشاف يومئذ (امريكا) بأبشع الطرق على متن السفن فمات أكثرهم ، ومن نجا ربما كان الأفضل له أن يموت على أن يعيش تلك الحياة التعيسة على يد الإنسان تالابيض والتي لم يشهد لها التاريخ مثلاً . ولكننا هنا نتكلم عن العبودية لله . فكل شيء عبد لله . والسؤال الذي نريد أن نجد له جواباً هو : ما معنى ذلك ؟ ولكي تتوضح الفكرة سوف نتطرق الى الأشياء المادية أولاً ، ثم الى الإنسان .

عبودية المادة

تتكون المادة من جسيمات صغيرة ذات وزن خفيف وطاقة صغيرة ، وأحياناً شحنة كهربائية . أو على الأقل أنها تبدو كذلك . والخواص التي تمتلكها هذه الجسيمات هي جزء لا يتجزأ من كينونتها ، والجسيم يتحول من نوع الى آخر إذا فقد أحد خواصه . والمادة عبارة عن تجمع هذه الجسيمات تحت ظروف خاصة . وكما رأينا فإن المادة في حدودها النهائية عبارة عن ظواهر مرتبطة ببعضها البعض بواسطة علاقات وثيقة . وهذه العلاقات ليست عشوائية ، لذا فإن هناك تخطيطاً وتنظيماً وهذا معناه وجود السيطرة والقوانين .

وعند الهبوط الى مستوى الوجود المحسوس الذي يتكون من الجسيمات وخواصها نجد أن هذه الخواص تعطي كل جسيم سلوكه المعين ، وهذا السلوك ثابت لا يتغير . فالجسيم الذي يمتلك شحنة كهربائية من نوع معين ينفر من الجسيمات التي تمتلك شحنات مشابهة لشحنته ولكنه ينجذب لتلك التي تمتلك شحنات معاكسة لشحنته ، وهكذا مع بقية الخصائص . وهذا يبين أن الجسيمات

مرتبطة مع بعضها البعض بواسطة علاقات صارمة وتحكمها قوانين محددة ، والجسيم يمثل لهذه القوانين بكل صرامة وبصورة عمياء ، وليس هناك خيار أمامه بالنسبة للطريق الذي يسلكه . بل أن كل شيء مقرر سلفاً ، وهذه الحالة في الواقع هي التي جعلت الإكتشافات والإختراعات العلمية ممكنة . وعلى سبيل المثال ف أنه من المستحيل لجسيمين يمتلكان شحنتين كهربائيتين متشابهتين أن تنجذباً لبعضهما البعض ، وكذلك فإنه من المستحيل أن ينفر جسيमान يمتلكان شحنتين مختلفتين عن بعضهما البعض .

المادة إذن تطيع قوانين الفيزياء والكيمياء طاعة عمياء ، بدون أي تردد أو تراجع ، وهذا ما جعلها على حالتها . فالحديد مثلاً يتكون من أجزاء صغيرة هي ذرة الحديد التي هي على شكلها ولها صفاتها لكونها ذرة حديد تتكون من عدد معين من البروتونات والإلكترونات والنيوترونات . ولو تغير هذا العدد تغيراً بسيطاً لتحولت الى مادة أخرى غير الحديد . كذلك فإن الالكترتون يحمل شحنة معينة أطلق عليها الشحنة السالبة بينما البروتون يحمل شحنة مساوية لشحنة الإلكترتون ولكنها معاكسة لها ، وأطلق عليها الشحنة الموجبة . ولو أخذنا مثلاً بسيطاً من أمثلة الكيمياء فوضعنا الأوكسجين والهيدروجين معاً وفي ظروف خاصة فإنها سوف يتحدان لتكوين الماء ، وهذا الإتحاد (تحت تلك الظروف) حتمي وسوف يحدث ولا شيء آخر يحدث لهذين العنصرين . ونلاحظ هنا أن الأوكسجين لا خيار له سوى الإتحاد بالهيدروجين ، والهيدروجين لا خيار له سوى الإتحاد بالأوكسجين . وهذه الطاعة الحتمية لهذا القانون الكيميائي (وهو طاعة لأوامر معينة ومحددة) طاعة عمياء مادام الأوكسجين أو كسجيناً والهيدروجين هيدروجيناً ، وسوف لن يحدث الإتحاد (أي إطاعة تلك الأوامر) فقط في حالة تحول أحد العنصرين ، أو كلاهما ، الى مواد أخرى . وفي تلك الحالة فإنها سوف يمتثلان لقوانين وأوامر أخرى بنفس الصرامة .

إن طاعة هذه المواد للقوانين تمثل العبودية الحققة لأنه ليس هناك أي

عصيان هذه القوانين أو أي إنحراف عنها ، وهذه العبودية مبنية كجزء من كينونتها وبنائها . لذا نرى أنه إذا حدث خلل فإن الأشياء تعيد ترتيب حالتها ووضعها ، سواءً شكلاً أو تكويناً ، الى حالة جديدة بموجب القوانين والأوامر لتسير كما يجب عليها أن تسير ، ولا يمكنها أن تحيد عن هذا السلوك .

المادة إذن ، وكجزء من تكوينها وجودها تخضع لقوانين معينة خضوعاً تاماً بدون أي مناقشة أو تردد ، ولا يمكن لأحد أن يتصور أي معنى للمادة كما نراها لو كانت لا تخضع لهذه القوانين . وقد يقول البعض أن المادة عبارة عن طاقة متجمعة ، أو بصورة أساسية أكثر ، ظواهر تربطها علاقات وثيقة . وهذا لا يغير من الموضوع شيئاً لأن الطاقة هي الأخرى تتبع قوانين صارمة ، كالمجال الكهربائي والمجال المغناطيسي مثلاً ، ويأتباعها تلك القوانين تجمعت على شكلها الذي نراه ونسميه المادة ، وهو تجمع ليس عشوائياً بطبيعة الحال . كما أن الظواهر ترتبط بواسطة العلاقات الوثيقة التي هي ليست سوى قوانين أخرى أيضاً .

ما هي القوانين ؟ أنها أوامر . ولكن أوامر من ؟ لا بد وأنها أوامر الذي أوجد المادة والطاقة والظواهر ، وهو الله تعالى . فالمادة إذن تطيع أوامر الله تعالى طاعة عمياء ، وهذا مطلق الطاعة ، ومطلق الطاعة هو العبودية ، وهي عبودية المادة لله تعالى . قال تعالى^(١) ﴿أفغير الله يغيثون وله أسلم من في السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون﴾ . وقال تعالى^(٢) ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ . فعبودية المادة لله تعالى إذن جزء من وجودها ، وفي الحقيقة أنها سبب وجودها ، لأنها لا يمكنها البقاء كما هي بدون الإمثال للقوانين التي تحكمها ، بل أن مخالفة القوانين يؤدي بها الى الفناء ، أو التحول من نوع الى آخر ، أو من حالة الى أخرى . وهذا الفناء أو التحول يمكن

(١) سورة آل عمران - الآية ٨٣ .

(٢) سورة مريم الآية ٩٣ .

إعتبره عقاباً، بينما إطاعة القوانين والبقاء هو الثواب .

عبودية الإنسان والحيوان والنبات

يتكون الإنسان من مادة تمثل جسمه ومن العقل الذي يمثل التفكير والسلوك . وكما رأينا فإن جزءه الجسمي تحكمه قوانين الفيزياء والكيمياء . فإذا رميته من مرتفع سقط ، وإذا وضعت حامض الكبريتيك على يده فإن الحامض يتفاعل مع العناصر المكونة لجسمه ، شأنه في ذلك شأن أي مادة أخرى لأن الجسم يتكون من هذه المواد . وهنا تتجلى عبودية هذا الجزء من الإنسان (وهو الجسم) المطلقة لقوانين الطبيعة وأوامرها ، وهي أوامر الله تعالى لأنه موجود هذا الكون . وبنفس الطريقة فإن أجسام الحيوانات والنباتات تمثل لأوامر الخالق تعالى .

أما تفكير الإنسان ، فإنه بالإمكان إعتبره يتكون من نوعين مترابطين من التفكير ومتداخلين مع بعضهما البعض ، وهما الغرائز والوعي (أو الإرادة) . أي أنه ، ولغرض الحوار الذي نحن بصدد ، سوف ننظر الى العقل البشري على أنه ينقسم الى نوعين من العمليات التفكيرية . أحدهما سوف نطلق عليه إسم العقل (أو التفكير) الغريزي وهو الذي يختص بالإستجابة والسلوك الغريزي . والثاني سوف نطلق عليه إسم العقل (أو التفكير) الإرادي وهو الذي يمثل الحدود النفسية للعقل بصورة واضحة ، ولكنه بنفس الوقت لا يتناقض مع قوانين علم السيكولوجيها ، أو مع حقائق الأشياء . وبالرغم من أن التفكير يحدث داخل الدماغ بفعل التغيرات الحاصلة في الدماغ من تحول المادة الى طاقة ، وهو بحد ذاته عملية منسقة تحكمها قوانين معينة ، فإن السلوك الناتج هو سلوك لا مادي . والتفكير بكل أنواعه ، الغريزي والإرادي ، هو التنبه لأسباب أو ظواهر معينة والقيام بفعل يلائم متطلبات الظروف (وهذا يتضمن أيضاً الأفعال اللاارادية كالتنفس وضربات القلب وغيرها والتي يتم التنبه إليها تلقائياً بصورة اللاشعور) . فإذا أحس الإنسان بالعطش فإنه يشرب ولا

يأكل ، وإذا أحس بالجوع فإنه يأكل ولا يشرب . والسلوك مختلف في الحالتين تبعاً لنوع الأمر .

التفكير الغريزي ينصاع لقوانين وأوامر معينة بصورة صارمة . وهو في الحقيقة سلسلة من الأوامر المحددة والتي ليس للإنسان سيطرة عليها . فهو لا يستطيع تغييرها أو العمل ضدها . فالإحساس بالعطش مسألة لا يستطيع الإنسان تفاديها أو منع نفسه من الإحساس بها . فهو يحس بالعطش كلما إحتاج جسمه للماء . وهذا الإحساس بالعطش أمر صارم يطبعه الإنسان بواسطة الإحساس به ، ثم يطبعه مرة أخرى بواسطة سلوك محدد ، وهو الشرب ، وليس شيئاً آخر . وقد يجادل البعض بالقول أنه يستطيع أن يختار عدم الشرب . ولكن في هذه الحالة فإنه يموت وينتهي وجوده كإنسان . ولكي يحافظ على كينونته ووجوده كإنسان فإنه يجب أن يطبع الأمر ويشرب . وهذه الطاعة للأوامر الغريزية تشبه طاعة الجسم للأوامر الفيزيائية والكيميائية تماماً . ويتضح أن التفكير الغريزي يتبع قوانين وأوامر محددة ، وهي قوانين الخالق . والغرائز عند الإنسان (وكذلك عند الحيوان والنبات) عبارة عن قوانين وأوامر الغرض منها المحافظة على الحياة الموجودة في الكائن الحي . والإنسان لا يملك حيلة إلا الإنصياع إليها ، وإذا لم يطعها فإنه سيدفع الثمن على شكل ألم أو الموت ، وهو العقاب . ومرة أخرى تتجلى العبودية في الإنسان لهذه القوانين ، وبالتالي لخالقها . وهذا معناه أن الحياة لا يمكن المحافظة عليها ، أو إنتاجها ، (أي أنها لا يمكن أن توجد) بدون العبودية للخالق . فالعبودية للخالق إذن جزء لا يتجزأ من جوهر الوجود بالنسبة للحياة ، ولا يمكنها الوجود إلا بالارتباط بالله تعالى .

نأتي الآن الى التفكير الإرادي ، حيث الإختلاف فيه مع التفكير الغريزي هو أنه فيه الخيار . فالإنسان مخير أن يفعل كذا أو لا يفعله ، أو أن يسلك هكذا أو هكذا وهذا هو التفكير المميّز لنوعية السلوك ، وتنصّب عليه جميع القوانين التي تحكم المجتمعات البشرية ، والتي تأخذ أحياناً شكل الأعراف الإجتماعية

والتي هي قوانين أيضاً ، وإذا شذ الإنسان عنها فإنه يعاقب من قبل الآخرين .
والعقوبة قد تكون الإعدام أو السجن أو الغرامة أو النبذ من قبل الآخرين ، أو
ما شابه . ونوع العقوبة يعتمد على نوع الشذوذ ومقداره . فالقتل قد يستغرق بعض
الشواني الا ان عقوبته الاعدام أو السجن المؤبد والسرقة عقابها أقل
صرامة . هنا فإن العقوبة تعتمد على درجة الشذوذ ، وهي مشابهة من هذه
الناحية لقوانين الفيزياء والكيمياء والقوانين الغريزية . فكلما جاع الإنسان
لفترة أطول كان الألم أشد ، أي أن العقوبة أقسى . وكلما كان الارتفاع الذي
يسقط منه أعلى كان الضرر الذي يحدث أكبر ، أي أن العقوبة أشد . فالعقاب
يعتمد على نوعية المخالفة ، أي نوعية الشذوذ وهذا قانون عام ينطبق على الجسم
المادي وعلى التفكير بنوعيه الغريزي والإرادي على حد سواء ، والفرق يكمن
في أن قوانين الجسم والسلوك الغريزي تنفذ حكمها مباشرة ، بينما لا تنفذ
القوانين التي تحكم الفكر الإرادي حكمها مباشرة ، لأنه في هذه الحالة سوف لن
يكون هناك معنى للإختيار والإرادة . فإرجاء تنفيذ الحكم على الشذوذ عن
القانون ضروري لوجود الإرادة لأنه بدون ذلك سيكون من المستحيل خروج
هذه الميزة (الإرادة) الى حيز التنفيذ . لذا كانت هناك القوانين التي سماها
الإنسان العدالة . فالمحكمة تنظر في شذوذ السلوك الإرادي بالضبط كالقوانين
الفيزيائية أو الغريزية . وبطبيعة الحال فإنه لو لم تكن هناك قوانين تحكم السلوك
الإرادي للإنسان لتحوّل المجتمع الإنساني الى شريعة الغاب وفقد إنسانيته وتحوّل
الى مجتمع حيواني . لذا ، وللحفاظ على إنسانية المجتمع يجب إتباع قوانين معينة
ومحددة لضبط هذا السلوك . وإطاعة هذه القوانين هي العبودية لموجدتها . وفي
الواقع إننا أحرار للقيام بالافعال التي تسمح بها القوانين فقط والتي لا تؤثر على
حقوق الآخرين وسعادتهم .

عبودية الفكر الارادي

ان هذا الوجود الذي نراه ونحسّ به متوازن وتسري فيه العدالة ، ولولا

ذلك لاختلّ توازنه . وتنبع عدالته من اتباعه القوانين المحددة له ومن عبوديته المطلقة لهذه القوانين . ومعنى ذلك انه تحكمه قوانين معينة ومرتبطة لتنظيم العلاقات المختلفة بين اجزائه ، ولا تسمح لهذه الأجزاء الاخلال به لان أي انحراف لأي شيء هو اعتداء على حقوق الاشياء الاخرى . وهذا ما تقره وترويه لنا علوم الفيزياء والكيمياء والرياضيات . والعدالة تسري في جميع أرجاء الكون ، وبضمنها الانسان والاحياء الاخرى لان الكائنات الحية جزء من الكون . وقد رأينا أن قوانينها تبسط نفوذها على جسم الانسان وتفكيره الفريزي بنفس الصرامة . كما رأينا أن تفكير الانسان الارادي محكوم بالقوانين أيضاً .

ولما كان الخالق لهذا الكون أعطى الأشياء كلها قوانينها الضرورية التي تحكمها وتمكّنها من الوجود ، فانه لا يمكن ادراك أي سبب معقول لترك الانسان تائهاً في هذا الوجود دون اعطائه قوانين لتنظيم حياته ومجمعه سوية بباقي الأشياء . لأن القول بذلك معناه ان الله ظالم وهذا يناقض الفكرة القائلة ان الله هو مطلق العدالة . لذا فان الخالق لا بد وان وضع قوانين للانسان لادامة حياته وسعادة مجتمعه ، خاصة وقد عرفنا ان الخالق قد وضع القوانين التي تحكم جسم الانسان وغرائزه . فالعدالة لا بد أن تسري ، والقوانين التي وضعها الخالق سلفاً لاعطاء كل شيء وجوده وكيونته يجب أن تُطاع ، والتي تؤدي الى الحفاظ على وجود الأشياء كلها . وانها قابلية الخالق ، والخالق فقط ، ان يسبب انعدامها ، وكما قلنا عند مناقشة العدل الالهي ان الله أعطى كل شيء المقدار الذي يستحقه من الوجود . لذا فانه من غير الممكن أن يُترك الانسان بدون قوانين وتعليمات يتبعها لتنظيم حياته ، والا فان الظلم سيسود المجتمع ولن يكون هناك من سبيل لاستعادة العدالة إليه . واذا حدث ذلك ، فانه سيكون الشيء الوحيد الذي انفرد عن العدالة الكونية في هذا الوجود . وفي الواقع ليس هنالك ما يدعو الى أن تكون الحالة هكذا .

ان اتباع الانسان للقوانين هي العبودية لله الذي خلق الانسان كما خلق

الأشياء كلها ، وكلها تخضع بالعبودية لله ، وهو معنى قوله تعالى^(١) ﴿ألم تر أن الله يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات كل علم صلواته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾ . وبهذه الطريقة وحدها يمكن أن تسود العدالة التامة والحرية الكاملة لأن قوانين الله تعالى تعطي كل شيء حقه ، ولا يمكن لشيء أن يخطو خارج دائرة حقوقه الى دوائر حقوق الأشياء الاخرى . وبطبيعة الحال ، فان الله لا يسلب حقوق المخلوقات لأنه ليس بحاجة لان يفعل ذلك .

ان القوانين التي تحكم المادة والغرائز موجودة في ذات الأشياء وتولد مع الأحياء ، ولكن ليس القوانين التي تحكم السلوك الواعي . ولما كان الله مطلق العدالة فانه لا يترك الانسان جاهلاً بهذه القوانين . وقد يسأل البعض لماذا لم يجعل الله هذه القوانين تولد مع الانسان كجزء من خلقه كما هي الحال مع القوانين الاخرى ؟ والجواب على ذلك هو انه في هذه الحالة فان المخلوق سوف لن يكون انساناً ، بل سيكون مخلوقاً من نوع آخر . وقد تكون هناك مخلوقات كهذه في أماكن اخرى ، كالملائكة على سبيل المثال ، والذين يخلقون وهم يعلمون ما يحتاجون ان يعلموه . وعلى كل حال فان الطريقة الوحيدة لاطلاع الانسان على القوانين يجب أن تكون خلال واسطة يفهمها ، أي خلال السمع والبصر . وعقل الانسان لا بد وانه مصنوع بحيث يمتلك القابلية على فهم هذه القوانين . والاسوف لن يكون هناك معنى للمشروع بأكمله ، لأنه سيعني ان الله ظالم (تعالى عن ذلك) ، فهو خلق الانسان على مستوى من الادراك لا يمتلك معه القابلية على فهم وتطبيق القوانين التي تحافظ على وجوده وسعادته كبقية المخلوقات . وهذا بطبيعة الحال يناقض عدالة الله المطلقة . من ذلك نستنتج ان الانسان لا بد وان يكون قد تم اخباره بهذه القوانين بواسطة احد افراد مجتمعه ، أو مجموعة من الافراد الذين يستطيع أن يتفاهم معهم ، وهو ما تقصده الآية

(١) سورة النور، آية ٤١ .

الكرمية^(١) ﴿قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً﴾ . وهؤلاء الأفراد هم الأنبياء الذين يتم اختيارهم تحت ظروف خاصة (وقد ذكرناها سابقاً) لاستلام التعاليم خلال واسطة معينة ثم ينخبونها الى الآخرين . فالانسان وحده لا يستطيع معرفة هذه القوانين لأنها لا تولد معه كبقية قوانين الفيزياء وقوانين الغريزة ، والسبب في ذلك ان هذه القوانين خاصة بإرادة الانسان الحرة ، والتي تكون حرة فقط اذا أُسح لها المجال لان توضع موضع التنفيذ أولاً ثم بعد ذلك يأتي الحكم على صحة استخدامها ، بالضبط كما نشاهد كيفية الفصل في قضايا المحاكم بعد اقرار الجرمية أو حدوث الاختلافات بين الناس .

ضرورة العبودية :

كيف يكون الحديد حديداً ولا شيء سوى الحديد ؟

تقول لنا علوم الفيزياء والكيمياء انه يبقى حديداً باتباعه القوانين وخضوع مكوناته وذراته الى القوانين التي تجعله حديداً . وهذا معناه انه لو لم تطع مكونات الحديد تلك القوانين لما وُجد الحديد ، أي انه سيفنى كحديد . اذن فان طاعة الحديد لتلك القوانين ضرورية لوجوده . ولما كانت هذه القوانين هي أوامر الخالق تعالى ، فان الحديد موجود كحديد بضرورة طاعته لله ، أي ان اتصاله بالله تعالى وعبوديته له ضرورية لوجوده ، ولا يمكن أن يوجد في هذا الكون بدون العبودية لله .

وكذلك الحالة مع جميع المخلوقات فانها لا يمكن ان يكتب لها الوجود بدون اتصالها بالله تعالى وعبوديتها له . فالعبودية اذن ضرورية لوجود الأشياء ، وبدونها تفنى الأشياء لانها انما أصبحت على ما هي عليه بسبب اطاعتها للقوانين

(١) سورة الاسراء - الآية ٩٥ .

التي تسري فيها لربط اجزائها ببعضها البعض . وهذا هو معنى العبودية للخالق ومعنى ضرورتها ، فهي جزء من كينونة الأشياء لان الأشياء ليست أشياء بدونها . ومن هنا جاء قوله تعالى (١) ﴿وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً﴾ . وهذه العبودية هي الارتباط بين الأشياء والخالق . وهو المقصود بالقول الحكيم (٢) (فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على المازجة) . والذي معناه ان الارتباط بالله هو الطاعة العمياء لقوانينه ، وبعده الأشياء عن الله هو بُعد نوعي (من ناحية نوع الوجود) وليس بعداً من ناحية المسافة .

والناس ليسوا أناساً بدون العبودية لله ، لأنه بدون اطاعة قوانين الخلق يتحولون الى اشياء اخرى تماماً بنفس الطريقة التي يتحول فيها الحديد الى شيء آخر اذا لم يطع القوانين الفيزيائية (وهي قوانين الخلق بالنسبة له) . ولكن الى أي شيء يتحول الانسان عندما يسير بعكس قوانين الخلق ؟ انه يهبط الى مستوى الحيوان . وهذه الحالة مشابهة لحالة المجتمع اذا خالف فيه جميع الأفراد القوانين والاعراف فيتحول الى فوضى كاملة ويسود الظلم وتنتشر المعاناة والتعاسة وتنفقد الراحة والسعادة . فالأشياء التي تخالف قوانين الخلق تفقد حقها في الوجود لانها تشذ عن المسار المرسوم لها . والانسان خلق كإنسان ، فاذا فقد حقه في الوجود فانه يفقد حقه في الوجود كإنسان ويتحول الى وجود من نوع وجود الحيوان . والحيوانات لا تحتاج (بموجب خلقها) الى الحب والعطف الذي يحتاجه الانسان ، ولذا فاذا عاش الانسان عيشة الحيوانات فانه سيعاني من حرمان الحب حرماناً تاماً ، وهذا بطبيعة الحال يقوده الى جميع انواع المعاناة الاخرى . وهذا هو المقصود بفقدان رحمة الله وعطفه ، وهذا هو المقصود بان الانسان

(١) سورة آل عمران - آية ٨٣ .

(٢) الامام علي ، نهج البلاغة .

يتحول الى حيوان . فهو يتحول الى مخلوق مادي التطلعات والسلوك بكل معنى الكلمة مما يؤدي الى التدمير التام للمجتمع خلال الحروب والويلات . وهذا ما حدث للمجتمعات القديمة التي شيدت حضارات ضخمة والتي لم تكن حضارات إلهية عادلة ، ولكنها حضارات مادية سارت ضد قوانين الخلق فانتهت بالدمار والفناء . وهذا ما سيحدث للحضارة المادية المعاصرة أيضاً . فسنة الله هي نفسها^(١) ﴿فلن نحمد لسنة الله تبديلا ، ولن نحمد لسنة الله تحويلاً﴾ . فالأشياء التي تشد عن مسارها المرسوم لها تتيه في عالم الوجود ، ولكن الناس والمفكرين الماديين ، خاصة الأوروبيين منهم ، في جهل كامل لهذه الحقائق لأنهم بعيدون كل البعد عن التحليل الصحيح للحوادث والأمور . فالله خلق الانسان ومعه قوانينه التي تحافظ عليه كما خلق الحديد وقوانينه التي تحافظ عليه ، وكما خلق بقية الأشياء وقوانينها . واذا أراد الانسان أن يصل الى النهاية الصحيحة المرسومة له من قبل الخالق فعليه اطاعة القوانين . اما اذا اختار عصيان القوانين وانتهى الى الدمار والفناء فسيكون ذلك ذنبه هو وليس الخالق . فالخالق وضع بنا الرحمة والعطف على بعضنا البعض ، وهذه يمكن لها أن تسود بصورة صحيحة اذا أطعنا الأوامر ، وهذه الطاعة تؤدي الى الحفاظ على حقوق الافراد وامتيازاتهم بموجب الخلق ، والتي هي الحالة الوحيدة الصحيحة ، وأي شذوذ عن هذه الحالة الصحيحة تتضمن الظلم بالضرورة لأنها محاولة بتبديل المسار الذي قرره الخالق المطلق .

ولتوضيح ما أسلفنا بنظرة اخرى نقول ، لما كان الله تعالى قد خلق الأشياء كلها ومنحها حقوقها في الوجود وفي ممارسة امتيازاتها التي تخص وجودها ، وكما قلنا فان ممارسة هذه الامتيازات بصورة صحيحة هي في الحقيقة جزء من العبودية للخالق واطاعة أوامره لأنه لا يحدث شيئاً بدون القوانين ، فانه سيتبع ذلك ان اخذ امتيازات شيء ما معناه حرمان ذلك الشيء من ممارسة حقوقها ومن ممارسة

(١) سورة فاطر - الآية ٤٣ .

طاعته للخالق ، وهذا يطلق عليه الظلم . لذا فان سبب تحريم الظلم هو لأنه تمرّد على قوانين الخلق التي جعلت الكون كما هو ، وسلبَ لحقوق الآخرين والاعتداء عليها وهو أيضاً عدم وضع الشيء في موضعه . وأي عصيان يُقضى عليه للسبب البسيط هو ان العصيان معناه خروج المخلوق من مساره الى مسار آخر تحكمه قوانين اخرى مختلفة ليست موضوعة له ، ولذا فانها لا تنسجم مع طبيعته . فاذا خضع لقوانين كهذه فانه لا محال يتغير الى شيء آخر بموجبها . لذا فان الذنب هو ذنب المتمرّد لما يمكن أن يحصل له ، وليس الخالق . قال تعالى (١) ﴿ما يبدل القول عندي وما أنا بظلام للعبيد﴾ .

فالخلل الذي يحدث في تركيب مادة معينة لا يُسمح له بالوجود وانما يقضى عليه مباشرة وفي منتهى القسوة بواسطة تغيير هذه المادة الى نوع آخر أو الى حالة اخرى . والظلم عصيان لا يسمح به أيضاً ولكن يُقضى عليه بطريقة مختلفة لان الخروج عن القانون فعل واع كما رأينا . ولما كان الخالق مطلق من جميع النواحي ، وهو خالق الأشياء كلها ، وهو السبب في وجودها ، فانه من العدالة والاخلاق ، ومن صحة الامور أن تعبد المخلوقات وتطيع أوامره . وهذا هو المقصود بالقول الحكيم (١) (إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني عرفت أنك أهل للعبادة فعبدتك) وهذا هو معنى العبادة ، انها اطاعة أوامر الخالق دائماً وفي كل الأعمال ، وليست الذهاب الى الكنيسة مرة في الأسبوع والاستماع الى أغاني الارغون . كما انها ليست بسبب الخوف من المجهول كما يظن (رسل)، ذلك الفيلسوف الأبله ، ولكنها لأن الله يستحق ان يُعبد ويطاع . وهذا معنى الآية الكريمة (٣) ﴿وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون﴾ .

(١) سورة ق، الآية ٢٩ .

(٢) الامام علي - نهج البلاغة .

(٣) سورة الذاريات - آية ٥٦ .

الثواب والعقاب بعد الموت

تسود العدالة الكون ، ولقد رأينا ان هناك ردعاً وعقوبة لكل شيء يشذ عنها . ولكننا نرى ان الانسان يشذ عن هذه العدالة فيظلم ويعبث في الأرض فساداً ثم يموت دون عقوبة تتفق مع عمله وظلمه فكيف يمكننا أن نفهم ذلك من خلال مفهوم الوجود الذي سردناه ؟ هل انه شذوذ عن الاطار العام ؟ اذا كان كذلك ، لماذا يكون الاستثناء الوحيد عن القاعدة ؟ عند التمعن في هذا الموضوع نرى انه ليس هناك مبرر لاستثنائه .

ولكن اذا كان الظالم يموت بدون عقاب يتلاءم مع ظلمه فمتى وأين العقاب إذن ؟

لا شك ان نوعية العقاب ووقته ، وأي شيء آخر في هذا الوجود المتزن ، لا بد وان يكون متناسين مع نوعية العصيان . فالزمن يكون مباشرة بعد الشذوذ ، عدا ما يخص تلك الأفعال التي تتعلق بالارادة والاختيار ، والتي تتأخر العقوبة بالنسبة لها الى ما بعد اكمال الأفعال المخالفة للقوانين . وعلى سبيل المثال ، اذا القي القبض على انسان يقترف جريمة فانه يقدم الى المحاكمة ، وهي عملية تستغرق وقتاً للنظر في موضوع الجريمة ونوعيتها ، وتُعقد المحاكمة بعد وقت اقرار الجريمة والسبب في ذلك هو ان الانسان يجب أن يُعطى الفرصة لاطاعة القوانين أو الشذوذ عنها لأنه ليس من المعقول معاقبة الأبرياء بدعوى انهم قد يقترفون الجرائم . لذا فان ارجاء انزال العقوبة ضروري لممارسة الارادة . وبذلك فان العقوبة تأتي بعد عصيان قانون الخليقة الالهي . ولذا بالنسبة للانسان فان العقوبة تأتي بعد اجراء المحاكمة الالهية ، والتي تقام بعد الموت للنظر في الجرائم ، أي بعد أن ينهي الانسان مدة اقامته في هذه الحياة الدنيا ، لأنها لا تحدث في هذه الحياة . وبهذه الطريقة فقط تكمل مطلقة العدالة الالهية ، والا فانها لن تكون مطلقة .

وقد يتساءل البعض ، انه لما كان الله يعرف ان فرداً من الناس سيعصي الأوامر ويتجه بعكس قوانين الخليقة ، لماذا يتركه يفعل ذلك ؟ لماذا يعاقبه بعد الموت وبعد اجراء المحاكمة ؟

في الواقع ان السؤال الأول قد تمت الاجابة عليه لأن الانسان يمتلك الارادة التي لا معنى لها اذا لم يمارسها . أما السؤال الثاني فان اقامة المحاكمة بعد اقرار الجريمة هي الطريقة الوحيدة التي تنطبق على تعريف العدالة الحقيقية ، حيث يُسأل الانسان عما فعل وعن الأسباب التي دعت ان يظلم ، ويُعطى فرصة للدفاع عن نفسه .

وكما ان العقوبة ضرورية لاقامة العدل ، فان الثواب ضروري لاتمام الهدف الذي تُجرى من اجله العقوبة ، وهو تحقيق العدالة . فاذا كانت العقوبة قد وُضعت لأولئك الذين يعصون الأوامر ، فماذا عن أولئك الذين يطيعونها ؟ لا بد وان هناك ثواباً على ذلك لانه بدون الثواب يصبح المشروع ناقصاً ويفقد معناه . فما هو الثواب ؟ انه البقاء في الوجود والسعادة . فبالنسبة للحديد فانه يبقى حديداً ، وبالنسبة للأرض والشمس فانها لا تصطدمان مع بعضهما البعض بل كل منهما يبقى في مساره . وثواب الغرائز هو الاحساس بالنشوة واللذة . فمن الصعوبة تصور كيفية الحفاظ على الحياة بدون اللذة والألم ، أي بدون الثواب والعقاب . وماذا عن أفعالنا الارادية إذن ؟ الجواب على ذلك هو أننا باطاعة الأوامر الالهية نحافظ على سعادة المجتمع الانساني ، وعلى حقوق وممتلكات الأفراد دون المساس بها . فالذين يقتربون الجرائم يجب معاقبتهم والذين يتبعون الأوامر يجب اثابتهم لأنهم يساهمون في المحافظة على سيادة العدالة في المجتمع ، والمحافظة على سعادة وممتلكات الآخرين . ومن هنا جاءت أحقية الجنة والنار . ان وجودهما ضروري لاكمال مشروع الوجود . وثواب المطيع يكون في الدنيا والآخرة ، سعادة في الدنيا وسعادة في الآخرة ، اما عقاب العاصي للأوامر فانه تعاسة في الدنيا وتعاسة في الآخرة . فالمرجوم يعيش تعيساً في

دنياه مكروهاً من قبل الناس، وله في الآخرة عقاب شديد . ومن هنا جاء قوله تعالى^(١) ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ .

ونود هنا أن نذكر ما يقوله (برتراند رسل) عن موضوع العقاب . انه يسأل أي إله هذا الذي يعاقبنا بهذه القسوة ما بعد الموت بسبب الذنوب التافهة والصغيرة التي نفترفها في هذه الحياة؟ وواضح ان (رسل) أساء فهم الموضوع كلياً ، وفاتت عليه سببية العلاقات بين الأفعال الخاطئة (أو الذنوب) وبين عقابها . فلو اننا حذرنا انساناً من عدم رمي نفسه من بناء شاهق ، ولو انه كان عنيداً ورمى نفسه من أعلى البناء وتكسرت عظامه ، فهل يستطيع (رسل) أن يقول ان هذه العقوبة قاسية بالمقارنة مع عناد الشخص؟ بالطبع كلا . وبالرغم من ذلك فانه لا يستطيع أن يرى بأن نوعية العقوبة تتناسب مع نوعية الذنب . فقتل انسان قد لا يستغرق أكثر من فعل الضغط البسيط على زناد المسدس الا ان النتيجة كبيرة وهي اعدام حياة انسان . وكذلك الحال مع الثواب ، فان نوعيته تتناسب مع مقدار الاتباع الصحيح للقوانين .

والسؤال الذي يبقى هنا هو : ما هي قوانين الخالق التي يجب اتباعها بالنسبة لأفعالنا الارادية ؟ وبطبيعة الحال اننا نعتقد أنها قوانين الاسلام . الا ان معتنقي الاديان الاخرى لا يتفقون مع هذا الرأي بطبيعة الحال لان كلاً منهم يعتقد انه هو الصحيح . وليس الغرض من هذا الكتاب بحث هذه المسألة ، ولكننا نستطيع أن نقول بكل ثقة انه اذا كان الله عادلاً ، وهو كذلك ، فان قوانينه يجب أن تكون نفسها لكل البشرية لانه ليس من المعقول تطبيق قوانين مختلفة على المجتمعات البشرية المختلفة فيسمح لبعضهم بممارسة ما يمنع عنه الآخرين . وهذا أيضاً يفند الرأي القائل ان الأديان المختلفة هي كالنظر الى نفس الشيء من زوايا مختلفة . وبذلك فان هناك ديناً واحداً صحيحاً ، وجميع

(١) سورة الذاريات - آية ٢٣ .

الأديان الأخرى خاطئة . وقد لا تكون جميع تعاليم الأديان الأخرى خاطئة ،
ولكن كل واحد منها إذا أخذ لوحده فسوف يتضمن بعض التعاليم الخاطئة مما
يجعله غير مقبول عندما يؤخذ ككل .

المصادر.

BIBLIOGRAPHY

- 1 - (Man , Time and Fossils), by , Ruth Moore , Alfred A. Knopf , 2nd edition , 1971 .
- 2 - (Process of Organic Evolution) , by , G . Ledyard Stebbins , Prenticehall , Inc . , 2nd edition , 1971 .
- 3 - (Genesis Revised) , by , Glenn G. Strickland, The Dial Press , 1979 .
- 4 - (Chance and Necessity) , by , Jacques Monord , translated to English by Austryn Wainhouse , Alfred A . Knopf , 1971 .
- 5 - (Three Billion Years of Life) , by , Andre De Coyeux , translated to English by joyce E. Clemow , Stein and Dry Publishers , New York , 1969 .
- 6 - (Evolution Now) , Edited by , John Maynard Smith , W. H. Freeman and Company , 1982 .
- 7 - (The Story of Life from The Beginning to You) , by , Kim Marshall , Holt , Rinchart and Winston , 1980 .
- 8 - (Human Origin) , by , Richard E. Leakey , Ladestar Books , 1982 .
- 9 - (Evolution Goes on Every Day) , By , Dorothy Hinshaw Patent , Holiday House - New York , 1977.
- 10 - (Genesis Mystery) , by , Jeffery Goodman , Times Books , 1983 .

- 11 - (The Naked Ape) , by , Desmond Morris , Jonathan Cape , 1986 .
- 12 - (Not From the Apes) , by , Bjorn Kurten , Pantheon Books , 1972 .
- 13 - (The Global Brain) , by , peter Russell , J.P. Tarcher , Inc . , 1983 .
- 14 - (Evolutionary Anthropology) , by , Herman K. Bleibtreu , Allyn and Bacon , Inc . , 1969 .
- 15 - (Adam»s Ancestors)by , L.S.B. Leakey , Harper and Row , Publishers , 1960 .
- 16 - (African Genesis) , by Rober Andrey , New York Atheneum , 1968 .
- 17 - (The Ascent of Man) , by , J. Bronwski , Little , Brown and Company , 1973 .
- 18 - (The Human Race) , by Terence Dixon and Martin Lucas , Thames Methuem , 1982 .
- 19 - (The Phenomenon of Man) , by , Pierre Teilhard De Chardin , Collins Sons and Co . Ltd , 1966 Print .
- 20 - (The Myth Mader , Paul and The Invention of Christianity) , by , Hyam Maccoby , Weidenfeld andd Nicolson , London , 1986 .
- 21 - (The Forces of Nature) , by , P.C.W. Davies , Cambridge University Press , 1979 .
- 22 - (ABC of Relativity) , by , Bertrand Russell , Unwin Paperbacks , Third Revised Edition , 1969 .
- 23 - (General Relativity from A to B) , by , Robert Geroch , The University of Chicago Press , 1978 .
- 24 - (Space , Time , and Gravity) , by , Robert M. Wald , The University of Chicago Press , 1977 .
- 25 - (Religion and Science) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1961 .
- 26 - (Mysticism and Logic) , by , Bertrand Russell , George Allen and Unwin , 1970 Print .
- 27 - (Why I am not a Christian) , by , Bertrand Russell , Unwin Books , 1975 .
- 28 - (History of Western Philosophy) , by , Bertrand Russell ,

Unwin , 1982 .

29 - (The Problems of Philosophy) , by , Bertrand Russell , Oxford University Press , 1978 .

30 - (Dictionary of Mind , Matter and Morals) , by , Bertrand Russell , The Citadel Press , 1965 .

31 - (The Christian Centuries from Christ to Dante) , by , Robert Payne , W.W. Norton Company , Inc . 1966 .

32 - (The First Urban Christians) , by , Mayne A . Meeks , Yale University Press , 1983 .

33 - (The Analysis of Mind) , by , Bertrand Russelle . George Alen and Unwin Ltd . , 1971 .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الإهداء	٥
مقدمة المؤلف	٧
الباب الأول - تخطيط الفكر الأوروبي	١٣
الفصل الأول - الحالة الفكرية للكنيسة	١٥
الفصل الثاني - الإنسان ومشكلة الخليقة	٣٣
الفصل الثالث - تأثير نظرية التطور	٥١
الباب الثاني - التطور	٦٩
الفصل الرابع - نظريات الخلية الحية	٧١
الفصل الخامس - المعلومات التي احتاجتها الخلية	١٠٣
الفصل السادس - التطور ونقده	١١٧
الفصل السابع - تحليل بعض المفاهيم	١٥٩
الفصل الثامن - الإنسان والتطور	١٧٩
الفصل التاسع - الخلق	٢٠٣
الباب الثالث - وجود الروح والخالق	٢١٣
الفصل العاشر - الزمن والسؤال	٢١٥
الفصل الحادي عشر - الصفات الإلهية	٢٣٣
الفصل الثاني عشر - الروح	٢٤٩
الفصل الثالث عشر - العدل الإلهي	٢٧٩
الفصل الرابع عشر - لمن العبودية ؟	٢٩٩
المصادر	٣١٧
الفهرس	٣٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل الملف من

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

The Guided Islamic Library for Comparative Religion

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>



مكتبة إسلامية مختصة بكتب الاستشراق والتنصير
ومقارنة الأديان.

PDF books about Islam, Christianity, Judaism,
Orientalism & Comparative Religion.

لا تنسونا من صالح الدعاء

Make Du'a for us.